في تصنيف لغة إبلا

ف.فون زودن*

ترجمة:د.فاروق إسماعيل
جامعة حلب

لم يُتفق بَعْدُ بشكل تام على وجود أسرة لغوية خاصة هي«السامية الشمالية» ضمن إطار فصيلة«اللغات السامية».

لقدكان ب.لندس برجر B.LANDBERGER ـ قبل ستين عاماً ـ أول من رأى أننا لانستطيع تقسيم أسماء الأعلام السامية التي كانت شائعة في العهد البابلي القديم إلى أسماء أكدية وأمورية ـ أو حسب اصطلاحه كنعانية شرقية ـ فحسب. وقد أظهر رأيه هذا تأثيراً واضحاً في كتاب ت.باورTH.Bauer المعنون بـ«الكنعانيون الشرقيون»(١).

لقد عرض الكتاب المذكور(ص ٤٢ ومابعدها) مجموعتين من الأسماء الكنعانية الشرقية التي يمكن أن تصنف في قسمها الأكبر كأسماء أكدية وأمورية في آن واحد. وهي الأسماء المنتهية باللاحقة(آنوم) والمبينة بالتكرار نحو بوز بوز(م)، ديج ديج(م) وغيرهما. ولم يزعم آنذاك أن جميع أسماء تلك المجموعتين ذات أصل واحد.

بعد ذلك بزمن قصير أكد م. نوت(٢) M.Noth مع اختلاف في التفاصيل الجزئية ـ أن المرء يميز بين الأسماء السامية العائدة إلى الألف الثاني ق.م أكثر من مجموعتين مختلفتي الأصل. وقد استخدم آنذاك مصطلح «الآرامية الأولى»الذي تبناه فيما بعد ي ليفيJ Lewy ولامجال هنا لمناقشته وأكتفي بالاشارة والتوجيه إلى دراسة د.و ادزارد D.O.EDZRD «ماري والآراميون»(٣).

لقد طرحت كثير من الأسئلة الجديدة عندما اتضح وجود أسماء كثيرة أقدم تعود إلى العهد الأكدي القديم. ونحن مدينون بالشكر لـ ي.جلب.I.J.Gelb لجمعه إياها في كتابه«مسرد اللغة الأكدية القديمة»(٤).

دراسات تاريخية ، العددان٥٣ / ٥٤ ، تموز ـ كانون الاول ١٩٩٥

لقد بينت الدراسة الأولية لكتابه هذا أننا لانستطيع بأي شكل من الأشكال عدّ جميع الأسماء السامية العائدة إلى العهد الأكدي وعهد سلالة أور الثالثة أسماءً أكدية، بل يجب النظر إلى كثير منها على أنها شواهد لغة سامية أخرى.

لقد أشرت إلى ذلك في مقالتي«حول تصنيف اللغات السامية»(٥) ، وبينت اعتراضي على تحديد ثلاث أسر لغوية فقط ضمن اللغات السامية، واقترحت تسمية الأسرة اللغوية التي أضفتها بـ(الأمورية القديمة)، لكني تراجعت عن اقتراحي ذاك فيما بعد لأنه شاع مع الزمن إطلاق تسمية (الأمورية)على اللغة الكنعانية المبكرة العائدة إلى عهد حمورابي)(٧).

إنني أفضل تسمية (الكنعانية المبكرة) على (الأمورية)أو (الكنعانية الشرقية)، لأنها تعبر بوضوح أكثر عن حقيقة انتماء هذه اللغة. ولكن ذلك ـ كما يبدو ـ لايلقى قبولاً.

لقد اقترحت تسمية (السامية الشمالية) للأسرة اللغوية السامية الثانية التي ظهرت في الألف الثالث ق.م ـ لأول مرة ـ في دراستي حول اسم الإله(يهوه)(٧)، ولكن ليس المهم في الأمر هو تسمية المجموعة لغوية؛ وإنما التساؤل المطروح: هل من الضروري حقاً تحديد لغة أو أسرة لغوية سامية أخرى بين لغات الشرق الأدنى القديم؟

لايمكن تقديم إجابة مفصلة تسلط الضوء على جميع جوانب المسألة إلا في دراسة تفصيلية معمقة. ولكن يمكن ـ ضمن إطار هذه الندوة ـ تقديم تقرير قصير يبين بعض النقاط الأساسية بإيجاز.

في البدء ، تجب الإشارة باختصار شديد إلى الصعوبات المرتبطة بمصطلح«أسرة لغوية» لأنه لايوجد على حد علمي تحديد تام له.

لقد قسمت المجموعات اللغوية الأساسية الكبرى كالسامية والهندوجرمانية منذ زمن بعيد إلى أسر لغوية، ولكن اكتشاف لغات مجهولة ميته في هذا القرن دفع إلى التفكير بوجود أسر لغوية أخرى وإلى ضرورة التفكير بوجود أسر لغوية أخرى وإلى ضرورة التفكير بتصنيف عام جديد. وقد استغرق الاتفاق على أسر لغوية جديدة كـ(اللغات الحثية) زمناً طويلاً.

ثمة تساؤل تردّد ويجب أن يستمر هو: ماهي الحالات التي تتطلب بالضرورة تحديد أسرة لغوية جديدة للغة ماحديثة الاكتشاف؟

إن صعوبات الأمر قليلة جداً فيما يتعلق باللغات الهندو جرمانية لأنها وفيرة العدد ومنتشرة جغرافياً بشكل أوسع ومتمايزة عن بعضها بوضوح. ولكن كيف وعلامَ نعتمد في تحديد أسرة لغوية جديدة من ا للغات السامية؟ هل تكفي الفروق الكبيرة بين صيغ الضمائر أو أنماط بناء الاسم أو صيغ الجمع أو البناء الفعلي أو ا لتصريف؟ وأية أهمية نوليها للثروة اللغوية المعجمية؟ وهل لها حقاً أهمية قليلة بسبب كثرة الكلمات المستعارة منها إلى اللغات المجاورة بشكل خاص؟

أخشى ألا نصل إلى الاتفاق على جواب محدد على هذه التساؤلات؛ ولاسيما إذا كانت

النصوص المتوافرة لاتسمح بإنجاز دراسة نحوية مفصلة ومعجم شامل يجمع القسم الأكبر من الثروة اللغوية. وعندها ربما يكون من واجب المرء الاكتفاء بمجرد طرح آراء ذرائعية واقعية.

قبل أن تدخل لغة إبلا دائرة معارفنا قبل سنوات كانت هناك ـــ خلال المئة والثمانين سنة الأخيرة ـ على الأقل اثنتا عشرة لغة مختلفة معروفة ـ إذا صح تعدادي لها ـ مكتشفة ضمن الإطار الجغرافي المحصور بين فلسطين وايران، وتعود تاريخياً إلى ماقبل العهد الهلنستي.

لقد بقيت تلك اللغات قروناً كثيرة ميتة مجهولة تماماً للغرب والشرق على السواء، وهي لغات مدونة غالباً بالكتابة المسمارية. ونشير إلى أن تلك اللغات الاثنتي عشرة لاتشمل لهجات كثيرة ـ ولاسيما الأكدية ـ، وتتطلب بعضها دراسات استنتاجية جديدة لها.

خلال هذا الزمن الطويل استطاع العلم أن يجني تجارب متنوعة عدة من دراسة لغات أمكن إعادة فهمها وإحياؤها رغم عدم تواصلها مع تراث لغوي حي. وهي تجارب مختلفة؛ فقد لقي بعضها النجاح وأخرى النجاح الجزئي، وأخفقت بعضها. وفي جميع الحالات تطلب الأمر ربطها مع لغات معروفة جيداً، مستخدمة أو غير مستخدمة، وذلك لإيجاد مدخل لفهمها.

لقد تجلّى مراراً أن الاستفادة من اللغات المعروفة لم تَقُد بالضرورة إلى معرفة صحيحة كثيرة. بل أدت أحياناً إلى أخطاء لم تميز بسرعة. وغالباً ماميزت بشكل خاص وأبعدت عنها بسرعة التفسيرات الدلالية الخاطئة للكلمات. وغالباً مالاحظ المرء بشكل متأخر أن الفروق بين اللغات المستخدمة أكبر مما هو ظاهر ولاسيما اذا كان ذلك متعلقاً بلغات من فصيلة واحدة ولكن من أسرتين مختلفتين مثل الأكدية والعبرية أو الحثية واللاتينية، هنا يجب علينا الابتعاد عن ذكر الأمثلة لانها تحتاج عادة إلى شروح. ولكن ماذا تعني هذه التصورات بالنسبة للغة إبلا التي ستطول الدراسات الأولية حول تصنيفها بالتأكيد سنوات أخرى؟

ماأقصده هو أن بعض التجارب ذات الأساليب الخاطئة التي جرت عند تصنيف لغات مسمارية أخرى يجب أن تدفعنا إلى التحذير من السرعة في ضم لغة إبلا إلى أسرة لغوية محددة من فصيلة (اللغات السامية). وهذا يعني ـــ بشكل محدد ـ أنه يتوجب علينا ألا نحدد الآن انتماء لغة إبلا إلى الأسرة الشمالية الغربية وقربها الشديد من اللغة الكنعانية، كما يفعل ج.بيتيناتو G.Pettinato معتمداً على رأى ج.جاربيني G.Garbini الوارد في الصفحة (٦٤)من كتابه عن إبلا، رغم وجود مظاهر لغوية وفيرة قد تدفع إلى ذلك.

وسيكون أيضاً من مخاطر التقدير المتسرع غير المحكم للمظاهر اللغوية إذا ماعتمدنا على سمات لغوية أخرى، وصنفنا بسرعة لغة إبلا في أسرة اللغات السامية الشمالية الشرقية، وعددناها شكلا من أشكال الأكدية الغربية.

وإذا ماحاولنا تفسير كلمات لغة إبلا فيمكن لنا الاستعانة بالمعجم العبري، ولكن من ناحية ثانية قد يكون المعجم الأكدي أيضاً مصدراً مفيداً لاغبار عليه. أما إذا تحاشينا الآن تصنيف

لغة إبلا على أنها سامية شمالية غربية أو سامية شمالية شرقية فإننا نربح بذلك المسافة النقدية الضرورية تجاه جميع معاجم اللغات السامية الأخرى. إنه من الممكن لنا بل الواجب علينا أن نستفيد منها جميعها، ولكن بدون مجازفة تقود إلى التأثر بإحداها دون تروٍّ وتمحيص.

ماعلاقة هذه التصورات المنهجية مع التساؤل المطروح: هل وجدت أسرة لغوية سامية شمالية إلى جانب الأسر اللغوية السامية المعروفة؟

أنا أقصد من ذلك الكثير، لأن مسألة نسب لغة إبلا إلى الأسرة السامية الشمالية يجب أن تعرض للنقاش مادمنا نفكر في مواجهة تصنيفها في الأسرة الشمالية الغربية أو الشمالية الشرقية.

سيبرز بالتأكيد مباشرة الاعتراض التالي: ألا تسري التصورات التي اعتمدناها في إنكار وصف لغة إبلا بـ(الكنعانية الأولى؛ أو (الأكدية الغربية) أيضاً ضد تصنيفها في أسرة اللغات السامية الشمالية؟ وصحيح أنها قد لاتسري بعد بقوة، ولكن السبب في ذلك هو أن السامية الشمالية- بالنسبة لنا - مازالت ذات مساحة واسعة غير محددة الأطر!

إنني إذ أرحب بهذا الاعتراض أذكر أمرين أساسين متعلقين به، هما:

١- إن احتمال ألاّ تشكل لغة إبلا مع لغة الأسماء العائدة إلى الألف الثالث وبداية الثاني ق.م المسماة مبدئياً بالسامية الشمالية أسرة لغوية واحدة احتمالٌ قائم. ولكنه في الوقت نفسه ليس مرجحاً وجود أسرة لغوية رابعة - إلى جانب الأسر الثلاث التي أشرنا إليها- في الإطار الجغرافي نفسه وفي الفترة التاريخية نفسها تقريباً.

٢- لايوجد حتى الآن معجم لغوي أو مسرد ألفاظ يضم جميع الأسماء(الشمالية الغربية) يمكن أن يحثنا على الإسراع في عملية تحديد معاني مفردات لغة إبلا بالاستفادة من تلك الأسماء.

إننا إذا ماأردنا صياغة منطلق عمل نظري -رغم كل الضوابط التي عرضناها- على نحو: «تشكل لغة إبلا مع لهجات لغة أو عدة لغات يمكن استخلاصها من أسماء ومفردات معينة وأساليب بنائية ضمن الأكدية المبكرة، وعلى الأرجح مع اللغة الأُجَريتية(الأوغاريتية) أسرة لغوية مستقلة ضمن اللغات السامية القديمة» فإننا لانفعل بذلك شيئاً إطلاقاً، بل يمكن أن يضر بشكل جدي تصميمنا على معالجة أمر لغة إبلا.

لدينا تصور معين عن الفروع المتأخرة لهذه الأسرة اللغوية وكذلك عن الأجريتية، ولكننا لانريد أن نستمد من الأُجريتية نتائج عميقة واسعة تتصل باللغات السامية الشمالية الأقدم بكثير، لأنها(أي الأُجريتية) تأثرت بالكنعانية في مجال البناء اللغوي والثروة المعجمية، وذلك بسبب العلاقات المتنوعة لسكان أجرت مع المجموعات الكنعانية. إنه ليس مستبعداً أن تكون لغة إبلا مرحلة لغوية مبكرة من الأجريتية، ولكن يجب - في اعتقادي - ألا يكون ذلك منطلقاً

للبحث.

لم أتفق أبداًمع رأي كثير من الباحثين في أن الأجريتية لغة كنعانية، فرغم الاشتراك في البناء اللغوي والثروة اللغوية هناك أيضاً اختلافات كثيرة جداً. وأود الإشارة هنا إلى أمر واحد يتعلق بـالمعجم، وهـو أن الأجـريتيـة لاتستخدم لأداء معنـى (يـرى) المفـردة الكنعانيـة(رأى) ولا الأكديـة(أَمارُ«م») ولاالآرامية (حَزا)؛ وإنما فعـلاً مختلفاً تماماً هو (فُـوه ـ بتشديد الفـاء ـ). بالمقابل تجدر ملاحظـة أن جميع اللغات السامية ـ على خلاف ماسبـق ـ تتفق في امتلاك جذر لغوي واحد لفعل(يسمع) هو (ش م ع).

لقد قلـت في البدايـة أن ت. باور قام قبـل أكثر مـن خمسين عاماً في كتـابه عـن الكنعانيين الشرقيين بتحليل مجمـوعات من أسماء الأعـلام في العهد البـابلي القديم وهـي أسماء لم يكن ممكناً تفسيرها بالإعتماد على اللغة الأكدية ولا الكنعانية .

سأتعرض الآن إلى الأسماء المنتهيـة باللاحقة(آنـوم) لأنها لافتة للنظر من بينهـا، وسنرى إلى أية درجة صار واقع المشكلة معقداً.

لنقارن قائمة بـاور وبعض مسارد الأسماء الواردة في المؤلفات التي تتضمـن نشراً لوثائق بابلية قديمة مع الأسماء المفهرسة في الجزء الثالث من كتاب جلب الذي يختصر بـ MAD (٨) ـ وهي أسماء تعود إلى العهـد الأكدي وعهد سلالة أور الثالثـة ـ والأسماء الواردة في نصوص إبلا حسب المصنـف الذي نشره ج. بيتيناتو(٩)، وكـذلك مع أسماء واردة في نصوص أجـريت مماثلة في طـريقة بنائها (١٠) وسـوف نلاحظ بوضـوح فروقاً كبيرة بينها مـن حيث كميتها العددية ونماذج بنائها(١١).

كانـت تلك الأسماء مازالـت قليلة في إبلا وبـابل خلال العهـد الأكدي، ولم تكن متنـوعة في نماذجها، وغالباً ماكانت اللاحقة(آنوم) مسبوقة بجذر لغوي مكون من مقطع واحد. ولم أعثر على شواهد أخرى مماثلة تماماً لأسماء إبلا وبابل تلك.

في عهد سلالة أور الثالثة تزداد الأسماء المنتهية بـ(آنوم)، وتُظهر نماذج بناء متشابهة مع نماذج العهد البابلي القديم، وثمة عدد من تلك الأسماء نعرفها سابقاً في نصوص العهد الأكدي، نذكر منها على سبيل المثال(شَرْخانوم).

لقد كانـت الجذور اللغوية المكونـة من مقطع واحد والسـابقة للّاحقة شـائعة في عهد أور الثالثة، ولكن المكونة من مقطعين لم تكن نادرة أيضاً

ومما يجدر مـلاحظته ـــ اعتماداً على كتـاب جلب MAD ـــ إن أغلبية الأسماء المنتهيـة باللاحقة (آنـوم) هـي أسماء أناس من الـ(مارتو)؛ أي غالباً أسماء أناس مـن سـورية. لم أعثر على أسماء نساء تنتهي بـ(آنتوم، أي صيغة التأنيث من الـلاحقة)، ولكني لاأريد أن أزعم بذلك أنها لم تكن موجودة البتة.

توجد أيضـاًأسماء أكدية منتهية بـــ(آنوم) مثل قَقّدانوم«أي: ذو الـرأس الضخم»، ولكنها

ليست كثيرة العدد، أما التساؤل: كم من هـذه الأسماء المنتهية بـ(آنوم) تحتمل الأصل اللغوي الكنعاني؟ فمازال بحاجة إلى دراسة.

إذا ماتأمل المرء أسماء الأعلام في إبلا وفي بابل قبـل العهد البابلي القديم بشكل عام فسوف يلاحظ ـ رغم عدم وجود دراسة مفصلة بعد ـ تنوع نماذج بنائها.

واعتماداً على ذلـك ثمة افتراض يطـرح نفسـه ويتلخـص في أن تلك الأسماء لاتمثـل اللغـة الأكدية ـــ التي تراجع استخدامها في إبـلا ـ ولالغة أو لغتين كنعانيتين مبكرتين أو لغـة سامية شمالية معينة فحسب؛ وإنما تشير إلى تنوع لغوي كبير.

لقد تعرّضت اللغـات السامية الشمالية لتبدلات عبر تعاقب القرون بـدءاً من أواسط الألف الثالث ق. م ، وامتازت إلى عدة لغات، ولانستطيع التعمـق أكثر في هذه المسألة قبل أن يتم نشر القسم الأكبر من نصوص إبلا.

في إبلا وبـابل وكـذلك في النصوص الآشـورية القديمـة، نجد أسماء كثير ة تبـدأ بـ(إنّام، إنّوم)، وتكتب في إبـلا بصيغة مقطعية(إن، نا) ـــ حسب مصنف بيتيناتـو المذكور في الحاشية (٩) ـ، ولأن العنصر (إنّـام، إنّوم) يبـدو غريبـاً دخيلاً في الأكـدية فـربما يكون مستعـاراً من السامية الشمالية.

الأمر نفسه يسري على كلمة(مُشْكينم) التي جرى حولها نقاش طويل. فالأصل فيها حسب الأساليب الكتـابية الرمزية السـومرية هو (مَشكاّإنـوم)؛ أي أنها كانت مبنية بالسـابقة (مَـ) الدالة على الفـاعلية والغريبة على الأكدية. أمـا الحكم بأن الفعل(شوكينـوم) والأفعال الأخرى المصبوغة على وزن المتعـدي بالشين، نحو:شوقَلُّـوم«يعلّق»، شوبَرُّوم«يـوسّـع»... إلخ(١٢) أفعال غير أكدية الأصل فمازال بحاجة إلى دراسة.

ولكن إذا مـاطرح التسـاؤل: هل يفيد لغـة إبلا حقـاً التسليم بأن مجمـوعات أسماء بـابل وماري المشار إليهـا واللغة الأجريتية تشكل أسرة لغويـة خاصـة، يمكن للمرء أن يـدعوها الآن (السامية الشمالية)أو غير ذلك؟ فأعتقد أنه لايمكن تقديم جواب مرضٍ عنه في جمل قليلة.

إنني أقصد من ذلـك الإشارة إلى أن الملاحظات النحوية التي عرضـها ج. بيتينـاتو في كتابه عن إبلا(ص ٦٧ومابعـدها) تظهر اختلافات واضحة بين لغة إبلا واللغتين الكنعـانية والأكدية في آن واحد، وتستدعي لذلك ضرورة تحديد أسرة لغوية خاصـة بها.

لاأود الحديث مبدئيـاً عن المظاهر الصوتية، لأن بعضـاً منها مازالت غامضـة بسبب عدم اطراد نظام الكتـابة المسمارية وعدم معـرفتنا الكافية ببعـض القيم الصوتية الخاصـة في لغة إبلا. أما فيما يتعلق بالصيغ النحوية فأرغـب في ذكر الضمير(أَنْتَنُ) أي: أنتم... ـ ويلاحظ أنه يرد بنون بدل الميم على خلاف الصيغة العبرية أَتّم ـ.

إنه يرد بشكل متقابل لافت للنظـر مع اللاحقة الضميرية الخاصة بالمثنى(ـ كُما) (١٣) في رسالة من إبلا غير منشورة بعد(١٤).

أما أحـرف الجر فنفتقد بينها عدداً مـن أحرف الجر الساميـة الغربية مثل(لـِ ، بـِـ ، من)، ويجد مقابلها حروفاً أخرى معادلة محورة عن الأكدية مثل: (ي نا ويقرؤها بيتيناتو:لي نا، إن، أَشْتُ أو أَشْـتَ) . كما نجد صيغـة (شين) المماثلة جزئيـاً لظرف الزمـان في الأكديـة، وصيغة (اِشْكي) المشابهة للحرف الاثيوبي (اِسْك) بمعنى «حتى».

فيما يتعلق بالفعل نجد أن عدد ا لصيغ التي تـأكد تفسيرها مازال قليلاً، وذلك بسبب كثرة استخدام الرمـوز السومرية بدلاً عـن المقطعية. ومما يجدر ملاحظته هـو أن القوائم المعجمية تستخدم صيغة المصدر الأكدي(أكالوم: يأكـل)، كما ظهرت فيها شواهد على أفعال مصوغة في وزن المزيد بالشين والتاء(١٥).

ثمة ضرورة لإنجاز أبحاث خاصـة ليست غريبـة حول السابقة الفعلية(تِـ..) التي تظهر في صيغ الغائب، لأنها ليست غريبة عن الأُجريتيـة والعبرية. أما السابقة(يـَ..) فكانت قد تطورت سابقاً إلى يـاء ساكنة (يـْ...) كما في الأكدية. وبما أن الكنعـانية احتفظت قروناً عـدة بالصيغة المفتوحة (يـَ...) فلا يمكن أن تكون لغة إبلا لغة سامية شمالية غربية.

تظهر القوائم المعجميـة أن الكلمات الدالة على أكثر الأفعـال والمفاهيم استعمالاً هـي غـالباً كلمات ليست أكـدية ولاكنعـانية. أمـا الرسائل والـوثائق والنصـوص الأخرى فسـوف تقلل بالتأكيد صعوبات الفهم الكثيرة التي نقابلهـا فيها إذا مالجأنا إلى الكنعانية والأكدية في تفسير معاني مفرداتها.

وفي الختام أشير إلى أنني لم استطع في بحثـي الموجز هذا تقديم أكثر مـن بعض الملاحظات التي يمكن ان تغني أعمال البحـث التالية. وأود أخيراً الإشارة باختصار شـديد إلى أنه لايمكن مناقشـة مسألة الأسر اللغويـة ضمن(اللغات الساميـة) بعيداً عن التصورات التـاريخية، كما سبق أن ألمحـت عام١٩٦٠في دراسة لي(١٦) وفي مـواضـع أخرى. فمـن الواجب التحقـق من أصل مـؤسسي مملكة إبلا، ألم يـؤسسها ساميون يشكلـون موجة بشريـة ناطقةبـ(السامية الشمالية؟) أليسـوا هم أنفسهم صاروا فيما بعـد ذوي مكانة تـاريخية متميزة في بلاد بـابل، وأوجدوا الأسس المهدة لقيام مملكة سرجون في أكد؟.

إضافة:

اعتماداً على عدد من الأبحاث التي ألقيت في ا لندوة؛ ولاسيما بحث ج.بيتيناتو حول القوائم ثنائية اللغة في إبـلا ومعلوماته المثيرة حول الكلمات المترادفة وجدت نفسي ــ مع غيري ـ أعتقد بأن لغة إبلا مـن خلال نصوصها وصلتنا بلهجات عدة تظهر اختـلافات لافتة للنظر؛ ولاسيما في مجال الضبط الصوتي ولفظ الأصوات الصفيرية.

وقد قادني هذا إلى التفكير بأن كثـرة استخدام الرموز السومرية في الكتابـة ـ وهي مزعجة لنا، وكنـا نتمنى بدلاً عنهـا استخدام الكتابـة المقطعية ـــ له أسباب مبرر ة على الأرجـح. فتلك الرموز تستـوعب الاختلافات اللهجـوية، وتعين القارىء الابلائي على أن يقـرأ أو يلفظ حسب

لهجته، ويبقى المعنـى مفهوماً موحداً بين كـل اللهجات. وهذه مفيدة إذا مـاعلمنا أن استخدام الكتابة المقطعيـة في لهجة ما، كالتي تستخدم أحيـاناً الضم في موضع الفتـح، يمكن أن تعرض القارىء في البداية لصعوبات جمّة (١٧).

إن الافتراضات التـي قدمناهـا هناتحتاج إلى صيـاغة محددة دقيقة وربما إلى تصـويبات. ولكن لايمكن تحقيق ذلـك ريثما تتوافر بين أيدينا بشكل مفصـل جميع الكلمات المترادفة التي ظهرت في النصوص، وترتب حسب موضوعاتها ودلالاتها.

ومـن اللافـت للنظر أيضـاً وجـود أشكال كتـابيـة متنوعـة لأسماء الأعلام (الأشخـاص والأماكـن)، وفي الحقيقة لم يتـح لي الوقـت للاستفـادة من كتـاب جلب الضخـم عن الأسماء الأمورية الصادرة مؤخراً(١٨).

* * *

الحواشي

* المؤلف W.von Soden من شيوخ علماء اللغات الشرقية(السامية) القديمة، يبلغ من العمر /٨٧/ مواليد/١٩٠٨/. أستاذ متقاعد في معهد الدراسات الشرقية القديمة بجامعة مونستر MUNSTER (ألمانية). له كتب وأبحاث كثيرة جداً في لغات الشرق القديم ولاسيما(المسمارية) وآدابه ومعتقداته الدينية.
ألقى هذا البحث في ندوة عالمية حول لغة إبلا نظمت في نابولي بايطالية (نيسان ١٩٨٠)، ثم نشر ضمن أعمال الندوة في :

L.Cagni (ed.):La Iingua di Ebla. Naples 1981,pp.533-361.

والعنوان الأصلي للبحث هو: اللغات السامية الشمالية في بلاد بابل وسورية.(المترجم)

١ـTh.Bauer: Die OSTKANAANAER. Leipzig 1926

٢ـM.Noth:Die israelitischen Personennamen im Rahmen der gemeinsemitischen Namengebung. Stuttgart 1928

٣ـD.O. Edzard:Mari und ARAMAER?. ZA54(1964)142ff

٤ـI.J.Gelb:Glossary of Old Akkadian(Materials for the Assyrian Dictionary,No.3,Chicago 1957.

٥ـW.von Soden:Zur Einteilung der semitischen Sprachen. WZKM 56(1960)177ff

٦ـانظر بشكل خاص:

H.B.Huffmon:Amorite Personal Names in the Mari Texts. Baltimore 1965

٧ـW.von SODEN : JAHWE "Er ist, Er ERWEIST SICH".WO3(1966)177ff

٨ـ مختصر الكتاب المذكور في الحاشية /٤/. (المترجم).

٩ـG.Pettinnato:Catalogo dei testi cuneiformi di Tell Mardikh-Ebla.Napoli 1979

١٠ـFr. Grondahl :Die Personennamen der Texte aus Ugarit. Roma 1967.

١١ـ لايمكن تحديد عدد الأسماء الأكدية القديمة الإبلائية المنتهية باللاحقة (آنوم) تحديداً تاماً، لأننا لانعرف بالضبط كيفية قراءة العلامة Lum في الأسماء المنتهية بها، فهي تقبل القراءتين Lum وnum. ومما يزيد الأمر

صعوبة هو أن الكتابة المقطعية المفصلة لها(-Lu-um)أو (-nu-um) نادرة في تلك النصوص.

فيما يتعلق بأسماء ابلا أيضاً فقد لاحظت أن بيتيناتو يقرأ العلامة دائماً Lum، ولكن توجد بينها أيضاً أسماء تنتهي بـ(-a-nu)أو (-an)، وهي على الغالب ليست سامية.

أيضاً هناك شك في أسماء الأماكن المنتهية بـ (-a-nu)أو (a-Lum)أو (-an)، ولايمكن الجزم بأنها سامية أو من أصل آخر.

١٢- انظر كتاب فون زودن الأساس في قواعد اللغة الأكدية. ويختصر بـ GAG، الفقرة / ١٠٩/.

١٣- كما في العربية تماماً(المترجم).

١٤- معلومة أخوية شفهية من ج. بيتيناتو.

١٥- انظر كتاب فون زودن GAG، الفقرة / ٩٤/.

١٦- راجع.WZKM 56,183 ff

١٧- قدم فون زودن بحثاً مفصلاً عن«القوائم ثنائية اللغة في إبلا وفي العهد البابلي القديم، في نـدوة عالمية تالية حول(الثنائية في نصوص إبلا) ، نابولي ، نيسان ١٩٨٢، وقد نشر في

L.Cagi(ed):Il Bilinguismo a Ebla . pp. 51-64.

١٨- I.J.Gelb:Computer-Adid Analysis of Amorite. As 21,1980.

طرز العمارة والبناء في الأردن وفلسطين خلال الفترة الفارسية والفترة الهلنستية

الدكتور زيدون المحيسين
أستاذ مشارك ـ جامعة آل البيت
معهد العمارة والفنون المفرق ـ الأردن

مقدمـــة

تبدو المعلومات التاريخية المتعلقة بالفترة الفارسية ضئيلة مقارنة بالفترات الأخرى . وبالمقابل نجد الشواهد الأثرية من المواقع الممثلة لهذه الفترة متفاوتة في مرافقها المعمارية ، فالبعض يمثل مظهراً جيداً والآخر يعتريه كثير من التدمير ، والسبب في ذلك يعود إلى العوامل الطبيعية والبشرية .

جاء استعراض المواقع العائدة لهذه الفترة في الأردن محدوداً ، والمواقع الممثلة لها قليلة ، بعكس المواقع الفلسطينية ، التي أمكن تتبع العديد من العناصر المعمارية في كثير من المواقع ، وأمكن التوصل إلى مخطط عام يظهر المرافق المعمارية للفترة الفارسية . ومن خلال دراسة العناصر المعمارية يتضح بعض التقنيات المستخدمة في البناء ، سواء في المواقع الأردنية أو الفلسطينية ، والتي تظهر اتصالاً مع الساحل السوري والفينيقي من جهة ، والأصول السابقة من جهة أخرى .

أما في الفترة الهلنستية ، فإن المواقع الممثلة لهذه الفترة في الأردن ، جاءت محددة بسبب الاستيطان الذي طرأ على تلك المواقع ، في الفترات اللاحقة ، مما حال دون ابقائها على مخططها الأصلي ، ولكن ذلك لايعني عدم الاستقرار في الأردن خلال هذه الفترة ، كما اعتقد البعض ولمدة طويلة ، إلى أن أظهرت الاكتشافات الجديدة أهمية تلك الفترة ، وخاصة التنقيبات الأثرية في مواقع عراق الأمير ، جرش ، طبقة فحل ، البصيلة وأم قيس .

الفترة الفارسية

شهد الشرق الأدنى في منتصف القرن السادس قبل الميلاد تحولات سياسية جديدة ، نتيجة انتهاء السيطرة البابلية ، على يد الملك الفارسي (كورش - CYRUS) عام ٥٣٩ قبل الميلاد . (١) والذي أسس امبراطورية عظيمة ومترامية الاطراف ، امتدت من مرتفعات ايران . إلى حدود مصر التي ضمت فيما بعد إلى الامبراطورية عام ٥٢٥ قبل الميلاد على يد الملك قمبيز (٢) وادعى كورش بانه ملك العالم ، وملك بابل ، وسومر ، واكاد ، وملك الحواف الأربع للأرض(٣)

لقد تميز الحكم الفارسي بالتسامح ، واحترام التقاليد الدينية للشعوب المسيطر عليها بهدف كسب تأييدهم .(٤)

ولكن تجدر الاشارة بان العديد من اليهود ، قد فضلوا البقاء في بابل ، حيث تمتعوا بالحضارة هنالك ، في حين اظهر اليهود المحليّون عداءاً شديداً تجاه اليهود العائدين الذين اتهموا بانهم من دماء مختلطة (٥) .

وفي ما يتعلق بتاريخ الأردن وفلسطين في الفترة التي تلت سقوط الدولة البابلية ، وخصوصاً في الفترة الفارسية فهي ضئيلة (٦) رغم وجود المصادر الكلاسيكية المتعلقة بتاريخ المنطقة ، مثل اعمال هيرودوت وسترابو وديودوروس الصقلي ويوسفوس وبعض النقوش والكتابات من القرنين السادس والخامس قبل الميلاد ، ومن سفري (نحميا -NE-HEMIAH وعزرا EZRA) (٧) .

وقد ضمت سورية والأردن ، وفلسطين إلى الامبراطورية الفارسية ، دون ابداء مقاومة بعد أخضاع الامبراطورية البابلية حيث لاتوجد مصادر مكتوبة تذكر حدوث معارك في فلسطين ضد الفرس (٨) .

لقد اتبع الفرس النظام الاشوري والبابلي ، من الناحية الادارية ، في تقسيم المناطق إلى ولايات (المرزبانية) ولي عليها احد النبلاء من الفرس . وقسمت هذه الولايات إلى مقاطعات اصغر ، نصب عليها حاكم فارسي والبعض منها ولي عليها احد النبلاء المحليين (٩)فيذكر هيرودوت بان الامبراطورية قسمت إلى عشرين مقاطعة ، في عهد (داريوس الأول ، DARIUS 1) الذي حكم من عام ٥٢٢ — ٤٨٦ قبل الميلاد (١٠) وكانت مقاطعة « خلف النهر» المقاطعة الخامسة في الامبراطورية ، وحدودها من البسيط في شمال سورية ، إلى حدود مصر ، ويقع ضمنها كل من الأردن وفلسطين (١١) .

لقد كشفت الحفريات الاثرية التي اجريت في العديد من مواقع هذه الفترة ، عن تدهور في الحياة العمرانية ، فاصبحت المدن تفتقر إلى التنظيم ، كما أن المباني العامة والتحصينات المتعلقة بالنظامين الاداري والعسكري قليلة حيث غلب الطابع الريفي على هذه المواقع (١٢)

انتهت الفترة الفارسية عام ٣٣٢ قبل الميلاد بمجيء الاسكندر الأكبر ، الذي انهى السيطرة

السياسية الفارسية على المنطقة لتحل محلها السيطرة اليونانية وبدأ ما يعرف بالعصر الهلنستي (١٣)

لقد دأب العديد من الآثاريين على دمج الفترة الفارسية ضمن العصر الحديدي ، فقد اطلق (البرايت ALBRIGHT) على الطبقة الممثلة لهذه الفترة ، في الطبقة الأولى في (بيتيل BETHEL) العصر (الحديدي الثالث IRON III) من عام ٥٥٠ — ٣٣٠ قبل الميلاد (١٤) في حين حددها (رايت WRIGHT) ضمن الفترة الزمنية ، الواقعة بين الاعوام ٥٣٩ — ٣٣٠ قبل الميلاد ، واطلق عليها اسم الدور الثالث (الفارسي) ، اما (فردريك وفرانكن FREDERICQ AND FRANKEN) فاتبعا في دراسة الفخار التقسيم من عام ٥٣٩ — ٣٣١ قبل الميلاد ، وهو التقسيم الاكثر شيوعاً (١٥)

مواقع الفترة الفارسية :

أ)الاردن: (خارطة رقم١)

انحصرت المواقع الفارسية في الاردن في عدد محدود من المواقع التي عثر فيها على بقايا معمارية واضحة ومكتملة. وبالرغم من تحديد عدد كبير منها ضمن المسوحات الاثرية، كتلك التي أجريت في وادي الاردن، مثل مواقع تل ابو كامل، وتل الصوان، وخربة المركع، وتل الحيات، وغيرها(١٦) وتمثلت المواقع الفارسية ضمن طبقات بعض المواقع غير المترافقة مع بقايا معمارية، والبعض الآخر وجدت ضمن المدافن، العائدة لهذه الفترة، مثل موقع المقابلين والتي أرخت الى منتصف القرن السادس قبل الميلاد،(١٧) وتل المزار المقبرةA، وأم اذينة.(١٩).

يعتبر موقعا تل السعيدية الطبقة الثالثة(٢٠)وتل المزار الطبقة الثانية(٢١)من أفضل المواقع الفارسية المترافقة مع بقايا معمارية، بالاضافة إلى مواقع اخرى تمثلت البقايا المعمارية فيها بأجزاء محددة، مثل تل الخليفة بالقرب من خليج العقبة(٢٢) ودير علا الطبقة الرابعةوالخامسة،(٢٣) ومواقع اخرى مثل عمان، وحسبان، وتل المغير، وطبقة فحل.

ومن أبرز المواقع الاثرية التي تمثل الفترة الفارسية في الاردن:

١ـ تل السعيدية:

تتمثل الفترة الفارسية في الموقع في الطبقة الثالثة التي تقع في الجزء العلوي من التل، حوالي ٢٠ متراً الى الشرق، حيث عثر في هذه البقعة على مبنى مربع يتألف من سبع غرف بنيت حول ساحة مبلطة.(٢٤) تخطيط المبنى مربع الشكل تقريباً، حيث يبلغ محوره الشمالي ـ الجنوبي ٢١,٩٥ متراً والمحور الشرقي الغربي ٢٢,٠٥ متراً. استخدم الطوب في بناء الجزء العلوي منه، باللونين الرمادي المخضر والبني، بقياس(٤٥×٤٥×١٤سنتيمتراً) وتم استخدام الاخشاب لتطويق الجدران الطوبية عند المدخل، والجهة الداخلية من عتبة الباب الغربية.(٢٥)

يتكون المبنى في مخططه من الحجرات التالية : —

الغرفة — ١٥١ — : ساحة مستطيلة الشكل ، مبلطة بحجارة كبيرة ، ومتوسطة الحجم ، اصطفت بشكل منتظم ، وتم ملء المسافات بينها بالحجارة الصغيرة والحصى ، ويتم الدخول إلى الساحة عبر مدخلين ، الأول من الجهة الجنوبية ويؤدي إلى الساحة عبر الغرفة — ١٠٢ — ، والثاني عبر الغرفة — ١٠٩ — ، (٢٦) وتحتوي الساحة على قناة لتصريف المياه في الزاوية الجنوبية الشرقية ، وتمتد اسفل الأرضية عبر الغرفة — ١٠٩ — ، فالجدار الشرقي ، وتنتهي خارج البناء على بعد ٣١٥ متراً . وغطيت القناة بحجارة على نفس مستوى الحجارة التي تغطي اساسات الجدران الشرقية والغربية للغرفة — ١٠٩ — (٢٧)

وتتميز جدران الساحة الغربية والشمالية والجنوبية بكونها متجانسة ، حيث بلغ سمك كل منهم حوالي ١,٢٥ متراً ، وبنيت بصفين ونصف من الطوب أما الجدار الجنوبي فتبلغ سماكته ١,٦ متراً ، وبني من ثلاثة صفوف ونصف من الطوب ، وربما كان هذا الجدار لدعم المبنى العلوي في الجهة الجنوبية.(٢٨)

الغرفة — ١٠٢ — : المدخل الرئيسي لهذه الغرفة عبر الساحة في الجهة الشمالية ، وترتفع أرضية الساحة ١٤ سنتمتراً عن أرضية هذه الغرفة المبلطة بحجارة صغيرة ، ووجدت بالأرضية أربعة أفران طينية ، ويبدو أن هذه الغرفة كانت مسقوفة لعدم العثور على تصريف للمياه فيها أما الجدار البارز شمالاً في الزاوية الشرقية ، فربما يمثل جزءاً من بناء لبرج أو جداراً يقسم الغرفة إلى وحدة أخرى صغيرة (٢٩) .

الغرفة — ١٠٣ — : تمتاز هذه الغرفة بكونها مرصوفة جيداً ، وتلعب دور رواق يؤدي إلى الغرف والساحة الرئيسية ويفضي هذا الرواق إلى الغرفة — ١٠٤ — بمدخل بعرض أقل من الرواق نفسه . وتمثلت عتبة الباب بحجر اساس للجدار الرئيسي الشرقي — الغربي أما المدخل الثاني يفضي من الرواق إلى الغرفة — ١٠٢ — وعتبة هذا المدخل هي استمرارية للأرضية المرصوفة ، وأهم ما يميزه استخدام الأعمدة الخشبية . (٣٠) .

الغرفة — ١٠٤ — : يتم الدخول إليها عبر الغرفة — ١٠٣ — من الجهة الجنوبية ، وأرضيتها من الطين المضغوط ، ويحمل الجزء المتبقي من الجدار الشرقي للغرفة آثاراً للجص ، وقد تعرضت الغرفة للتدمير نتيجة لحريق ، وجدت آثاره في الرماد والفحم ، وكذلك لون الجص الأسود (٣١) .

أما الغرفة — ١٠٥ — : فهي صغيرة الحجم ومستطيلة الشكل ، استخدمت الحجارة الكبيرة في تبليطها ويتم الدخول إليها عبر مدخل من الغرفة — ١٠٤ — وعثر في الجزء الشمالي — الشرقي من الغرفة على مخزن مخروطي الشكل ، شيد من الطين ، وتحتوي على بعض الكسر الفخارية وعظام الحيوانات والأصداف . (٣٢) وتحتوي هذه الغرفة كذلك على مدخل يفضي للغرفة — ١٠٦ — التي لم تبن ضمن المخطط الأصلي للبناء .

الغرفة — ١٠٧ — : غرفة طويلة وضيقة ، لها مدخل من الغرفة — ١٠٨ — عتبته من التراب المضغوط وكذلك أرضيتها أما الغرفة — ١٠٩ — فتحتوي على مدخلين ، الأول يؤدي إلى الغرفة — ١٠٨ — والثاني إلى الساحة — ١٠١ — أرضية الغرفة مبلطة بالحجارة ، باستثناء المساحة الملاصقة للجدار الغربي ، والأرجح أنها تمثل اساسات لدرج يؤدي إلى البرج في الجهة الجنوبية من الداخل ، ولكن هذا الرواق ضيق جداً لهذه الغاية فاعتقد بأنه يمثل مقعداً(٣٣) .

الغرفة — ١١٠ — : تقع في الجنوب الشرقي من المبنى ، وتم تقوية الجدار الجنوبي ببناء جدار بنفس السماكة من الداخل ، وتميزت الغرفة أيضاً باحتوائها على جدار جنوبي شمالي اعتقد بأن هذا يمثل برج يرتفع عن اجزاء البناء الأخرى ، يصعد إليه عن طريق درجات داخلية من الغرفة — ١٠٩ — (٣٤)

وظيفة المبنى وتاريخه :

يبدو أن البناء الضخم قد صمم بهدف دفاعي ، لأن المدينة لم تكن محاطة بسور دفاعي ، فكان تصميم هذا المبنى كحماية ذاتية من أي هجوم، أما نمط البناء حول ساحة مكشوفة ومحاطة بالغرف فيعرف باسم (Open - court building) الذي عرف في الفترة الفارسية بعدد من المواقع ، فاعتمد تاريخه على التشابه المعماري مع المواقع الأخرى ، وذلك لقلة المخلفات التي عثر عليها بداخله ، وبالمقابل اعتمد في تاريخه على المذبح الذي احتوى على كتابات آرامية مشابهة للخط السائد ، في القرن السادس — الرابع قبل الميلاد ، وهذا ما اكدته ايضا العينات التي ارخت بطريقة (الكربون المشع ١٤ C 14) ، واعطت نفس التاريخ مما يشير إلى أن البناء يعود إلى الفترة الفارسية . (٣٥) .

٢ — تل المزار :

يقع تل المزار في وسط وادي الأردن في وادي راجب الشمالي ، ويبلغ حجم التل ٣٠٠ متر مربع ، ويرتفع ٢٤ متراً عن السهول المحيطة به . ويقع بالقرب من التل عدد من التلال الأثرية مثل تل دير علا (٢ كيلو متر إلى الجنوب) وتل السعيدية (٦,٥ كيلو متر إلى الشمال) (٣٦)

بدأت المراحل الاستيطانية في التل منذ العصر البرونزي المتأخر الفترة الثانية (L B II) واستمرت إلى الفترة الهلنستية أي منذ النصف الثاني من القرن الثالث عشر إلى منتصف القرن الرابع قبل الميلاد (٣٧) .

جاءت مباني الفترة الفارسية من الطبقة الثانية (القرن الخامس) . والمتمثلة بمبنى يتألف من ساحة مركزية مكشوفة ، محاطة بوحدات معمارية — غرف — في الجهتين الشمالية والشرقية ، وبسبب عوامل الانجراف التي تعرض لها الجزء الجنوبي ، فيمكن الافتراض بأن هذا الجزء احتوى ايضا على صف من الغرف(٣٨) تم تحديد ثلاث وحدات سكنية في الجهة الشمالية هي (أ) ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، (ب) ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، (ج)

٢١٠ ، ٢١١ . (٣٩)

لقد استخدمت الحجارة المشذبة في بناء الوحدة المعمارية الأولى ، ولكن من الصعب تحديد المادة المستخدمة في الجزء العلوي منها ، وكذلك الحال في اساسات الجدار الغربي للغرفة — ٢٠٧ — هذا وقد عثر في الغرفة — ٢٠٩ — على طابونين بجانب الجدار الشرقي وكذلك في الغرفة — ٢١١ — (٤٠).

وبالرغم من عمليات الانجراف، الا ان مخطط البناء يبدو منتظما، فالساحة المركزية يبدو ان ارضيتها كانت مبلطة بالحجارة، واستخدم الطوب الرديء الصنع الدي حضر باستخدام التبن والاتربة من التراكمات السكنية السابقة، في بناء الجدران، من جهة اخرى استخدم القصب كأرضية تحت الجدران قبل بنائها، لتجنب هبوطها وتصدعها، فهي تعمل كأساسات وتقوي السطح المراد البناء فوقه، (٤١) تبدو وظيفة البناء انها صناعية لحفظ الاواني والمخلفات المصنعة، حيث عثر على العديد منها بداخله كاملة.(٤٢)

فالبناء في مخططة يتكون من ساحة مركزية مكشوفة ومحاطة من الجهات الاربع بالغرف.

ب) فلسطين: (خارطه رقم١)

كشفت الحفريات الاثرية عن العديد من المواقع الفارسية في فلسطين، والتي اعتمد في تأريخها على الفخار المستورد من اثينا والمسكوكات كذلك.(٤٣) واهم هذه المواقع(تل الدوير Lachish) الطبقة الأولى،(٤٤) وتل أبو حوام الطبقة الثانية،(٤٥) وتل المبارك(مفراك Mevorak) الطبقات الرابعة والخامسة والسادسة،(٤٦) وعين جدي الطبقة الرابعة،(٤٧) وتل القصيلة الطبقة السادسة،(٤٨) و(سبسطية Samaria)،(٤٩) والعديد من المواقع الاخرى مثل تل القدح، تل المتسلم، تل جمعة وغيرها من المواقع.

ان دراسة البقايا المعمارية من الاردن جاءت من تل السعيدية وتل المزار، في حين اعتمد على العديد من المواقع الفلسطينية لدراسة نمط تخطيط المدن الفارسية، للحصول على تصور عام عن مرافق المدينة الفارسية وعناصرها.

تخطيط المدينة الفارسية في فلسطين:

بالرغم من العثور على العديد من البقايا المعمارية، العائدة لهذه الفترة في فلسطين، الا انها لاتعطي صورة كافية عن تخطيط المدينة في هذه الفترة، مما دعى العديد من الآثاريين امثال(البرايت Albright، فاتزنجر Watzinger وKenyin) للاعتقاد بأن انقطاعاً قد طرأ على الحياة المدينية، وحلت محلها الحياة الريفية القروية.(٥٠)

ولكن يجب الاخذ بعين الاعتبار العوامل التي تعرضت لها البقايا المعمارية الفارسية مثل عوامل التعرية، والانجرافات او اعادة استيطان بعض المواقع في الفترات اللاحقة، فتعرضت البقايا المعمارية للدمار، فتلك العوامل مجتمعة تبين الاسباب لعدم تكوين صورة واضحة عن المدينة الفارسية في المواقع التي تم التنقيب فيها.(٥١)

بالمقابل يمكن تتبع بعض الأمثلة على نمط تخطيط المدينة من بعض المواقع الفلسطينية التي حافظت على بقايا معمارية جيدة، ففي موقع تل ابو حوام الطبقة الثانية تطل واجهات المباني على ممر يسير بشكل مماثل لمحور المدينة الطولي،(٥٢) وفي تل السمك (شكمونShiqmona)، فان الحي السكني،يقع بين طرفين متقاطعين مع بعضهما البعض في الزاوية اليمنى، وتُظهر المنازل تماثلاً كبيراً فيما بينها.(٥٣) وفي تل (مجديم Megdim) يقع الربع السكني بشكل متقاطع مع الطريق المستقيمة والواسعة، فالمنازل الكبيرة تقع على جانبي الطريق وتتخللها ممرات تقع بشكل عمودي مع الطريق الرئيسي. وقسمت المباني نفسها إلى العديد من الوحدات المعمارية المتجانسة(٥٤) كالذي كان شائعاً في اليونان في هذه الفترة مثل مخطط مدينة(اولينثوسOlynthus) - مخطط رقم١- التي شيدت عام ٤٣٠قبل الميلاد.(٥٥)

العناصر المعمارية للمدينة الفارسية:

١- التحصينات

الشواهد المعمارية التي تمثل نمط التحصينات في هذه الفترة، جاءت من المواقع الساحلية، فالسهل الساحلي، مثل موقع أبو حوام، حيث يتمثل النمط التحصيني بسور المدينة، والمحتوي على زوايا متعددة تتمثل بشكل واضح في الجزء الجنوبي، وبقي من ارتفاع السور مدماكان، ويظهر استقامة في امتداده مع وجود بعض التغير الطفيف، حيث استخدمت الحجار الطويلة لدمجها مع الدبش، للحصول على التماسك بينها،(٥٦) ويظهر ذلك بشكل واضح في ثلاث نقاط، حيث يغير السور اتجاهه، فاستخدمت الحجارة المربعة الطويلة والمتصلة مع الدبش في البناء.(٥٧)

وفي تل (مجديمMegadim)حصن الموقع بسور يحيط بمنطقة مستطيلة، مساحتها /١٥/ دنم بني من الطوب فوق اساسات من الحجارة، تم الكشف عن ثلاثة اجزاء من السور في الجهات الغربية والشمالية و الجنوبية، دلت على نمط السور المنيع المؤلف من جدارين داخلي وخار جي، وعلى طول الجدار من الداخل اصطفت العديد من الغرف السكنية وغرف الخزين(٥٨).

٢- البوابات

اهم النماذج للنمط المعماري للبوابات جاءت من تل الدوير - مخطط رقم٢- (السوية الاولى)، حيث بنيت البوابة العائدة لهذه الفترة فوق نفس مخطط البوابة العائدة للسوية الثانية. وتتكون البوابة من بوابة خارجية بقي منها العتبة فقط والبوابة الداخلية، اما الجدران التي تصل بين البوابة الداخلية والخارجية فقد دمرت أيضاً وتم توسيع البوابة الداخلية الخارجية، واصبحتا تشكلان برجين بداخلهما ادراج بقي منها خمسة إلى الجنوب من البوابة.(٥٩)

٣ـ العمائر المنزلية

ان معظم المباني الفارسية تظهر نمطاً تخطيطياً موحداً، سواء في العمائر العامة او الخاصة. وتميز هذا النمط في المنزل ذي الساحة المكشوفة، والذي يتألف من ساحة مكشوفة محاطة من عدة جوانب او جميعها بالغرف،(٦٠) ان هذا النمط المعماري كان محوراً للعديد من الدراسات المتعلقة بأصله، حيث اتفق على كونه رافدي الاصل(اشوري، بابلي)، ادخل الى فلسطين في نهاية الفترة الآشورية، واستمر استخدامه بعد ذلك في الفترتين البابلية والفارسية.(٦١) جاءت الامثلة على هذا النمط المعماري من العديد من المواقع الفلسطينية، ففي عين جدي(السوية الرابعة) تم العثور على مبنى ضخم مكون من ــ ٢٣ـ غرفة تحيط بساحة مركزية، بالاضافة إلى غرف الخزين وباحجام مختلفة وساحة خارجية، فيبدو المبنى بتخطيطه كأنه وحدة واحدة، ولكن يمكن تمييز ثلاثة أجزاء منفصلة:

أــ الجزء الغربي يتضمن الغرف ٢٣٦،٢٣٥،٢٣٤ بالاضافة إلى الغرفة المستطيلة الواسعة ـ٢٣١ــ التي تنخفض بشكل قليل عن باقي الغرف. اما الغرفة ـ٢٢٩ــ فقد بنيت بارتفاع نصف طابق اعلى، وقسمت الى وحدتين منفصلتين تم بناء جدار بينهما. اما مدخل هذه الغرفة فيقع عبر الساحة الصغيرة التي تقع الى الغرب.(٦٢) .

ب ـ الجزء الشرقي يتكون من العديد من الغرف تحيط بغرفة مستطيلة واسعة رقم ـ٢٤٨ـ، تميزت الغرف الجنوبية منها(٤غرف) بمستوى مرتفع لحوالي الطابق.(٦٣) .

جــ الجزء الشمالي يتكون من ساحة مغلقة، وثلاث غرف مستطيلة، وممر يصل بين الساحة المغلقة والثلاث غرف والجزء الشرقي من المبنى.اما المدخل الرئيسي فقد كان عبر الساحة الخارجية، ثم خلال الغرفةـ٢٥٤ـ، ومنها إلى الساحة المغلقة، (٦٤) وغطيت ارضيات البناء والجدران وجزء من السقوف، بطبقة سميكة من الجص واستخدمت جذوع شجر البلوط لتدعيم السقف، وفي الدرجات والسلالم، وتميز البناء بحجارته البنائية الصلبة.(٦٥)

أرخ المبنى اعتماداً على الكسر الفخارية الآتيكية(Attic sherds) الى القرن الخامس قبل الميلاد، حيث وصلت المدينة إلى قمة ازدهارها زمن (ارتاكسركس الاول Artaxerxes I) عام ٤٦٥ـ٤٢٤قبل الميلاد، وفي زمن داريوس الثاني عام ٤٢٤ـ٤٠٥ قبل الميلاد، وتراجعت حوالي عام ٤٠٠قبل الميلاد(٦٦)

وفي تل الدوير شيد المبنى العائد لهذه الفترة، على انقاض السويتين الثانية والثالثة، ويتمثل البناء بمبنى مستطيل ضخم، ربما يشير إلى كونه مركزاً اداريا وشيد بحجارة كلسية وجدت متراكمة في منطقة الساحة، وحمل بعضها آثار لتشذيب مقوس، وهي تختلف عن الحجارة المستخدمة في بناء الجدران الداخلية والخارجية، التي يشير موضعها إلى استخدامها في بناء قناطر برميلية الشكل ذات مداميك مائلة.(٦٧) اما حجارة السقف فكانت بحجمين (٥×٢٥×١٥سنتيمتراً) و(٧٠×٣٥×١٥سنتمترا) واستخدم الطين المضغوط في ملء الفراغات

بين الحجارة. ويتبع البناء في مخططه المباني المؤلفة من ساحة مركزية، احيطت من الجهات الاربع بغرف مقنطرة. فقد احيطت الساحة في الجهة الجنوبية والغربية بدرجات تؤدي الى الغرف المختلفة، وعلى عرض الساحة في الجهة الغربية وجدت قاعدتا عمودين مربعتا الشكل، بقي من العمود الجنوبي قاعدته.(٦٨) وخلف الرواق المعمد(Portico)يوجد غرفتان كبيرتان تحويان على غرفتين صغيرتين أيضاً(٦٩)

استخدمت الحجارة النارية المشذبة في بناء الجدران وغطيت بالجص، وثبتت مع بعضها بواسطة المونة. اما الارضيات فكانت من الجص الذي استخدم في تجصيص قواعد الاعمدة ايضاً.(٧٠) وقد امكن عمل مجسم منظوري للمبنى، يظهر كيفية بنائه بالقناطر. وأرخ المبنى اعتماداً على الفخار الذي يعود إلى الفترة الواقعة بين عام ٤٥٠ـ٣٥٠قبل الميلاد.(٧١)

ومن النماذج المعمارية السكنية الاخرى تل القصيلة، حيث بلغ الاستيطان في الموقع أوجه في الفترتين الحديدية والفارسية. وتمثلت البقايا الفارسية في الطبقة السادسة بمبنى وساحة خارجية(G6)في الجزء الجنوبي للتل.(٧٢)يتألف المبنى من ساحة داخلية محاطة بالغرف من ثلاثة جوانب، غرفة مربعة في الزاوية الشمالية(G4) وغرفة مستطيلة بينهما(G3). اما المدخل الرئيسي للساحة الداخلية(G1)و(G2)فكانت من الجهة الغربية. وتم الكشف في الجهة الشرقية عن اساسات للساحة الخارجية(G6)المبنية من الدبش، وعثر في ارضيتها على كسر فخارية وجرار فارسية وأرخ البناء بناء على ذلك وبناء على الكسر الفخارية التي تعود إلى الفترة الفارسية (القرن الخامس قبل الميلاد). (٧٣)

الموقع الأخير ممثل ببناء ضخم عثر عليه في الطبقة الرابعة في تل المبارك (مفراكMevorakh) ـ مخطط رقم٢ـ حيث قسم الى ثلاثة مرافق معمارية:

١ـ الجدار في الجهة الشمالية من المبنى تم بناؤه من الحجارة المربعة.

٢ـ الجزء المتاخم للجدار المنيع ويتكون من الغرف ٢٦٥،٢٩،١،٢،٣،٢٨،٢٧ .

٣ـ الجزء الرئيسي في المبنى والمؤلف من ١٦ غرفة.(٧٤)

يتضح من البقايا المعمارية ان المبنى قد شيد ضمن مخطط محدد احيط بجدار منيع مستطيل الشكل، اما بالنسبة للتقسيمات الداخلية فيبدو أنه قد طرأ عليها التعديل حسب اعتبارات وظيفية.(٧٥)

فيما يتعلق بالارضيات فقد استخدمت الحجارة في رصفها كما هو واضح في البقع المتواجدة في موضع ـ١٠٢ـ وموضع ـ ٢١٤ـ التي ربما كانت تشكل جزءاً من الساحة الرئيسية وباقي الارضيات كانت من التراب المضغوط.(٧٦)

وعلى مايبدو ان الغرفتين ـ٢٧ـ٢٨ـ كانت نواة لبرجين تدعمان غرفة السلم او كانتا جزءاً من بيت السلم فقط وإذا صح ذلك فمن المحتمل وجود طابق ثان في الجزء الغربي من المبنى على الأقل.(٧٧) وباختصار، يمثل المبنى النمط الشائع في الفترة الفارسية، والمتمثل بساحة

مكشوفة محاطة بالعديد من الغرف ويبدو ان المبنى عبارة عن عزبة زراعية كبيرة.
أرخ المبنى الى القرن الرابع عام ٣٣٢ قبل الميلاد، اعتماداً على الكسر الفخارية.(٧٨)

٤ـ المعابد

تم تحديد ثلاثة مبانٍ تعود للفترة الفارسية، وفسرت من قبل المنقبين بكونها معابد في تل الدوير، يافا، ومكميش. وافضل هذه النماذج جاءت من تل الدوير السوية الأولى التي اطلق عليها اسم معبد شمس ـمخطط رقم ٤ــ ويقع المعبد الى الشمال الشرقي من المباني السكنية، وهو مبنى صغير ابعاده(٢٧×١٧متراً) ومحوره الاساسي باتجاه شرق ـ غرب.(٧٩) ويتكون المعبد في مخططه من ساحة مربعة تحتل نصف مساحة المبنى، ويتفرع عنها في الجزء الشرقي صف من الغرف الصغيرة (٥غرف)، وفي الجهة الغربية يقع ا لجزء الرئيسي للمعبد، اما المدخل فيقع في النهاية الشرقية للجدارالشمالي.(٨٠)

يخترق المعبد بشكل عرضي ضمن منطقة الساحة خمس درجات، ربما امتدت على عرض الساحة تؤدي إلى غرفة مستطيلة رقمـ ١٠٥ـ وتقع على مستوى مرتفع عن باقي اجزاء المعبد، وخلف هذه الغرفة يوجد ثلاث درجات تؤدي الى غرفة قدس الاقداس رقمـ١٠٢ـ (٨١)

غطيت جدران المبنى بطبقة سميكة من الجص، وحملت بعض الاجزاء اثاراً لجص ملون. اما الارضيات فقد استخدم الجص في تغطيتها. ومن جهة اخرى فان وجود الحجارة الطباشيرية المربعة تشير الى ا ن سقف المبنى كان معقوداً او مقنطراً(Vaulted) .(٨٢)

تأريخ المبنى محط جدل العديد من الآثاريين، فمنهم من يؤرخه للفترة الفارسية اعتماداً على الكسر الفخارية التي وجدت بداخله،(٨٣) بينما (اهاروني Aharoni) الذي اعاد التنقيب فيه أرخه للفترة الهلنستية.(٨٤) وبينت حفرياته مخطط البناء بشكل واضح، فكشف عن عتبة الباب في الجدار الشرقي للغرفة ـ ١١٠ـ بالإضافة للكشف عن مجموعة من الحجارة خارج الجدار، ربما كانت اساسات للدرجات أو ممراً مرصوفاً يؤدي للبوابة .(٨٥) وفي الجدار الغربي للغرفة ـ١٠١ــ كشف عن مدخل بعرض ١,٣ متراً تم اغلاقه في فترة لاحقة. وعلى طول الجدار الغربي للغرفتين ـ ١٠٩ـ١١٠ــ يوجد مقاعد أو رفوف صخرية، يفصل بينها جدار. وبينما حددت (تفنل Thafnell)مدخل البناء في النهاية الشرقية للجدار الشمالي، في حين وجد(أهاروني Aharoni) بأن مدخل البناء يقع في ا لجهة الشرقية وعبر الغرفتين ـ١٠٩ـ١١٠ ــ حيث يوجد ممر ضيق في الزاوية الغربية للغرفة ـ١١٠ـ يؤدي إلى الساحة.(٨٦) وباختصار فإن تاريخ البناء كان محط جدل من قبل (تفنل Thafnell وستاركي STARCKY)اللذين أرخا البناء للفترة الفارسية، بينما أر خه أهاروني اعتماداً على آنية الطبخ التي عثر عليها اسفل الجدار، والمؤرخة للفترة الفارسية، مما دعا الى تأ ريخ المبنى للفترة الهلنستية.(٨٧) ولكن المخلفات العديدة التي عثر عليها في المبنى مثل الاواني الدينية، والمذبح الكلسي، والمصباح البرونزي أرخت جميعها للفترة الفارسية، مما يشير بأن المبنى من

حيث الوظيفة هو معبد اسس في الفترة الفارسية في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد واستمر استخدامه في الفترة الهلنستية.(٨٨)

والمعبد الآخر يقع في (مكميش Makmish)ويتكون من غرفتين احداهما كبيرة إلى الجنوب، واخرى صغيرة الى الشمال، ومحور البناء باتجاه شمال ـ جنوب ويبلغ طو ل المبنى ١٥×٦,٥متراً.(٨٩)

تقنية المباني الفارسية:

استخدم في العمارة الفارسية تقنية البناء المعروفة باسم(حجر طولي يتبعه حجر عرضي Heaker-stretcher)، حيث استخدمت في بناء المباني الكبيرة، فالجدار الخارجي مبني بهذه الطريقة في تل المبارك(مفراك Mevorakh)(٩٠) اما الشبائح الحجرية الكلسية المستخدمة، فكانت محددة الاطراف وناتئة في الوسط، وتم بناء جدران الحجرات المنيعة بخليط من الحجارة المشذبة وحجارة الدبش.(٩١)

اما تقنية الدعائم فكانت باستخدام الشبائح الحجرية، وملء المسافة بين الدعائم بالدبش. وهذه الطريقة وجدت في العصر الحديدي الثاني، في كل من فلسطين، والساحل الفينيقي، واستمر استخدامها في البناء حتى الفترة الهلنستية.(٩٢) ويعتقد البعض ان استخدام هذه الطريقة كان لاسباب جمالية، كما اعتبرها (برتشارد)، والآخر يعتبرها لتقوية الجدران، في حين يعتقد (دوثان) بان هذه التقنية في البناء هو ذات اصل فينيقي.(٩٣)

اما الأرضيات فاستخدم في رصفها الشبائح الحجرية، وهذا الاسلوب من اصل فينيقي، بقي استخدامه معروفاً حتى الفترة الهلنستية، في حين حملت بعض الارضيات اثاراً للجص عليها.(٩٤)

تأريخ المباني الفارسية:

اعتمد في تأريخ المباني العائدة لهذه الفترة على فخار(اتيكي Attic)المستورد من اليونان، والذي شاع استيراده في القرن الخامس قبل الميلاد، بالاضافة الى الكسر الفخارية او الاواني الكاملة المحدد تأريخها للفترة الفارسية.(٩٥)

ولكن غالبية المواقع حدد تأريخها لفترة واحدة غطت العصر الفارسي جميعه. في حين نجد انه في موقع ابو حوام، تم تمييز مرحلتين فيه عائدتين لهذه الفترة، المرحلة الاولى A أرخت من نهاية القرن السادس حتى بداية القرن الرابع قبل الميلاد، اعتماداً على فخار اتيكا في حين المرحلة B أعيد فيها تجديد البناء، ودام حتى مجيء الاسكندر الكبير عام ٣٣٢ قبل الميلاد(٩٦) وحدد في تأريخ بعض المواقع، الاواني الكاملة والمؤرخة للفترة الفارسية، كالتي عثر عليها في حفر(Pits)في المناطق المحيطة في بيسان.(٩٧) وفي وادي الدالية حدد تأريخ

الفخار الذي عثر عليه في الكهف رقم ١ بدقة الى الفترة الفارسية المتأخرة وبداية الفترة الهلنستية، استنادا الى قطع المسكوكات المترافقة مع هذه الاواني، فأصبحت دراستها مهمة في تحديد تأريخ المواقع الاخرى.(٩٨)

الفترة الهلنستية:

تبدأ الفترة ا لهلنستية في الاردن وفلسطين، باحتلال الاغريق على يد الاسكندر الكبير للمنطقة، والذي انهى السيطرة الفارسية عام ٣٣٢قبل الميلاد.(٩٩) وباخضاعه للامبراطورية الفارسية، نُصِّبَ الاسكندر حاكماً للعالم، واصبح الغرب مهيمناً على الشرق. وسهل هذا الاخضاع انتشار الثقافة الاغريقية في الشرق، فأصبحت اللغة اليونانية اللغة الرسمية في ارجاء الامبراطورية، ولغة التجارة والثقافة ولغة الدين.(١٠٠) وبوفاة الاسكندر الكبير قسمت المنطقة بين البطالمة والسلوقيين، فسيطر البطالمة في الفترة مابين عام ٣٠١-١٩٨ قبل الميلاد على جنوب سورية والاردن وفلسطين ومصر. اما السلوقيين فحكموا المناطق الآسيوية المتبقية،(١٠١) ويعاصر هذه الفترة ظهور الانباط كقوة مستقلة، بقيت محافظة على استقلالها ونشاطها التجاري المنطلق من عاصمتهم البتراء، رغم مهاجمتهم عام ٣١٢قبل الميلاد من قبل (انتيغونوسAntigonus).(١٠٢)

وزالت السيطرة البطلمية عن الاردن وفلسطين في حوالي عام ٢٠٠-١٩٨قبل الميلاد، بعد هزيمة بطليموس الخامس في معركة (بانيونPanion)، بقيادة انطوخيوس الثالث وهو تأريخ تدشين العهد الهلنستي المتأخر. وبهذا سيطر السلوقيون على الاردن وفلسطين، في حين نالت بعض المدن استقلالها في جنوب بلاد الشام.(١٠٣) فتمكنت سلالة طوبيا من المحافظة على استقلالها في حين خضع اقليم عمان الى سيطرة (يهوذا المكابيJudas Macabeus).(١٠٤)

الشواهد التاريخية المتعلقة بهذه الفترة، جاءت من المؤرخ (يوسفوسJosephus) والوثائق التاريخية اليونانية، التي احتوت على معلومات تاريخية عن المنطقة، في فترة حكم البطالمة في القرن الثالث قبل الميلاد.(١٠٥) وكذلك من المؤرخ (بولوبيوسPolubius) الذي تحدث عن العديد من المدن والاقاليم في الاردن وفلسطين، او سجلات (زينونZenon)، و(سترابوStrabo) والمؤرخ(اقثارخيدسAgtharchides) الذي اشار بأن خلفاء الاسكندر اخذوا بالتنازع على الممالك وكانت النتيجة نشوب العديد من الحروب.(١٠٦)

تقسم الفترة الهلنستية بدورها الى الهلنستي المبكر، والهلنستي المتأخر، أو مايطلق عليها فترة البطالمة، وفترة السلوقيين والحشمونيين.(١٠٧) هذا التقسيم انتهجه (لابLapp)وقسمه الى الهلنستي المبكر(البطالمة) من عام ٣٣٠-١٩٨قبل الميلاد، والهلنستي المتأخر(السلوقيون)من عام ١٩٨-١٦٥ قبل الميلاد، والحشمونية المبكرة من عام ١٦٥-١٠٠قبل الميلاد، والحشمونية المتأخرة من عام ١٠٠-٦٣قبل الميلاد.(١٠٨)

انتهت الفترة الهلنستية في الاردن وفلسطين عام ٦٤-٦٣قبل الميلاد، على يد القائد الروماني بومبيوس، نتيجة لانقسام المملكة السلوقية وانشغالها بالصرعات الداخلية.(١٠٩)

مواقع الفترة الهلنستية:

تتميز المعلومات الأثرية عن الفترة الهلنستية المبكرة، بكونها قليلة في كل من الاردن وفلسطين، وبينما تأخذ المعلومات بالاطراد في الفترة المتأخرة. والسبب يرجع من الناحية التاريخية الى الحروب والمشاكل، التي كانت قائمة بين البطالمة والسلوقيين بعد موت الاسكندر الكبير.(١١٠)

أ)الاردن:(خارطة رقم)«٢»

تمثلت مواقع هذه الفترة في الاردن في عراق الامير،(١١١) وتل السعيدية الطبقة الثانية،(١١٢) وفي جبل(سرطبةSartabe)على بعد ٢،٢كيومتراً الى الجنوب الشرقي من طبقة فحل،(١١٣) وفي ام قيس، وجرش، وعمان، واليصيلة، وتل الذهب، وحسبان، وتل الخليفة، وتل المزار والعديد من المواقع التي تم الكشف عنها اثناء المسوحات الاثرية في وادي الاردن، مثل تل ابو علوية، وتل ابو كامل، وتل عماتا، وتل ابو هابيل، وخربة الحمة، وتل الاربعين وغيرها من المواقع.(١١٤)

من أبرز المواقع الاثرية التي تمثل الفترة الهلنستية في الاردن:

١-عراق الامير:

يقع موقع عراق الامير في منطقة وادي السير بالقرب من عمان، وعلى بعد ٢٠كليومتراً باتجاه نهر الاردن، تم اكتشاف الموقع والمباني الهامة فيه في القرن التاسع عشر من قبل(أربي ومانغليسIrby,Mangles)، وتم تحديد مبنى قصر العبد من قبل (بانكوBanko)، وفي عام ١٨٦٢ميلادي قام الفرنسي(ديفوكDavoque)بدراسة القصر بصورة منفصلة، وأرخه للفترة الهلنستية، وحدد وظيفة المبنى كقصر. في حين اعتقد (سولسيSaulcy)بأن المبنى كان يشغل وظيفة دينية وبالتحديد معبداً اعتماداً على وجود تمثيل الاسود، واستنتج بأن المبنى مقدم للآلهين(مولوخ وكاموشMoloch,Qamos)وأرخه بذلك للفترة الفارسية،(١١٥) ولكن الحفريات التي اجريت عام ١٩٧٦ميلادية، من قبل(فيل ولارشيهWill,Larche)بينت ان البناء يعود للفترة الهلنستية، وان وظيفة البناء كانت قصراً وليس معبداً كما ذكر يوسفوس،(١١٦) أمّا البقايا المعمارية في الموقع تمثلت بـ:

أ-قصر العبد:

يذكر يوسيفوس بأن القصر تم بناؤه على يد(هركانوسHurcanus)واستخدمت الحجارة البيضاء في ذلك، وزخرف بتماثيل الاسود، ولكن (ديسوDUSSAUD) اعتقد بأن المبنى معبد عموني، ولكن المبنى لايشير الى كونه كذلك. اما الاسم الحالي فيرجع الى اسطورة متداولة بين

السكان المحليين مفادها بـأنه كان لأمير المنطقة بنت، تركها في عهدة احـد العبيد، والذي احبها وطلبت الفتاة منه بناء قصر لها، وسمي بذلك قصر العبد.(١١٧).

تبلغ مسـاحة القصر(٣٧×١٨,٥متراً) ـ مخطـط رقم٥ـ، تـم بناؤه من الحجـارة الكلسية البيضـاء، المستخرجة من المناطق المجاورة، والقصر بني وسط منخفض كانت تحيط به بحيرة اصطنـاعية. وأرخ القصر الى الفترة الهلنستيـة، اعتماداً على النظـام الكـورنثي، المستخـدم في زخرفتـه، وكذلك البروز المستطيـل في الافريز المشيد على الطـراز الدوري، والعتبة الكـورنثية والكورنيش. ودلـت التحاليل المعمارية، على أن البنـاء شيد في وقت واحد، وانـه لم يتم الانتهاء من تنفيذه، فتبع البناء صاحبه حيث كلاهما تبعا نهاية قاسية عام ١٧٥قبل الميلاد.(١١٨)

يتكون البناء في مخططه من وحدة مركزيـة محاطة بممر على شكل حدوة الفرس، يؤدي الى الحجـرات في الجهتين الشرقيـة والغربيـة، والى ثـلاث حجـرات اخـرى في الجهة الجنـوبيـة، بالاضافة الى حجرات للخزين في الزاوية الجنوبية ، والشرقية والجنوبية الغربية.(١١٩) يضم المبنى طابقين ذات ارتفاعات متساوية، الطـابق الارضي ويضم ممراً ذا اعمدة في الشمال، يقوم على جانبيه بئر، ودرج من الشرق يؤدي للطابق العلوي، وحجرة صغيرة في الغرب. ويؤدي هذا الممر الى ممـر آخر داخلي يقوم على جـانبيه حـوضان يفرغـان ماءهما خارجـاً بواسطـة افواه فهديـن ضخمين في قاعـدة الجدران، وفي الجهة الشرقيـة والغربيـة من القصر، تـوجد سبـع حجرات كبيرة(مخازن للحبوب) مقسمة بواسطة الاعمدة للسماح بدخول الضوء.(١٢٠)

اما الطابق الثاني او العلوي، فكان يتم الصعود اليه عبر سلم، ومخططه متصل مع جدران الطابق السفلي، ويحوي على العـديد من الحجرات المزخـرفة. ولعدم استكمال البناء ــ يتضح ذلك مـن الزخارف غير المكتملة ــ مايدعـو للاعتقاد بـأن المبنى لم يسكن، وذلك لعـدم وجود النوافـذ، وحلقات الابواب. ويحوي البناء في الجهـة الجنوبية على ممر وهمي ذي اعمـدة يقوم على جـانبيه حجـرتان صغيرتـان، ويبلغ ارتفـاع المبنى ١٤متراً، ويشبـه في تصميمه المبـاني الشرقية.(١٢١)

ب ـ البوابة التذكارية:

تقع على بعـد ١٥٠متراً الى الشمال من القصر، وبقـي منها اربعـة مداميـك، وامكن تـرميم البوابة لارتفاع ٩أمتار. من على مستوى الارض فان البناء يتكون من ركيزتين محـاطتين ببوابة بعرض ٣,٧متراً تفتح البوابة على سياج تشكل جدرانه من الخارج منحني بزاوية يمنى. وليس هنالك علاقـة بين اتجاه البوابة واتجاه القصر، وتتصل البوابة مع محور الطـريق الممتد بشكل مستقيـم لمسافـة تقـارب ١٠٠متر، ومحاذيـة للجدار المحيـط بـالبركـة الاصطناعيـة حـول القصر.(١٢٢)

امكـن التعرف على تقنيتين في بنـاء البوابـة، حيث استخـدمت الحجـارة الضخمة في بنـاء الواجهة، فهـي متميزة من حيث حجمها وكذلـك في معالجتها عند الحواف، مما يمنحهـا طابع

القوة وكـذلك للحفاظ على المبنى. كما استخـدمت تقنية (التثبيـت بالتلسينMortises and tensons) في البناء، وخصوصاً في الحجارة الضـخمة لتماسكها مع بعضـها البعض. وهذا الاسلوب المعماري معـروف في العمارة اليونـانية ويظهـر بشكل خـاص في المواقع المتـأثرة في الاسلوب المعماري الشرقـي.(١٢٣) التقنية الثـانية المستخـدمة، تتكـون من مـداميك قليلـة الارتفاع(٥٨سنتمتراً)، فالارتفـاع المحدد للحجارة اللوحيـة يجعلها اكثر ثباتـاً دون الحاجة الى استخدام المعدن المصهور لتثبيتها مع بعضها البعض.(١٢٤)

اما طريقة البناء واختيار المواد اللازمة في بناء البـوابة، فتدلان على مكانة وقوة مالكها، فقد زخرفـت البوابة بالمنحـوتات الحيوانية، مثـل الحيوانات البريـة، (النسور) التي تحتل مكـانة بارزة في زخـرفة القصر ايضـاً. اما زخـرفة الحيـوانين (السنوريFeline) فقد تم وضعهما بشكل متناسق متجهين باتجاه البوابة، ممـا يشير الى كونهما حاميان للممر، اما الاسد والنسر فيشيران الى القوة الملكية او المقدسة للتغلب على الاعداء.(١٢٥)

واستخـدم الجص الملون والابيـض في زخرفـة جدران القصر، والمبـاني السكنية في عـراق الامير، مما اعطـى اهمية في التعـرف على اهمية البناء الـذي وجدت عليه، وكـذلك فهـم اسلوب الحياة في الموقع؛ فالجص الابيض استخدم في زخرفة الجدار الداخلي، المكون من طبقة سميكة بنيّة اللون، ممزوجة بحصى صغيرة الحجم ثم تغطى بطبقة رقيقة من رمل الكوارتز.(١٢٦)

ولم تقتصر المرافـق على المبـاني العـامـة، بـل تعدى ذلـك الى وجـود المرافـق الـزراعيـة، كالمصاطب والجدران الاستنادية، وقنوات الـري، فقد لعب جدول المياه الدائم في وادي السير، الى جذب الاستيطان في الموقع، فعلى مـايبدو ان الموقع جذب هركانوس للاستيطـان فيه لمكانته الاقتصادية.(١٢٧)

٢ـ تل السعيدية:

تحتوي الطبقة الثانية في التل على بناء مستطيل الشكـل، بنيت اجزاء منه فوق البناء العائد للفترة الفـارسيـة، وتبلـغ ابعـاد المبنـى١٣,٣×٢١,٢متراً، ويتراوح سمـك جـدرانـه الخارجية(٩٠سنتمتراً)، في حين يبلـغ سمك الجدران الداخليـة(٦٠سنتمتراً)، وبنيت الجدران فوق اسـاسات مـن الحجارة، واستخدم الطـوب في بناء الجزء العلـوي منه. والملفت للنظر في تقنية البناء استخدام القصـب في البناء، فبعد الانتهاء من وضع اساسات البنـاء الحجرية، قام المعماري بوضـع طبقة مـن القصب بشكـل تقاطعـي على طول الجدار، ثـم غطيت بطبقـة من البلاستر(الجص)، ثم يستكمل البناء باستخدام الطوب فوق طبقة القصب.(١٢٨)

الطـــوب المستخـــدم في البنـــاء كـــان بحجمين، الاول كبير بقياس(٤٠×٤٠×١٥سنتمتراً)والثاني صغير بقيـاس(٢٠×٤٠×١٥×سنتمتراً). اما الجدران الداخليـة(٦٠سنتمتراً) فقد بنيـت بصف مـن الطوب الكبير، اصطـف بجانـب صف آخـر من الطوب الصغير الحجم، اما الجدران الخارجية فيبلغ سمكها(٩٠سنتمتراً)، وقد بنيت بمداميك

اختلفت بين صفين من الطوب الكبير، ومدماك من طوبتين صغيرتين، وطوبة كبيرة في المركز، وقد استخدم الجص في تغطية الجدران الداخلية للمبنى.(١٢٩)

البناء في مخططه يتكون من ساحة-١٠٢- يتم الدخول اليها عبر مدخل عريض(١,٦متر) في الجهة الشمالية. ويحوي ايضاً على مدخلين، الاول يفضي الى الرواق -٢٠٢- والثاني للغرفة -٢٠٣- ويستدل من العوارض الخشبية المتفحمة التي وجدت في أماكن مختلفة على الارضية، وعند مدخل الغرفة في الجزء الشمالي، ان المبنى كان مسقوفاً.(١٣٠) ويتم الدخول عبر الساحة -٢٠١- الى رواق يؤدي الى خمس غرف في الجهة الغربية، باستثناء الغرفة -٢٠٦- التي يتم الدخول اليها عبر الغرفة -٢٠٧- اما الغرفة -٢٠٣- فتحوي على مدخلين، الاول من الجهة الشرقية عبر الغرفة - ٢٠١-، والآخر عبر الرواق -٢٠٢-، وتعتبر هذه الغرفة من افضل الامثلة التي تحوي على أرضية مرصوفة بالحجارة. اما الغرفة -٢٠٤- وهي اصغر الغر ف الموجودة، فيتم الدخول اليها عبر الرواق - ٢٠٢- الذي يؤدي ايضاً الى الغرفة - ٢٠٥-.(١٣١)

يمتاز الجدار الشمالي للغرف -٢٠٦ الى٢٠٨- كونه سميكاً(٩٠سنتمتراً)، بعكس الجدران الداخلية الاخرى، ولذلك ربما يشير الى وجود طابق ثان للمبنى.(١٣٢) وبشكل عام يتكون البناء من ساحة تقابلها من جهة واحدة ست غرف.

٣- طبقة فحل(Pella):

تم الكشف خلال موسم التنقيب عام ١٩٨١ ، عن بناء مستطيل ابعاده ٩×٥,٥متراً، أرخ الى الفترة الهلنستية(القرن الثاني قبل الميلاد)، وبنيت جدران المبنى من الطوب المجفف فوق اساسات من الحصى، ترتفع حوالي المتر عن مستوى الارضية.(١٣٣)

قُسِّم المبنى من الداخل بجدارين الاول يتصل مع الجدار الشرقي وهو ضمن مخطط البناء الاصلي، لكونه يحتوي على طبقة من الجص في الجزء الشمالي، وكذلك مبني بشكل قوي وثابت، فلهذا قُسِّم البناء الى جزئين: غرفة داخلية واخرى خارجية، اما الجدار الداخلي الثاني فتم اضافته في فترة لاحقة، ويقسم الغرفة الخارجية الى قسمين. وعلى مايبدو ان وظيفة الغرفة الخارجية مخالفة للداخلية، لكون الاخيرة مبلطة ببلاطات حجرية، مما يشير الى نفس وظيفة الساحة المجصصة في الجهة الغربية.(١٣٤)

لقد ساعدت قطعتا العملة في تأريخ المبنى، فقد أُرِّخت القطعة الاولى الى النصف الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد، والثانية تعود الى الفترة الحشمونية.(١٣٥)

وعلى بعد ٣,٢٠٠كيلو متراً الى الجنوب الشرقي من طبقة فحل، عثر في جبل سرطبة على تحصينات مؤرخة للفترة الهلنستية، فموقع التل مميز بكونه يشرف على الطرقات سواء القديمة ام الحديثة، ويمتاز ايضاً بصعوبة الوصول اليه، مما حفظ حجارته المبنية من العبث.(١٣٦)المبنى في مخططه مربع الشكل يبلغ طول كل جانب حوالي ٦٠متراً، ويتكون السور من ثمانية ابراج تتوزع كالتالي: برج في كل زاوية وفي منتصف الجدار، وتظهر الابراج

عدم تماثل فيما بينها، فقد تراوحت الغرف الداخلية المكونة للابراج من غرفة الى ثلاث غرف داخلية. ويتم الدخول عبر السور خلال اربع بوابات، واحدة في كل جانب، وتقع البوابات بالقرب من البرج(١٣٧) وفي داخل الحصن يوجد بئران تم حفرهما في الصخر الطبيعي، ويشير حجمهما الى عدم كفاية استخدامهما لفترة طويلة، وبالمقابل فان سماكة الترسبات الموجودة في قاع البئر، تشير الى استخدامه لفترة قصيرة، لعدم استخدامهما بشكل حقيقي.(١٣٨)

ان سبب بناء الحصن غير محدد بالضبط، لأنه من غير المعقول بناؤه من قبل سكان طبقة فحل، لكونه لايشكل عاملاً مهماً في حماية مدينتهم، ولكن ربما تم بناؤه من قبل أحد القادة السلوقيين وربما(انطيوخس الثالثAntiochusIII) حيث تذكر المصادر اهتمامه بأقليم طبقة فحل،(١٣٩) وأكثر الاحتمالات تشير الى انشائه في نهاية القرن الثالث قبل الميلاد، حيث يذكر(يوسيفوسJosephus) بأن انطيوخس الثالث كان له نشاط عسكري في الاردن في ذلك الوقت(نهاية القرن الثالث قبل الميلاد). وفي المقابل فان الاسبار التجريبية داخل الحصن اظهرت عدم استيطانه، فأرخ المبنى اعتماداً على الكسر الفخارية الى الفترة الهلنستية، وعلى بعد ٦٠متراً الى الجنوب الشرقي من الحصن عثر على برج منعزل يعاصر فترة بناء الحصن.(١٤٠)

٤ـ اليصيلية:

المبنى الاداري

بدأ العمل في المنطقة ـ ب ـ من موقع اليصيلية الأثري في الموسم الثاني عام ١٩٨٩، واستمر العمل في موسم عام ١٩٩٠،وفي الموسم الرابع عام ١٩٩١، كشف عن المبنى الإداري في هذه المنطقة بالكامل. بني هذا المبنى بشكل مستطيل طوله ١٩متراً وعرضه ٩,٥امتار ـ مخطط رقم ٦ـ وبلغ ارتفاع بعض الجدران الداخلية حوالي مترين. يحتوي هذا البناء على خمس حجرات، ثلاث كبيرة تقع في الجهة الغربية، وتتصل ببعضها بعضاً عن طريق بوابات، وحجرتان تقعان في الجهة الشرقية.

وصف الحجرات

الحجرة الأولى: أطول هذه الحجرات٥,٧×٥,٧أمتار، فهي أكبر الحجرات مساحة، وتفضي بوابة البناء الرئيسة اليها مباشرة، وتقع البوابة في جدارها الجنوبي، أما الجدار الغربي فقد بني معظمه على شكل نصف دائري منحن بارز الى الخارج. وتوجد في الجدار الشمالي بوابة تتصل مع الحجرة المجاورة الشمالية، ويبدو ان هذه الحجرة كانت صالة الاستقبال الرئيسة لهذا المبنى.

الحجرة الثانية: تقع الى الجهة الشمالية من الحجرة الأولى، وتتصل معها عن طريق بوابة داخلية في جدارها الجنوبي. وهذه الحجرة ثانية من حيث المساحة بعد الحجرة الأولى، اذ تبلغ مساحتها٤,٧×٣,٨امتار. وتتميز بوجود مدخل او بوابة على شكل قوس خماسي يقع في

الجدار الغربي ويفضي الى خارج البناء، كما توجد بوابة في الجدار الشمالي لهذه الحجرة تتصل مع الحجرة الثالثة المجاورة.

الحجرة الثالثة: بنيت على شكل شبه منحرف أطوالها ٣,٨٥×٣,٤أمتار. وقد تعرضت معظم جدران هذه الحجرة للتهديم، ونقلت حجارتها الى أماكن اخرى في الموقع وخارجه، وأعيد استعمالها.

الحجرة الرابعة: حجرة مستطيلة أطوالها٣,٨٥×٢,٤أمتار. مايميز هذه الحجرة خلوها من البوابات، ولعلها استخدمت عن طريق فتحة في سقفها تصلها بالطابق الاول العلوي من المبنى. ويمكن ان يكون هناك درج(سلم)، ربما كان مصنوعاً من الخشب، يؤدي الى هذه الحجرة التي كانت تستعمل للخزن او لحفظ المياه.

الحجرة الخامسة: بنيت بشكل شبه منحرف أطوالها٤,٧٥×١,٧امتار. تخلو هذه الحجرة كذلك من البوابات، فقد تكون استعملت بنفس الطريقة التي كانت تستخدم فيها الحجرة الرابعة.

يتضح من خلال الدراسات الأولية ان هذا المبنى لم يستعمل للسكن، اذ لم يعثر فيه على مخلفات مادية تشير الى استعمالات منزلية، بل كان يستعمل مقراً إدارياً او رسمياً. وقبل تشييد هذا المبنى حفر المكان، وأزيلت الاتربة حتى وصل الى الطبقة الصخرية التي أزيلت منها بعض الاجزاء ايضاً، وخاصة في الجهتين الغربية والجنوبية ليصبح المكان مستوياً. وشيدت حجارة هذا المبنى فوق أساسات على شكل بلاطات ضخمة وضعت فوق الارضية الصخرية المستوية, وقد برزت أجزاء هذه البلاطات بطول ١٠سنتمترات من داخل المبنى وخارجه. وحجارة هذا المبنى مقطوعة من الصخور الجيرية الموجودة بكثرة في هذا الموقع. وكانت طريقة البناء باستعمال حجر عريض يليه حجر طويل بصورة متوالية(Header-Strecher)، وكانت الحجارة تثبت بعضها ببعض بواسطة مونة«إسمنت» مازالت محافظة على متانتها. وكانت الفتحات الموجودة بين الحجارة تعبأ بحجارة صغيرة مخلوطة مع هذه المونة او الاسمنت. وتشير ضخامة حجارة البناء، والوصول الى الأرضية الصخرية لقطع الاساسات الحجرية عليها، وطبيعة بناء الحجرات الخمس سالفة الذكر تشير الى وجود طابق آخر أو أكثر فوق حجرات التسوية مما يدل على أهمية هذا البناء. ويعزز افتراض وجود طابق او أكثر .وتم العثور على العديد من حجارة هذا المبنى التي اعيد استعمالها في بناء جدران الكنائس الموجودة في الموقع، حيث استدل على هذه الحجارة من الحروف اليونانية التي نحتت على معظم حجارة هذا المبنى. ونقلت اعداد كبيرة من حجارة اليصيلية الى القرى المجاورة كحوارة، وبشرى ، وسال، واستعملت في بناء المنازل حتى فترة قريبة. وقد حصر نوعان من الارضيات داخل هذا المبنى، ارضية اقيمت فوق الصخور مباشرة، وأرضية علوية كانت على مستوى البلاطات الضخمة التي تشكل اساس المبنى، ويتراوح سمك الارضيات مابين ٥ الى ١٠سنتمترات،

وتتكون من خلطة اسمنتية من الجير المطحون والمحروق، والرماد، وبعض كسر الحجارة الصغيرة، والرمل.

تعود طريقة بناء حجارة هذا المبنى الى الفترة الهلنستية، كما ان العثور على كسر الفخار التي تعود الى الفترة الهلنستية، قرب الاساسات يؤكد انه بني في هذه الفترة. واستخدم البناء في الفترة الرومانية. وربما رممت القصارة«المونة الاسمنتية» الداخلية في الفترتين الرومانية المبكرة والمتأخرة، وعثر على الكسر الفخاريةالرومانية المتأخرة والبيزنطية في الطبقات العلوية من البناء. كما اظهرت المربعات التي حفرت في الجهة الشمالية من المبنى بناء آخر يعود الى الفترة البيزنطية مكوناً من حجرات صغيرة استعملت للسكن.(١٤١)

ذـ تل المزار:

ارخت الطبقة الأولى من التل الى النصف الأول من القرن الرابع قبل الميلاد، وتمثلت بهذه الطبقة العديد من الحفر الدائرية والعميقة، بالاضافة الى مخازن العلف، وقد اتخذت هذه الحفر عدة اشكال واحجام، واختلفت طرق بنائها والمواد المستخدمة في ذلك، فالبعض منها استخدم الطوب في تشييدها، وفي حالات قليلة استخدمت الحجارة في المداميك السفلى وأحياناً الطوب، ومن ثم الحجارة في المداميك العليا. ومن حيث الشكل فتعدد بين الاسطواني والبرميلي والمخروطي، وخصوصاً تلك التي لم تستخدم الحجارة او الطوب في بنائها. كما استخدمت الشبائح الحجرية في رصف ارضيات بعض الحفر والبعض الآخر استخدم الطوب في ذلك، او الطين المضغوط.(١٤٢)

وتشير المخلفات التي وجدت في مخازن العلف، الى استخدامها لخزن كميات كبيرة من الحبوب والتبن كنوع من الوقاية خلال اوقات الجفاف، او استخدامه لتزويد قوات عسكرية، فيبدو ان الموقع كان على اتصال مع موقع (عماتاAmmata) الذي يبعد حوالي٣كيلومترات الى الشرق من تل المزار في الفترة الهلنستية.(١٤٣)

ب ـ فلسطين:(خارطة رقم٢)

هنالك العديد من المواقع التي تعود للفترة الهلنستية في فلسطين ومنها تل(عنافاAnafa)،(١٤٤) و (ماريساMarisa)التي كشف فيها عن مدينة هلنستية مكتملة التخطيط،(١٤٥) و(بيتيلBethel)التي عثر فيها على بقايا معمارية،(١٤٦) وسبسطية ـمخطط رقم٧ـ، وتل بلاطة، وتل النصبة وعتليت، وتل اسدود، وتل السمك(شكمونا Shiqmona)، وتل ابو شوشه، و(رامات رحيلRAHEL-RAMAT)، وغيرها من المواقع.(١٤٧)

ابرز المواقع التي تمثل الفترة الهلنستية في فلسطين، جاءت من موقع(ماريساMarisa) على بعد ٣٠كليومترا الى الجنوب الشرقي من عسقلان، فقد حلت المدينة في هذه الفترة محل تل الدوير كمدينة رئيسة، وخلال الحروب الحشمونية كانت قاعدة للهجوم

على(اليهودية Judea)وبقيت المدينة تحت السيطرة الحشمونية حتى مجيء (بومبيوس POMPEIUS)عام ٦٣قبل الميلاد.(١٤٨)

جرت الحفريات الأولى في الموقع على يد كل من (بليس وماكليستر Macalister and Bliss)عام ١٩٠٠ميلادي، تم خلالها تحديد ثلاث طبقات، طبقتان أُرخَتا للفترة الهلنستية، وواحدة للعصر الحديدي. المدينة العائدة للفترة الهلنستية كانت في تخطيطها مربعة الشكل١٥٨×١٥٢متر تغطي مساحة حوالي ٢٤دونماً، ومحاطة بسور يتخلله عدد من الابراج المستطيلة والمربعة موزعة: ثلاث في الجدار الغربي، وثلاثة في الجدار الجنوبي، وواحد في الجدار الشرقي.(١٤٩)

بنيت جدران المدينة على اساسات من الحجارة الضخمة ، وجزء منها مبني من الحجارة الكلسية، قطعت على شكل الطوب وبنيت بتقنية(حجر طولي يتبعه حجر عرضي Header-Stretcher). مخطط المدينة يتكون من شارعين متماثلين، يتجهان من الشرق الى الغرب، وثلاثة شوارع متعامدة من الشمال الى الجنوب، تتقاطع مع الشارعين الرئيسيين في الزاوية اليمنى. تدل بعض الشوارع على أنها كانت مبلطة وتحتوي على بقايا صرف المياه، يحيط بالشوارع اثنا عشر مبنى، احداها يقع بالقرب من الجدار الشرقي. وتمثلت المباني بمبنى ديني، واداري، وعسكري. اما المركز التجاري فمخططه مربع الشكل، ويحوي في المركز قاعة محاطة بعددمن الغرف والقاعات باحجام مختلفة، والى الغرب يوجد صف من ست غرف باحجام متساوية، وتطل على الشارع، ومبنى مربع في تخطيطه ويتألف من قاعتين احداهما تمتد على طول الشارع وكانت مبلطة بالحجارة، والاخرى تقع الى الجنوب من القاعة الاولى، تم التعرف على نمطين من المباني في المدنية من المباني الكبيرة، وتتكون من قاعدة محاطة بالعديد من الغرف، والنمط الثاني يتكون من مبان صغيرة تتكون من غرف منتظمة في تخطيطها.(١٥٠)

تم تحديد مرحلتين تاريخيتين في المدينة، الاولى تؤرخ الى الفترة الهلنستية المبكرة(الطبقة الوسطى)، والطبقة العليا للفترة السلوقية.(١٥١) لقد شجع الحكام في الفترة الهلنستية سواء المبكرة او المتأخرة، على بناء التحصينات واسوار المدن والحصون. ففي سبسطية سور المدينة العليا(الفترة الهلنستية المبكرة)بقي محافظاً على حاله وتتخلله ثلاثة ابراج دائرية سميكة شيدت في زمن(بيرديكاس Perdikkas)عام ٣٢١قبل الميلاد، او زمن(بطليموس الاول PTOLEMAIOS I) عام ١٣٢قبل الميلاد.(١٥٢) وفي تل دور استعيض عن الابراج الدائرية باخرى مربعة الشكل. اما خربة الكرك فيحيطها سور طويل مبني على اساسات من الحجارة البازلتية، وفي تل عنافا في الجليل الأعلى،تم تمييز ثلاث مراحل معمارية في التل، تعاصر الفترة من عام ٢٢٠_٧٥ قبل الميلاد، عندما سقطت على يد (اسكندر يانيوس Janneus). واحيطت المدينة بسور بلغ سمكه حوالي مترين، وأرخ الى النصف الثاني

من القـرن الثالث قبـل الميلاد، وفي المرحلة الهلنستيـة المتأخـرة استخدمت الحجـارة المغطاة بطبقة من الجص، في تشييد المباني السكنية، التي كانت ارضيتها من الطين، وجزء من الساحة مرصوف بالحجارة .(١٥٣)

يتضح مـن خلال استعـراض دراسة العمائر الفـارسية والهلنستيـة في الاردن وفلسطين، المكانة الحضارية التي كانت تتمتع بها منطقتنا، رغم قلـة معلوماتنا من الناحية التاريخية عن هاتين الفترتين، الا ان الشواهد المعمارية، اصبحت تلقـي مزيداً من الضوء على هاتين الفترتين. فقد اتبع في تخطيـط المنازل في الفترة الفارسية، نظام الساحـة المكشوفة المحاطة بالعـديد من الجهات بالغرف، وهذا النمط المعماري وجد له سابقة في الفترة الآشورية والبابلية، فقد كشف في العديدمن المواقـع الاردنية والفلسطينية، عن مثل هذا النمـط المعماري، وتجلى ذلك بوضـوح في موقـع تل السعيدية، وعين جـدي، وتل الدوير، وتـل المزار، وغيرها من المواقع. ومـن خلال دراسة تقنية المباني تم التعرف على استخدام تقنيـة(حجر طولي يتبعه حجر عرضي-Header stretcher) في المباني التي تعود للفترة الهلنستية، وكذلك رصف الارضيات بالبلاطات الحجريـة، كما ويظهر في الفترة الهلنستيـة نمط بنـاء المنازل، حول سـاحة مـركزيـة محاطة بالعديد من الغرف.

امـا تخطيط ا لمدن في الفترة الفـارسية، فقـد جـاء من خـلال دراسـة العديـد من المرافـق المعمارية في فلسطين، والتي امكن تتبع بعض المخططـات المعمارية فيها، وكيفية تمركز المباني بالقرب من سور المدينة.

وفي الفترة الهلنستية نجـد موقع(مـاريسـاMarisa)يمثل نمطاً معماريـــاً كاملاً، يشير الى نظام تخطيط المدن في هـذه الفترة، والمتمثل بالنظام الشطرنجي، وتمثلـت الانظمة التحصينية ببناء الاسوار والابراج المستديرة والمربعة.

(خارطة رقم ١)

خارطة تبين اهم المواقع في الفترة الفارسية في كل من الاردن وفلسطين

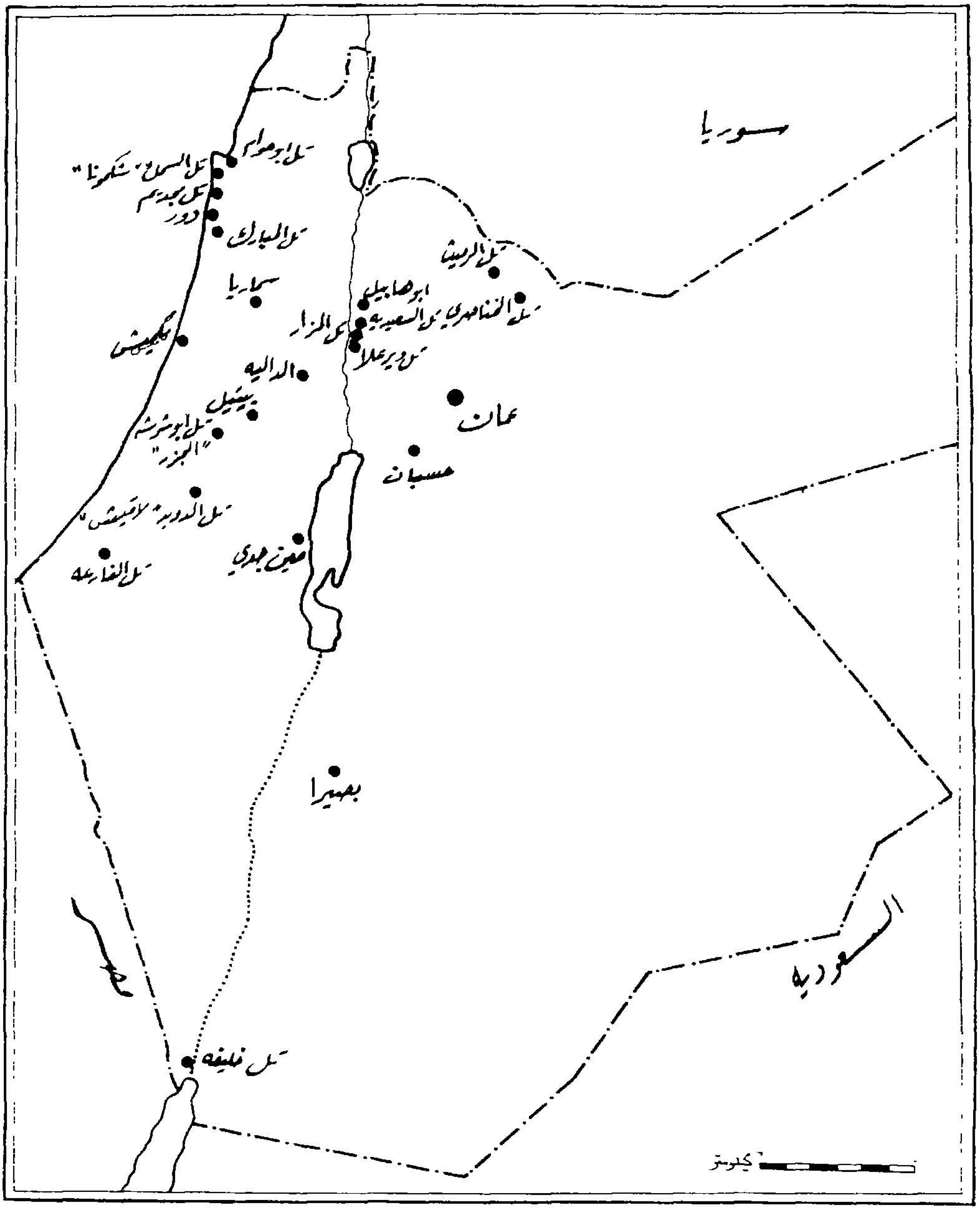

(خارطة رقم ٢)

خارطة تبين اهم المواقع في الفترة الهلنستية في كل من الاردن وفلسطين

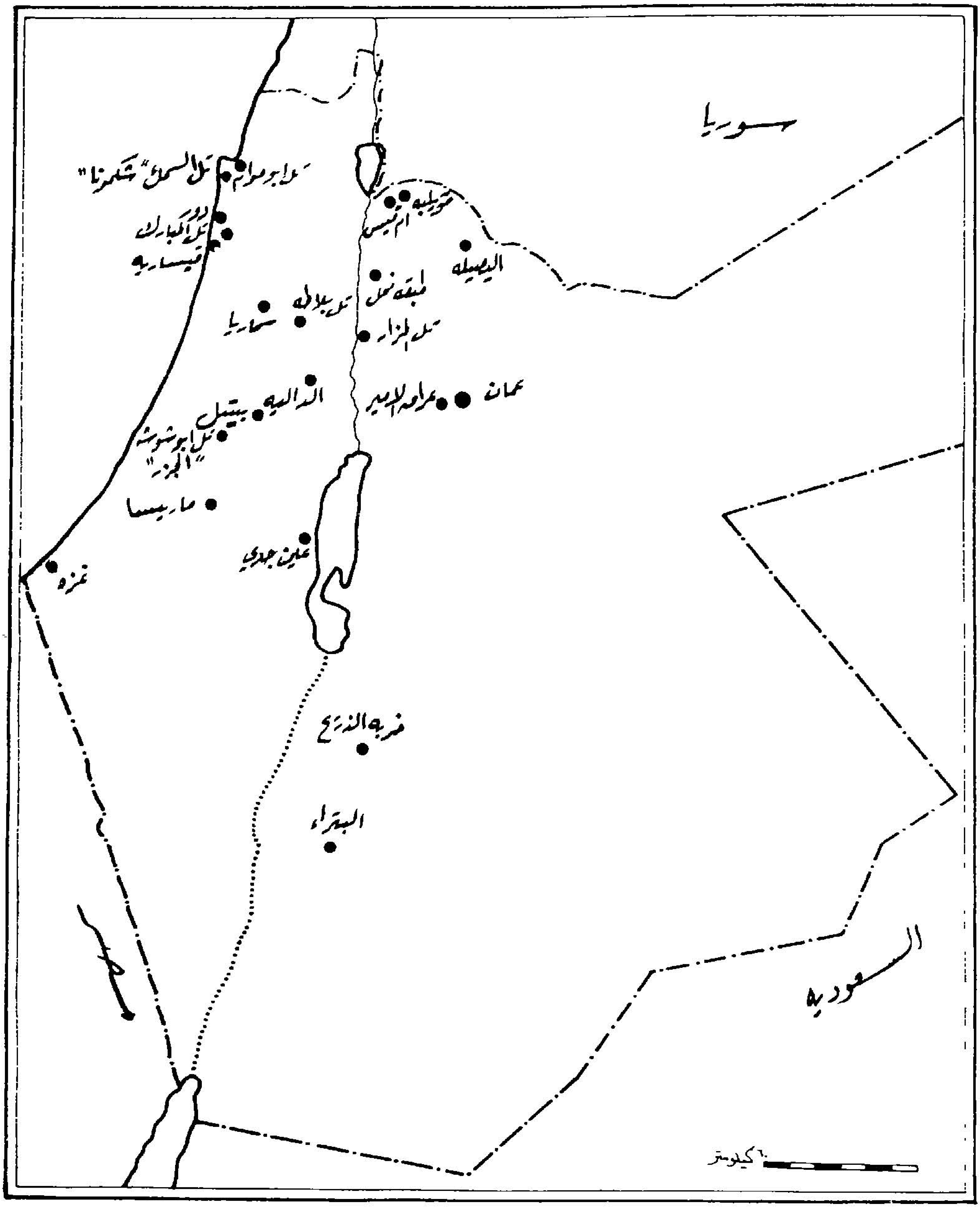

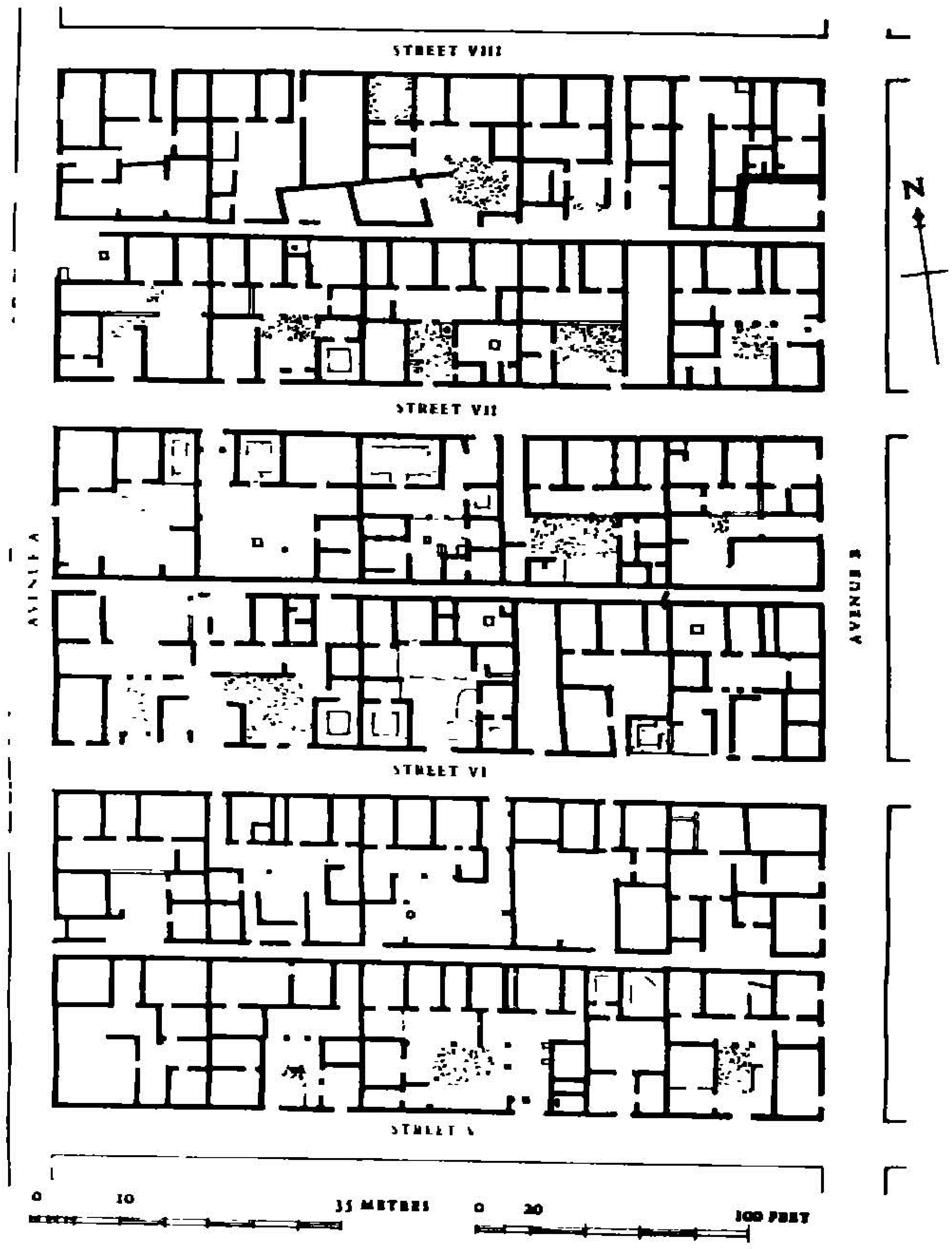

مخطط رقم (١) مخطط لمدينة اولينثوس (Olynthus) عام ٤٣٠ قبل الميلاد
(Lawrence 1983: Fig 312)

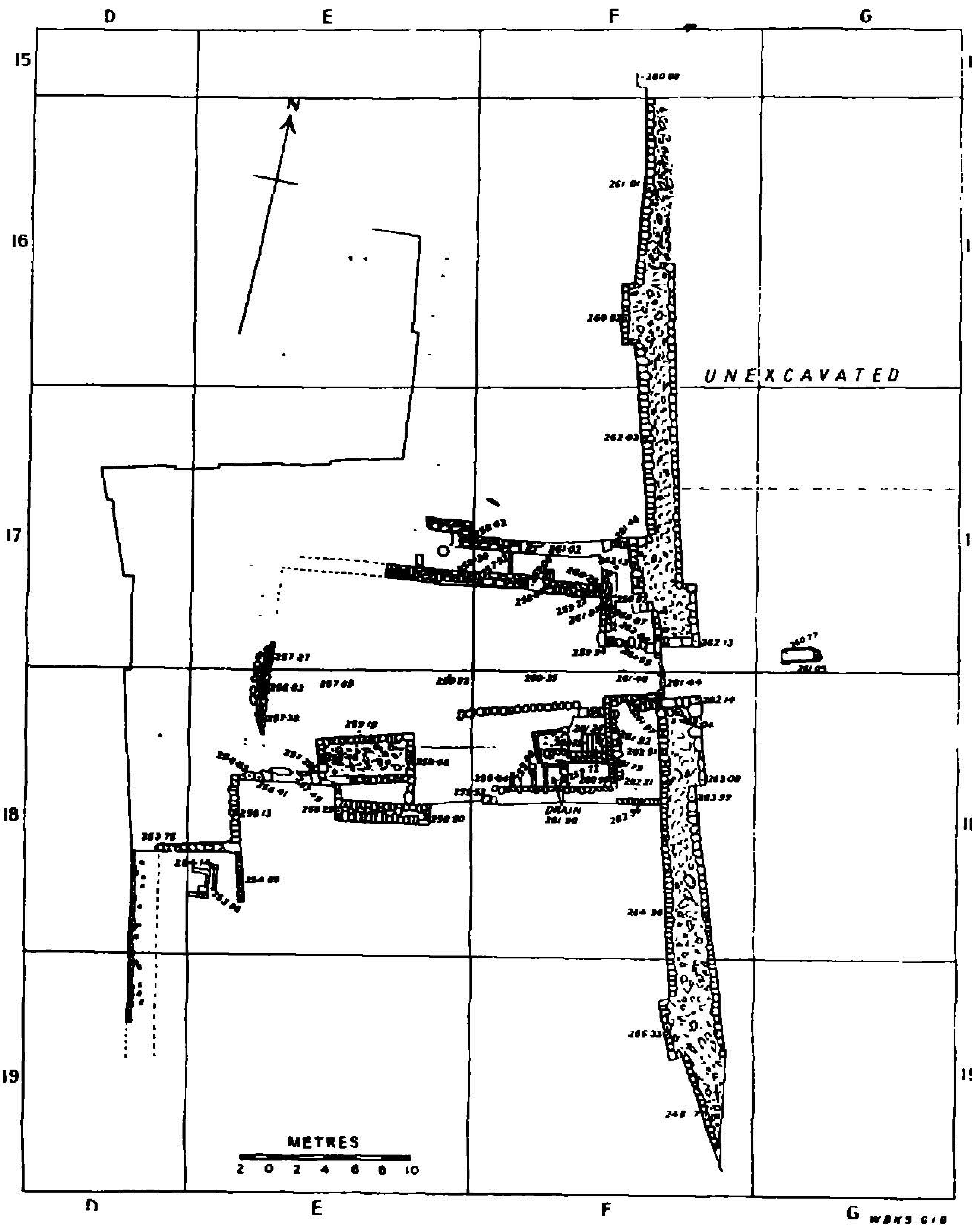

مخطط رقم (٢) :   مخطط لمدينة تل الدوير في الفترة الفارسية.
(Tufnell 1953: 116)

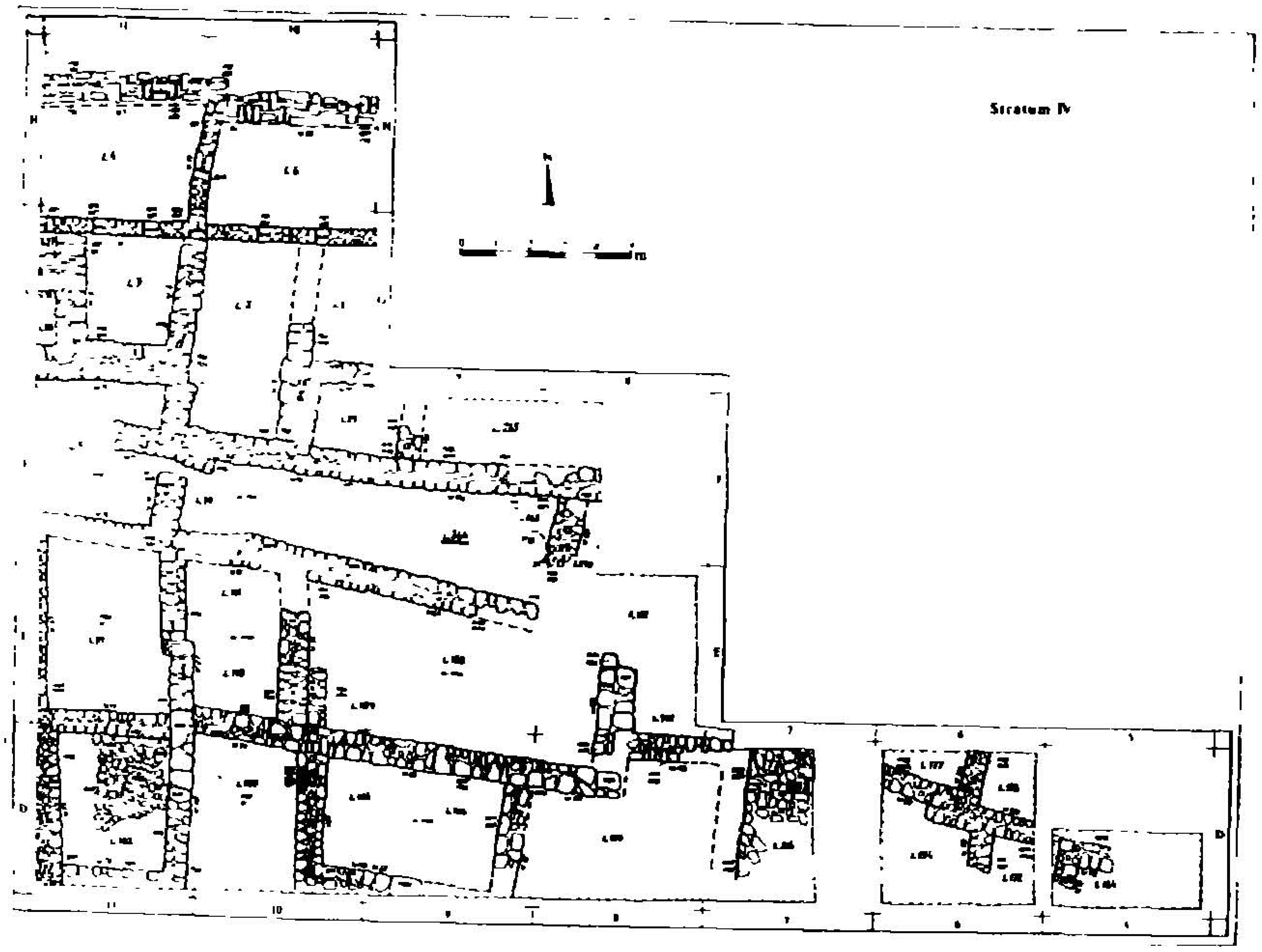

مخطط رقم (٣) : مخطط لمبنى تل المبارك (مفراك Mevorakh) يعود للفترة الفارسية
(Stern 1978: Fig 261)

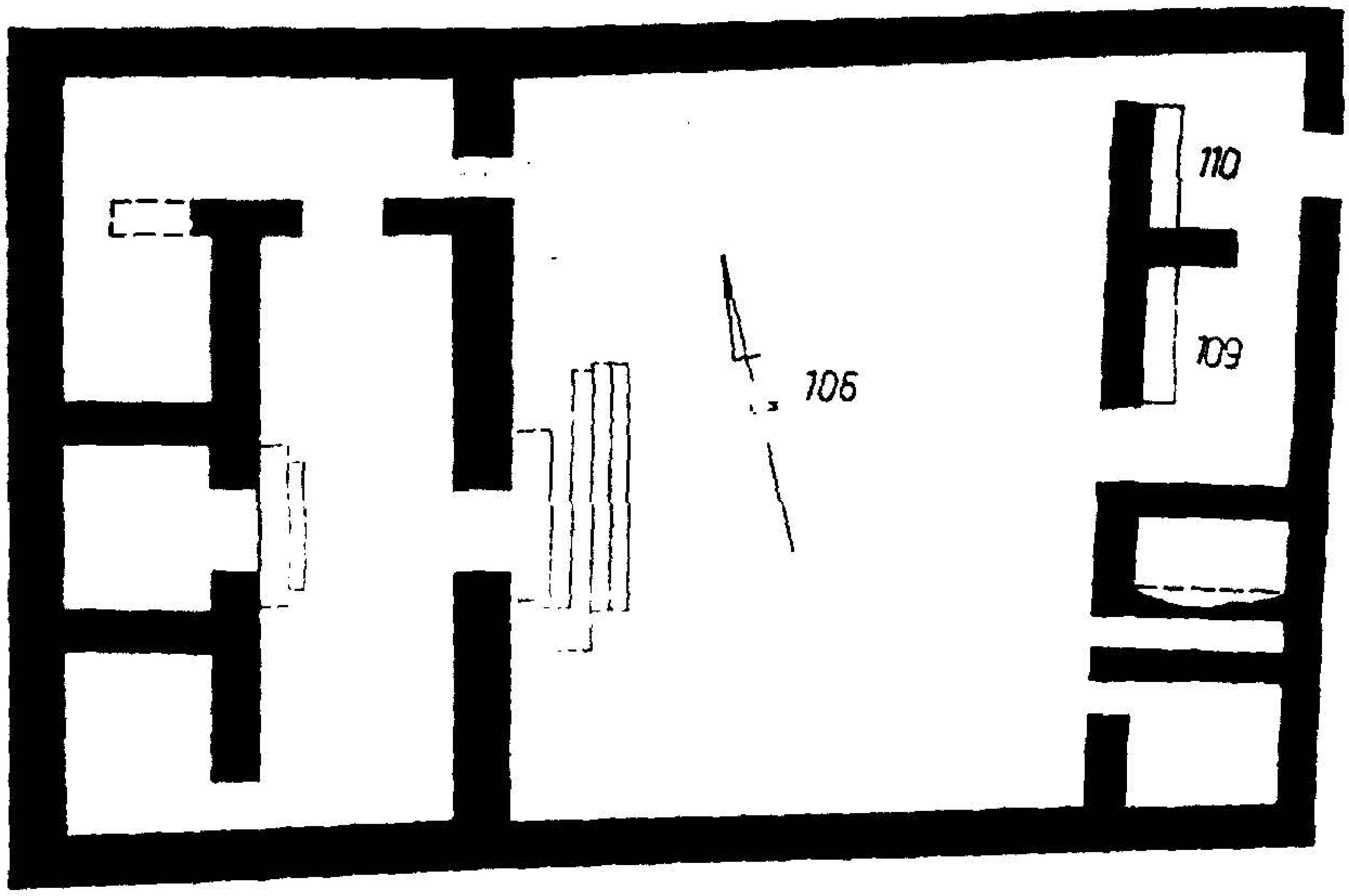

مخطط رقم (٤) مخطط معبد الشمس في تل الدوير يعود للفترة الهلنستية.
(Aharoni 1968: Fig 19)

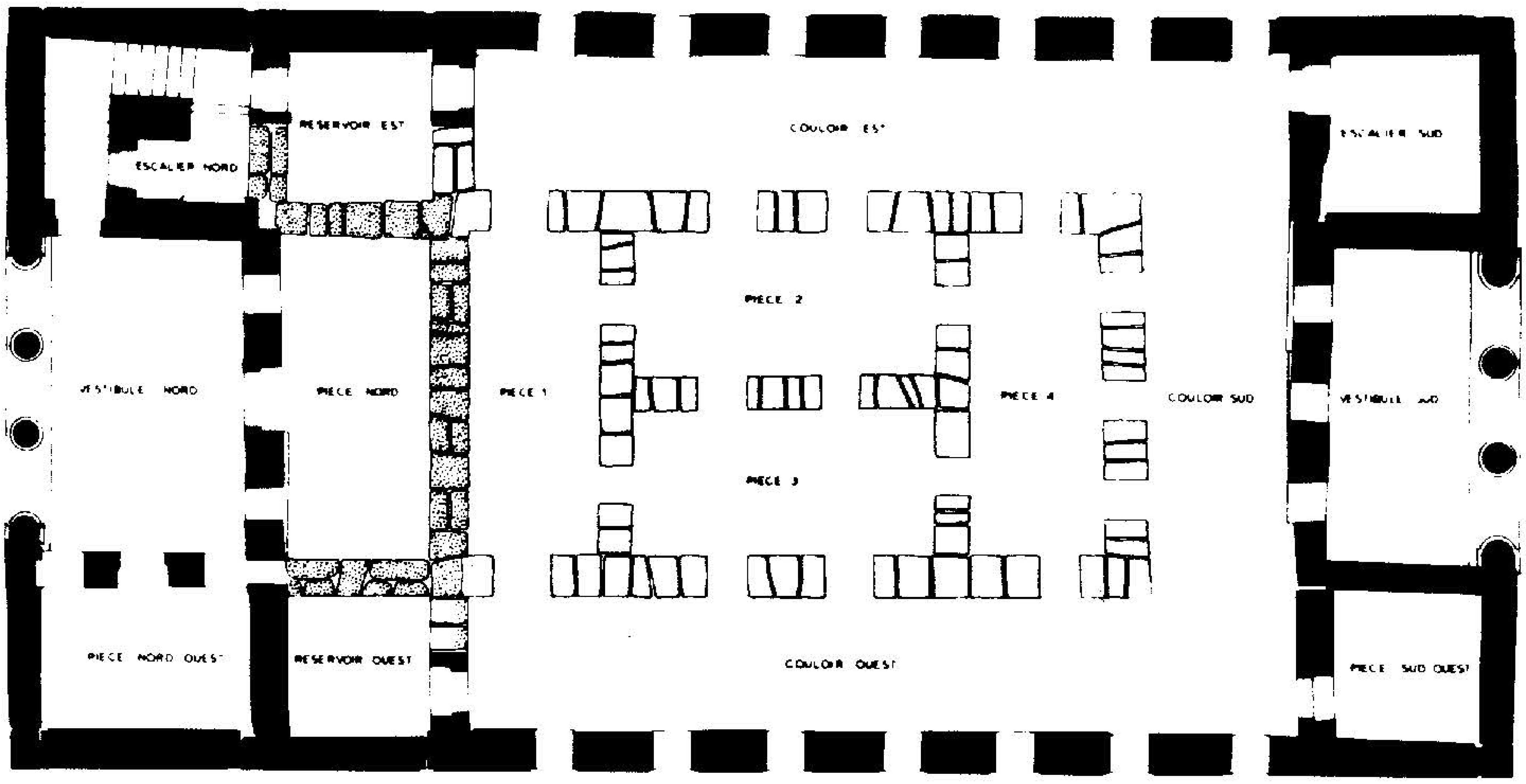

مخطط رقم (٥) : مخطط للمبنى الهلنستي في ودي السير -قصر العبد-.
(Will and Larché 1991: II, 8, Fig 2)

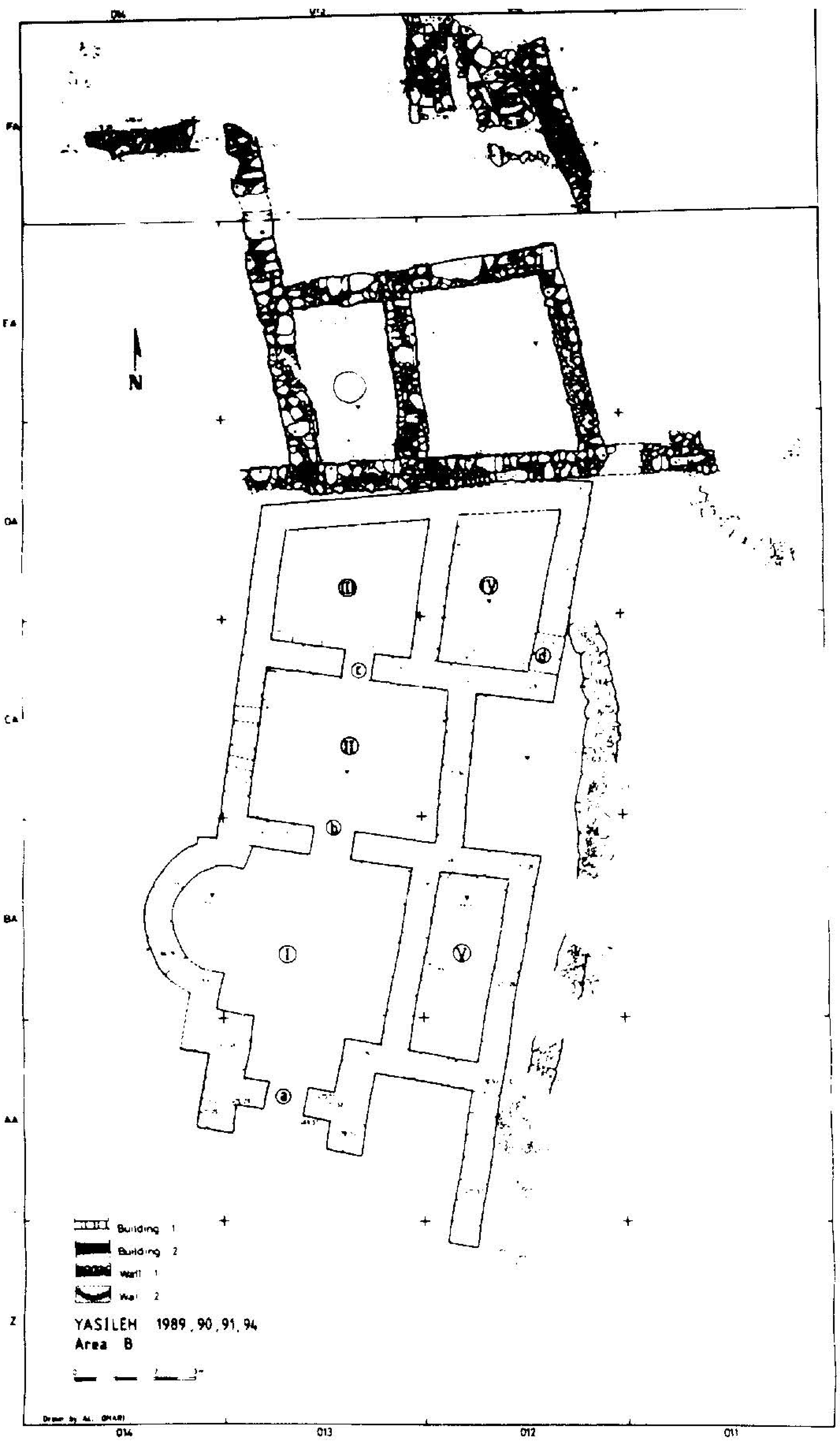

مخطط رقم (٦) : مخطط للمبنى الهلنستي في موقع اليصيلة.

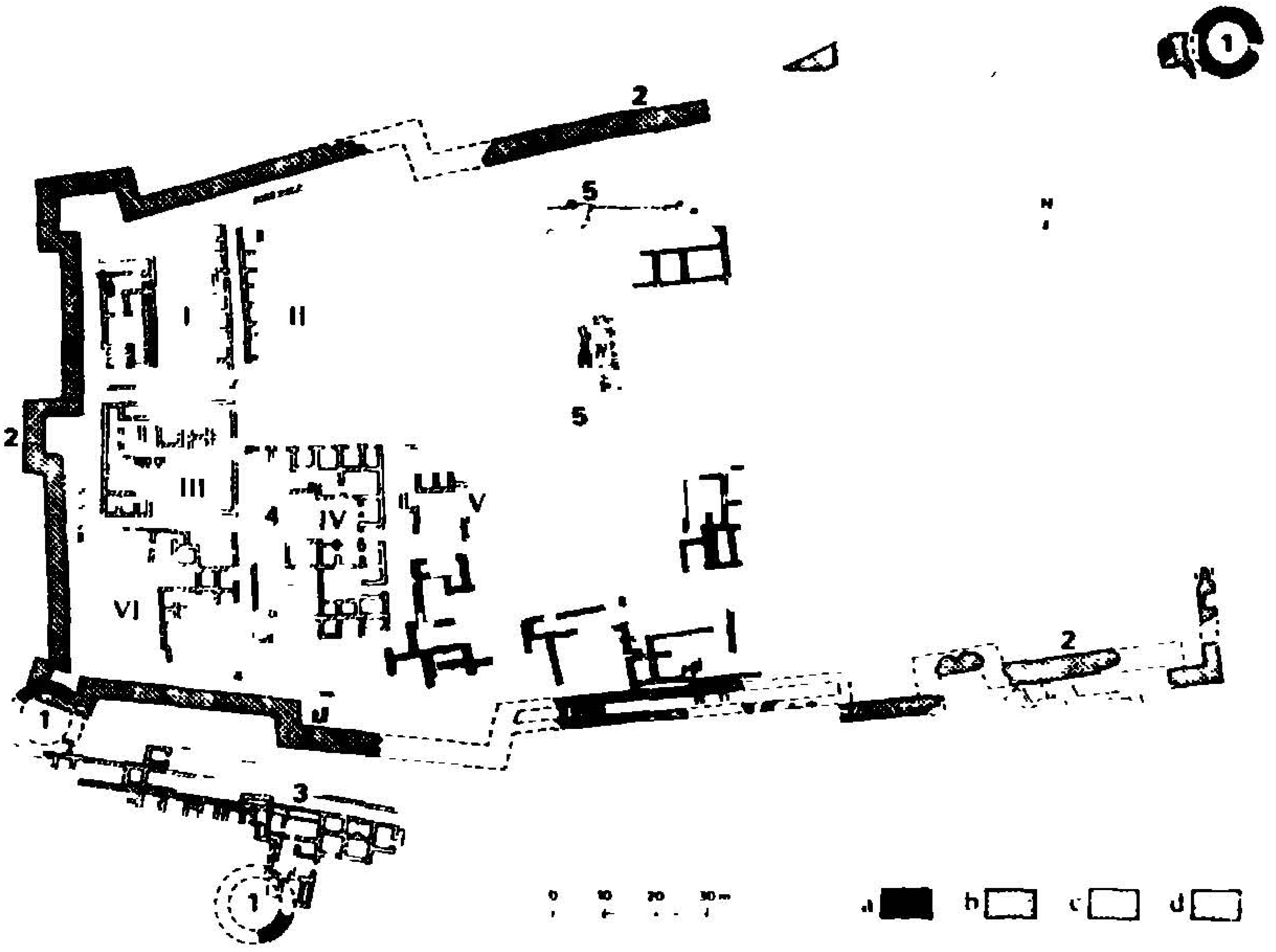

مخطط رقم (٧) : مخطط لمدينة سبسطية في الفترة الهلنستية.
(Kuhnen 1990: Fig 2)

الحواشي

(١) Fredericq , D and Franken , H ., Pottery and Potters - Past and present : 7000 years of Ceramic art in Jordan , Atempto verlag , Tubingen , 1986 , P . 174 .

(٢) Aharoni , V ., The land of the Bible , London , 1979 , P . 411 .

(٣) Pritchard , J ., Ancient Near Eastern texts relating to the Old TESTAMENT Princeton , 1969 , P . 316 .

(٤) Fredericq , D ., OP . Cit . 1986 , P . 174 .

(٥)Kenyon , K ., Archaeology in the Holy Land , London , 1979 , P . 306 .

(٦) أبو طالب ، محمود ، آثار الأردن وفلسطين في العصور القديمة ، أضواء جديدة (١٩٥٢ — ١٩٧٧) ، منشورات وزارة الثقافة ، عمان ، ١٩٧٨ ، ص ٨ .

(٧) Miller , J . M . and Hayes , J . H , A HISTORY of Ancient Israel And Judah, Philadelphia , 1986 . P . 437 .

(٨) Aharoni , V ., OP . Cit , 1979 , P . 411 .

(٩) Ibid , P . 411 .

(١٠) Miller , J . M ., OP . Cit . 1986 , P . 463 .

(١١) Aharoni , V ., OP . Cit . 1979 , P . 412 .

(١٢) Stern , E ., " Material Culture of the Land of the Bible in the Persian Period " , Exploration Society , 1985 , P . 47 .

(١٣) AIBRIGHT , W ., The Archaeology of Palestine , Penguin , 1971 , P . 146 .

(١٤) Ibid , P . 143 .

(١٥) Fredericq , D ., OP . Cit . 1986 , P . 174 .

(١٦) Ibrahim , M . Sauer , J . and Yassine , Kh ., " The East Jordan Valley Survey " , BASOR , 249 , 1983 , P . 56 .

(١٧) Harding , G . L ., " An Iron - Age Tomb at MEQABELEIN" , QDAP , Vol . XIV , Oxford , 1950 , P . 45 .

(١٨) Yassine , Kh , Tell el - Mazar 1 : Cemetery A . Amman , 1984 , P . 50

(١٩) Hadidi , A ., " An Ammonite Tomb at Amman " , LEVANT , Vol . X1X , London , 1987 . P . 101 .

(٢٠) Pritchard , J ., Tell Es - Sa'idiayeh . Excavations on the Tell . 1964 - 1966 Philadelphia , 1985 , P . 60 .

(٢١) Yassine , Kh ., " Tell el - Mazar , field I . Preliminary Report of Area G " , ADAJ , 27 ,

AMMAN , 1983 , P . 501 .

(٢٢) Glueck , N . , " The First Campaign at Tell el - Kheleifeh " , BASOR , 17 , 1938 , P . 4 .

(٢٣) Kooij , V . , and Ibrahim , M . , Picking up the Threads , A continuing review of excavations at Deir Alla . Jordan , Leiden , 1989 , P . 90

(٢٤) Pritchard , J . , OP . Cit . 1985 , P . 60

(٢٥) Ibid , P . 60

(٢٦) Ibid , P . 61 .

(٢٧) Ibid , P . 61 .

(٢٨) Ibid , P . 61 .

(٢٩) Ibid , P . 61 .

(٣٠) Ibid , P . 62 .

(٣١)Ibid , P . 63 .

(٣٢) Ibid , P . 63 .

(٣٣) Ibid , P . 64 .

(٣٤) Ibid , P . 64 .

(٣٥) Ibid , P . 66 .

(٣٦) Yassine , Kh. , Op . Cit . 1983 , P . 491 .

(٣٧) Ibid , P . 497 .

(٣٨) Ibid , P . 501 .

(٣٩) Ibid , P . 501 .

(٤٠) Ibid , P . 501 .

(٤١) Ibid , P . 503 .

(٤٢) Ibid , P . 503 .

(٤٣) Stern , E . , Op . Cit . 1985 , PLXVIII .

(٤٤) Tufnell , O . , Lachish III . The Iron AGe , London , 1953 , P . 44 .

(٤٥) Hamilton , R . W . , " Excavations at Tell Abu Hawam " , ODAP , Vol . IV , Oxford , 1934 , P . I .

(٤٦) Stern , E . , " Tell Mevorakh ,

(٤٧) Mazar , B . , and Dunayevsky , I . , " En - Gedi , Third Season of Excavatiin , Preliminary Report " .

(٤٨) Maisler,B, "The Excavations at Tell Qasile:Preliminary Report-1"

(٤٩) Crowfool,J. Kenyon, K.and Sukenik,E.,Samaria-Sebaste 1:The Buildings, London, 1942,p.123.

(٥٠) Stern,E, .Op.Cit. 1985,p.47.

(٥١) Ibid,p.48.

(٥٢) Hamilton,R.W,.Op.Cit.1934.p.2.
(٥٣) STERN,E.,Op.Cit.1995,p.48
(٥٤) Ibid,p.48.
(٥٥) Lawrence,A.W.,Greek ARCHITECTURE, London,1983,p.3,
(٥٦) Hamilton,R.W,.Op.Cit.1934.p.2.
(٥٧) Ibid,p.3.
(٥٨) Stern,E, .Op.Cit. 1985,p.50
(٥٩) Tufnell,O.,Op. Cit.1953,p.150.
(٦٠) Stern,E, .Op.Cit. 1985,p.54
(٦١) Amiran,B.K.and Dunayevsky,I.,"The Assyrian Open-Court Building and its Palestinian Derivatives",BASOR,149,1958,pp31-32.
(٦٢) Mazar , B . , and Dunayevsky , I . , " En - Gedi , FOURTH of EXCAVATION , Preliminary Report " .
(٦٣) Ibid,p.135.
(٦٤) Ibid,p.136.
(٦٥) Ibid,p.137.
(٦٦) Mazar,B.,Op.Cit.1964.p.126.
(٦٧) Tufnell,O.,Op. Cit.1953,p.131.
(٦٨) Ibid,p.132.
(٦٩) Ibid,p.132-133
(٧٠) Ibid,p.131.
(٧١) Ibid,p.135
(٧٢) Maisler,B.,Cit.1950-51,p69.
(٧٣) Maisler,B.,"Report-II"
(٧٤) Stern,E.,"The Excavations at Tell Mevorakh I, the Hellenistic, Persian and early strata",QEDEM,9,1978,p.26.
(٧٥) Ibid,p.26.
(٧٦) Ibid,p.26.
(٧٧) Ibid,p.27.
(٧٨) Ibid,p.27-28.
(٧٩) Tufnell,O.,Op. Cit.1953,p.141.
(٨٠) Ibid,p.141.
(٨١) Ibid,p.141.
(٨٢) Ibid,p.143.
(٨٣) Ibid,p.143.
(٨٤) Aharoni,Y.,"Trial EXCAVATION in the Solar Shrine at Lachish", Preliniary Report.

(٨٥) Ibid,p.159.

(٨٦) Ibid,p.159.

(٨٧) Ibid,p.160.

(٨٨) St ern,E.,Op.Cit.1958,p.36

(٨٩) Avigad, N., "Excavations at Makmish,1958, Preliminary Report"

(٩٠) St ern,E.,Op.Cit.1978,p.29

(٩١) Stern .E,."The PHOENICIAN Architecural Elements , in Palestine during the late Iron Age and the Persian period",Exploration Society, 1992,p.302.

(٩٢) Ibid,p.303.

(٩٣) Ibid,p.304

(٩٤) Ibid,p.308.

(٩٥) Albright, W., Op.Cit. 1971,p.143.

(٩٦) Stern,E. "the dating of statum II at Tell Abu Hawam

(٩٧) Tsori, N.,"A contribution to the problem of the Persian period at Bethshan",PEQ, 1977,p,105.

(٩٨) Lapp,N.,"The Late Persian Pottery, discoveries in the Wadi Eddaliyeh"AASOR, XLI,1974,p.30.

(٩٩) Albright ,W.,Op.Cit.1971,p.146.

(١٠٠) Van ELDEREN, B.,Hellenistic Period, In the Archaelogical periods and Site(East Bank) ,Vol.1. Department of Antiquities, Jordan,1973,p.30.

(١٠١) Kuhnen, H.P.,PALASTINA in Griechisch-romischer Zeit, Band2,Munchen,1990,pp,32-33.

(١٠٢) Fredericq, D.,Op.Cit.1986,p.178.

(١٠٣) Smith , R . H . , " The Southern Levant in the Hellenistic period , LEVANT , VolXXII , 1990 , P . 123 .

(١٠٤) Fredericq , D . , OP . Cit , 1986 , P . 178 .

(١٠٥) Aibright , W . , Op . Cit . 1971 , P . 146 .

(١٠٦) Smith , R . H . , OP . Cit , 1990 , P . 123 .

(١٠٧) Kuhnen , H , P . , OP . cit , 1990 , P . 38 .

(١٠٨) Lapp , P . , " Palestinian Ceramic Chronology 200 B . C - 70 A . D " . AASOR III , NewHaven , 1961 , P . 40 .

(١٠٩) Smith , R . H . , OP . cit . 1990 , P . 124 .

(١١٠) Ibid , P . 123 .

(١١١) Will , E . , " The Recent French Work at Araq el - Emir , The Qasr el - Abd Rediscoversd , " The Excavations at Araq el - Emir , Vol. 1 , AASOR 47 - 48 , 1980 - 81 , P . 149 .

لمزيد من المعلومات عن هذا الموقع انظر : —

Will , E. and Larche , F . Iraq al Amir , B . A . H . T.CXXXII , Paris , 1991 .

(١١٢) Pritchard , J . , Op . Cit . 1985 , P . 69 .

(١١٣) Smith , R . H . McNicoll , A . W . and Hennessy , J . B . , " The 1980 Season at Pella of the Decapolis " , BASOR , 249 , 1983 , P . 71 .

(١١٤) Ibrahim , M . Sauer , J . and Yassine , Kh . , " The East Jordan Valley Survey , 1975 " , BASOR , 222 , 1976 , P . 58 .

(١١٥) Will , E . , Op . Cit , 1980 - 81 , PP . 44 - 50 .

(١١٦) Ibid , P . 151 .

(١١٧) Conder , C . , The Survey of eastern Palestine I . London , 1889 , P . 78 .

(١١٨) Will , E . , Op. Cit . 1980 - 81 , P . 152 .

(١١٩) Ibid , P . 152 .

(١٢٠) Ibid , P . 152 .

(١٢١) نيف . فرانسوا . « عراق الأمير » الهيئة المشاركة الفرنسية للآثار ، المعهد الفرنسي للآثار في الشرق الأدنى ، عمان ، ١٩٨٤ ، ص ٩ .

(١٢٢) Dentzer , J . , Villeneuve , F . and Larche , F . , " The Monumental Gateway and the princely Estate of Araq el - Emir " , The Excavations at Araq el-Emir , Vol . 1 , AASOR , 47-48 , 1980 , PP . 132-146 .

(١٢٣) Ibid , P . 137 .

(١٢٤) Ibid , P . 138 .

(١٢٥) Ibid , PP . 147 - 148 .

(١٢٦) Groot , J . , " Wall Decoration " , The Excavations at Araq el-Emir , vol. I, AASOR , 47 - 48 , 1980 , PP . 76 - 77 .

(١٢٧) Dentzer , J . , Op , Cit . 1980- 81 p . 147 .

(١٢٨) Pritchard , J . , Op , Cit . 1985 , P . 69 .

(١٢٩) Ibid , p . 69 .

(١٣٠) Ibid , p . 70 .

(١٣١) Ibid , P . 70 .

(١٣٢) Ibid , p . 71 .

(١٣٣) Smith , R . H . McNicoll , A . W . and Hennessy , J . B , " The 1981 Season at Pella of the Decapolis " , BASOR , 243 , 1983 , p . 71 .

(١٣٤) Ibid , p . 7 - 8 .

(١٣٥) Ibid , p . 8 .

(١٣٦) Smith , R . H . , Op. Cit , 1983 , p . 71 .

(١٣٧) Ibid , pp . 71 - 72 .

(١٣٨) Ibid , p . 71 .

(١٣٩) Ibid , p . 71 - 73 .

(١٤٠) Ibid , p . 73 - 74 .

(١٤١) Al - Muheisen , Z . , "L'archeologie de la periode Hellenistique dans le Nord de La Jordanie : problemes et perspectives " , TRANS , 8 , Paris , 1994 , pp . 29 - 34 , pls . I-V .

لمزيد من المعلومات عن هذا الموقع انظر : —

Al- Muheisen , Z . , " Yasileh , A New site in Northern jordan " , ADAJ , XXXV , Amman , 1991 , pp . 341 - 346 .

Tarrier , D. and Al-Muheisen , Z . , " La Necropole de Yasileh et les Tombeaux du Nord de la JORDANIE " , ARAM , Vol . 4 . No . 1 - 2 , 1992 , Oxford , pp . 229 - 244 .

(١٤٢) Yassine , Kh . , Op . Cit . 1983 , pp . 497 - 498 .

(١٤٣) Ibid , p . 498 .

(١٤٤) Weinberg , S . , " Tell Anafa , The Hellenistic Town " .

(١٤٥) Avi-Yonah , W . , " Mareshak (Marisa) , in Encyclopedia of Archaeological Excavations in the Holy Land , Vol . 111 , 1977 , p . 782 .

(١٤٦) Albright , W . and Kelso , J . , " Bethel in the Persian and Hellenistic periods " , The Excavations of Bethel (1934 - 60) , ASOR , XXXIX , 1968 . p . 39 .

(١٤٧) Kuhnen , H . P . , Op . Cit , 1990 , pp . 40 - 42 .

(١٤٨) Avi-Yonah , W ., Op . Cit , 1977 , p . 782 .

(١٤٩) Ibid , p . 783 .

(١٥٠) Ibid , p . 783 .

(١٥١) Ibid , p . 788

(١٥٢) Kuhnen , H . P . , Op . Cit , 1990 , p . 43 .

(١٥٣) Weinberg , S . , Op . Cit . 1971 , pp . 89 - 91 .

مختصرات أسماء المراجع والمصادر

AASOR : Annual of the American Schools of Oriental Research .
ADAJ : Annual of the Department of Antiquities of Jordan .
B . A . H : Bibliotheque Archeologique et Historique .
BASOR : Bulletin of the American Schools of Oriental Research .
PEQ : Palestine Exploration Quarterly .
QDAP : Quarterly of the Department of Antiquities of Palestine .
TRANS : Transeuphratene .

القضاة الأندلسيون والمغاربة
في بلاد الشام في عصر المماليك

الدكتور ابراهيم زعرور
قسم التاريخ - جامعة دمشق

مقدمة:

منذ اتمام عملية فتح المغرب والاندلس، قامت علاقات بينها وبين بلاد الشام على أكثر من صعيد، وقد تفاوتت هذه العلاقات من حيث أهميتها ونشاطها، فكانت ذات زخم كبير ووتيرة عالية في الميدانين الاقتصادي والثقافي؛ ففي الميدان الاقتصادي ؛ازدهرت التجارة بكل أنواعها وتفرعاتها ؛بين بلاد الشام والمغرب والاندلس، وكذلك الأمر في الميدان الزراعي والصناعي، حيث تبودلت الخبرات والعلوم والمعارف حول ذلك، فنقلت إلى الاندلس زراعات شامية ومشرقية كثيرة، مثل الحمضيات والرمان والارز والباذنجان والارضي شوكي والقطن والسكر وغيرها، كما أن عدداً من الصناعات تبودلت بين البلدين، مثال ذلك صناعة الحرير وصناعة الخزف والطواحين المائية وغيرها، حتى أن بعض هذه الصناعات نقل فيما بعد إلى أوروبة كما هومعروف.

وفي الميدان الثقافي، نشطت حركة قوية بين البلدين، ذلك لأن الاندلس والمغرب كانتا بحاجة ماسة إلى ثقافة وعلوم المشرق، وظلت هذه الحاجة قائمة حتى وقت متأخر من القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، عندما استقل المغاربة والاندلسيون، وراحوا يشقون طريقهم معتمدين على أنفسهم. وقد نجحوا في ذلك إلى حد بعيد ،وتفوقوا على المشارقة في عدد من الأمور الثقافية، وعلى الرغم من أنهم ظلوا ينظرون إلى المشرق نظرة احترام واعجاب وتقدير.

أما في الميدان السياسي، فلم يكن الامر كذلك، فقد كانت القطيعة بين البلدين شبه كاملة، باستثناء فترة قصيرة سيطر خلالها الفاطميون على المغرب العربي، وعلى الرغم من هذا الواقع المحزن، فقد كانت تتم في السر عمليات اتصال بين البلدين، هدفها السيطرة على المشرق وضمه إلى الاندلس.

ومن المقرر، أن العلاقات بين بلاد الشام والمغرب والاندلس كانت طيبة وطبيعية خلال

دراسات تاريخية ، العددان٥٣ / ٥٤ ، تموز - كانون الاول ١٩٩٥

فترة ماقبل القرن الخامس الهجري أو القرن السادس ، واستقبل المغاربة والاندلسيون في بلاد الشام على هيئة طلبة علم وتجار وزائرين خلال هذه الفترة، لتختلف الصورة خلال الفترة التالية، وتصبح بلاد الشام من أهم أقطار المشرق العربي بالنسبة للمغاربة والاندلسيين الذين قصدوها، واستقروا فيها وأصبحوا من رعاياها بلا معارضة أو قيود.

فما الذي حدث على الساحة الاندلسية والمغربية، حتى لجأت فئة من سكانها إلى المشرق، خاصة إلى بلاد الشام، وما العوامل التي شجعت على ذلك؟

للاجابة عن ذلك، يمكن القول أن ماحدث وبخاصة في الاندلس، كان بفعل عدد كبير من العوامل القاهرة، التي كان أقساها على الاطلاق ،فقدان الاندلسيين لاوطانهم ومدنهم من جراء التقدم الاسباني ،الذي سيطر على رقعة واسعة من الاندلس ؛فلم تأت سنة ٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م حتى كانت معظم معاقل العرب في الاندلس ،تحت السيطرة الاسبانية بشكل أو بآخر، الامر الذي أجبر الغالبية العظمى من العرب إلى هجر بلدانهم والتوجه إلى بلاد متعددة في المشرق والمغرب، وكانت بلاد الشام من ضمنها، وكان قدوم المغاربة والاندلسيين إليها نشيطاً ومميزاً، لانها كانت تتوافق مع أوضاعهم العامة ؛فمن الناحية السياسية ، وافقت السلطات الشامية على مقدم الاندلسيين والمغاربة، وكذلك بالنسبة للأمور الاقتصادية والطبيعية وماإلى ذلك، حتى أنه يمكن القول في هذا الصدد، أن بلاد الشام كانت البديل المناسب لكثير من الاندلسيين والمغاربة، الذين فقدوا أوطانهم أو حق الاقامة فيها لسبب أو لآخر، وقد اشتغلوا بحرية تامة في كل المجالات العامة ،دون أن يواجهوا أدنى عقبة، حتى أنهم فضلوا في أحيان كثيرة على الشاميين أنفسهم، وسنقتصر في بحثنا على العاملين الاندلسيين والمغاربة في ميدان القضاء.

١ ـ القضاء على المذهب المالكي:

لم يكن منصب القضاء على المذهب المالكي قد عرف في وقت مبكر في بلاد الشام، كما كان الحال بالنسبة لبعض المذاهب الاخرى ؛ ولعل مرد ذلك يعود إلى ندرة العاملين في هذا المذهب في الشام. وقد ظهر هذا المنصب، بعد أن بدأ الاندلسيون والمغاربة يفدون إلى الأرض الجديدة(بلاد الشام) بقصد الاستقرار والاستيطان، وكانت الغالبية العظمى من هؤلاء على المذهب المالكي ،في الفترة الأولى من وصولهم.

لكن الشيء المؤكد ،أن اعتماد قاضٍ مالكي، لم يؤخذ بصورة رسمية إلا في النصف الثاني من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي. وأول ما بوشر باعتماد هذا المنصب، كان في مدينة دمشق سنة ٦٦٤هـ/ ١٢٦٦م. ففي هذه السنة جعل بدمشق أربعة قضاة لأول مرة في تاريخها، هم القاضي الشافعي والحنفي والمالكي والحنبلي(٢) وهكذا فقد بدأت هذه العادة

بالانتشـار تباعا في بقيـة المدن الشامية الاخرى. ففـي مدينة حلـب، أول مااعتمد فيهـا قاضٍ مـالكي، كـان في سنـة ٧٤٧هـ/ ١٣٤٧م، حيـث عين لهذا المنصب شهـاب الـدين بـن أحمد الرياحي(٣).

أما بقية المدن الشامية الاخرى، فسنأتي على ذكر سنة استحداث هذا المنصب فيها، ضمن الحديث عن القضاة. لكن وقبل البدء في ترجمة الاندلسيين المغاربة، الذين شغلوا منصب قاضي القضاة في بلاد الشام، فان من الجدير التنـويه ببعض الملاحظات الهامة في هذا المجال، تتجلى احداها ،بأنه خلال فترة حكم الزنكيين والايوبيين، لم يكن هناك مايسمى بالقاضي المالكي، كما ذكرت قبـل قليل، ولايستبعـد أن يكون سبـب ذلك قد عـاد إلى أن الجالية الانـدلسية، كـانت ماتزال قليلة العدد، وبالتالي لم يشتهر أمرهـم، وذلك إذا ماقورنوا بالفترة التي تلت، وهي فترة حكم المماليـك، التي شهـدت هجرة أنـدلسية مغـربية كثيفـة إلى بلاد الشـام، بفعل الاحـداث والكوارث المؤثرة، التي نزلت بالعرب في الجناح الغـربي من الدولة العربية الاسلامية. ويمكن طرح سـؤال مفاده، كيف كـان الاندلسيون والمغـاربة يحلّون مشـاكلهم الخاصة والعـامة؟ فـالقول بـأنهم كـانوا يلجـأون إلى قضاة المذاهـب الأخـرى، قول لايخلـو مـن الصحة أبـداً، باعتبارهم مسلمين، لكن ربما كان ذلك عند حـدوث مشاكل تمس الحياة العامة، بحيث لايمكن لاحد الفصل فيها إلا القاضي. أما في المسائل العاديـة، كالفتوى والامور الفقهية الاخرى، فربما كان الانـدلسيون والمغاربـة يلجأون إلى حلهـا عن طريـق الاكابر منهـم والمعهود لهم بـالعلم والمعرفة، وبخاصة الذين تسّموا بـ(شيخ المالكية).

الملاحظة الاخرى التي يمكن الاشارة إليها حول هـذا الموضوع، تتلخص بالقول، ان الذين تـولوا هـذا المنصب الهام، لم يكـونوا متسـاويـن في ا لكفاءة والاهليـة، انما حدث في كثير مـن الاوقات، أن تسلمّه كثيرون منهم، مع أنهم كانوا يفتقرون إلى أدنى الشروط التي يجب توفرها، بمن يتصدى لهذه المهمة الصعبة.

وقد شغل الحكام دوراً رئيسـاً في هذا المجال تمشيـاً مع الظروف السائدة، فكانوا يصيبون أحيانـاً ويخطئون أحيـانا أخـرى. ومهما يكن مـن أمر، فـإنه لم يكـن هناك قـواعد ثـابتة أو بالاحرى شروط معينـة ومتبّعة يجب أن تتوفر بـالمرشح لهذا المنصب، وان كان مـن الملاحظ، أنه من الواجب تـوفر المعرفة المعمقة والواسعة بالشريعة الاسلاميـة، وبمذهبه بشكل خاص، الأمر الذي لم يتـوفر بكل الذيـن تسلموا القضاء في الشام، فتبـاينوا من حيث الأهليّـة العلمية والسلوكية الاخلاقية، وانقسموا من هذه الناحية إلى فريقين : الفريق الأول، توفرت برجاله كل الشروط الواجب تـوفرها بالقـاضي من علم وأخلاق، وإن كـان الامر لايخلو من بعـض حالات شاذة ،فكـان أفراده أمثلة صـالحة، عملوا من خلال منـاصبهم القضـائيـة على تحري الاحكام العـادلة المنصفـة وتطبيقها دون خـوف ولاحرج. كما بـرهنوا مـن جهة أخـرى، على احترام منصـب القضـاء وجعلـه مستقلا عـن ارادة الحكام ومشيئتهـم، يحدوهم في ذلـك، معرفتهـم

الشرعية العالية في المذهب المالكي. وتشاء الظروف، أن يكون أول قاضٍ مالكي في بلاد الشام من هذه الفئة، والذي تمثل بزين الدين محمدعبد السلام بن علي بن عمر الزواوي المالكي، المولود بمدية بجاية سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م أو التي قبلها. قدم مصر سنة ٦١٥هـ/ ١٢١٩م حيث درس علم القراءات وغيرها ، ومن مدينة الاسكندرية انتقل إلى الشام، فاستقر بمدينة دمشق سنة٦١٦هـ/ ١٢٢٠م، وتصدر مشيخة التدريس بتربة أم الصالح بالصالحية، وبالجامع الأموي الكبير، وعندما استحدثت مناصب القضاة الاربعة بدمشق، أكره على تسلم منصب قاضي قضاة المالكية، فظل يقوم بهذه الوظيفة على مضض فترة تسع سنوات متتالية، بدءاً من سنة ٦٦٤هـ/ ١٢٦٦م. عاد بعدها إلى مهنة التدريس، حتى وافته المنية سنة ٦٨١هـ/ ١٢٨٣م(٤) ودفن في مقابر الباب الصغير، وكانت جنازته حافلة، شارك في تشييعه نائب الشام نفسه. ويقول ابن قاضي شهبة، ان قبره مقصود بالزيارة، وهذا دليل ثقة الناس به لمكانته الكبيرة؛(٥) ويعد الزواوي هذا من الشخصيات النادرة والفريدة تقريباً ممن تسلم قضاء الشام من المالكية، لرفضه تقاضي أي راتب لقاء عمله كقاضي قضاة المالكية(٦). واذا كان عبد السلام هذا رفض تسلم منصب قاضي القضاة في البداية، فان ابن عمه جمال الدين يوسف بن عبد الله بن عمر أبو يعقوب الزواوي، كان على العكس تماما. فقد بذل جهداً كبيراً في حياة عبد السلام، كي يحل محله، ذلك انه كان يعمل نائباً له في القضاء. وتحققت ارادة جمال الدين هذا، بان اسفرت جهوده عن الفوز بمنصب قاضي قضاة مدينة دمشق على المذهب المالكي، حتى وافته المنية وهو بطريق الحج سنة ٦٨٤هـ/ ١٢٨٦م (٧). وتتالت الشخصيات القضائية من آل الزواوي بدمشق، حيث خلف القاضي متقدم الذكر قاض آخر، هو محمد بن سليمان، الملقب بجمال الدين أيضاً. ولد سنة ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م. قدم الاسكندرية ودرس على بعض علمائها، لينتقل بعد ذلك مابين القاهرة ومدينتي الشرقية والغربية، يعمل نائباً لقاضي المالكية، حين عين قاضي قضاة القاهرة فترة لابأس بها. ولظروف غير معروفة على وجه الدقة، غادر مصر قاصداً مدينة دمشق، وفيها تسلم منصب قاضي قضاتها منذ سنة ٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م. وقد ضرب رقما قياسياً في ا لفترة الزمنية التي أمضاها في القضاء، فوصلت إلى نحو ثلاثين سنة، قضاها دون كلل ولاملل. وقد عرف بصراحته وصلابته، لايتراجع عن قراراته واحكامه.

وفي آخر أيامه ،اعتراه مرض اقعده الفراش ومنعه عن الكلام فقام بعزل نفسه قبل وفاته بأيام قليلة من سنة ٧١٧هـ/ ١٣١٨م بدمشق، ودفن بمقابر الباب الصغير، وكانت جنازته حافلة ،شارك فيها العامة والخاصة(٨) ولاأدل على مكانته المرموقة، من أن غالبية الذين ترجموا له وصفوه بالاستقامة والعدل وانفرد عن كل أفراد هذه الفئة، بأن اقدم على تجديد عمارة مدرستين في مدينة دمشق،هما المدرسة الصمصامية والمدرسة النورية.

وكما ذكرنا في مستهل هذا البحث، أنه بعد استحداث منصب قاضي المالكية بدمشق سنة

٦٦٤هـ/ ١٢٦٦م، بدأت هذه العادة، تعتمد في المدن الشامية الاخرى . وكانت مدينة حلب هي أول المدن الشامية بعد دمشق، التي استحدث فيها هذا المنصب في سنة ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م (٩)، فكان أول قاضٍ مالكي في مدينة حلب، من الذين امتثلوا الاستقامة والعفة، وتحلوا بحسن الاخلاق، ولين العريكة، ونشدان الحق في جميع احكامه ،هو أحمد بن عبد الظاهر بن محمد الدميري المالكي ،الملقب بصدر الدين ،ولي القضاء بحلب بعد عزل شهاب الدين الرياحي فترة من الزمن، وقبل وصوله إلى حلب كان يعمل نائباً للقاضي المالكي بمصر، وظل في قضاء المالكية بحلب سبع سنوات متتالية من سنة٧٦٣هـ/ ١٣٦٢م حتى نهاية ٧٦٩هـ/ ١٣٦٨م(١٠).

أما النموذج الآخر من هؤلاء القضاة، فقد تمثل بشخص ابراهيم بن عبد الله ابن عمر الصنهاجي المالكي، وهو يختلف عن الذين مر ذكرهم حتى الآن، بأنه من مواليد مدينة دمشق سنة ٧١٧هـ/ ١٣١٨ أو ٧١٨هـ/ ١٣١٩م، وفيها نشأ وتلقى علومه على علماء، معظمهم من الاندلسيين.

وكان من ا لحافظين لموطأ الامام مالك. ويبدو أنه كان من الشخصيات المالكية المعروفة بدمشق، ودليل ذلك أنه كلف بتوقيع رسمي سنة٧٨٣هـ/ ١٣٨٢م لان يتسلم منصب قاضي قضاة دمشق على المذهب المالكي، فلم يقبل. وحدث أن تكرر تكليفه في سنة ٧٨٨هـ/ ١٣٨٦م فامتنع أيضاً ؛ وعلى الرغم من حالة الرفض هذه، فقد بقي الحكّام يلحون عليه، حتى وافق بتسلم قاضي قضاة المالكية بدمشق لمدة ثلاث سنوات ؛توفي بمدينة دمشق على حين غرة سنة ٧٩٦هـ/ ١٣٩٤م ،حيث دفن بالمزة(١١).

ومن هؤلاء القضاة من تنقل في أكثر من مدينة شامية، كقاض لقضاة المالكية، وكنائب له. كان منهم القاضي ابراهيم بن محمد بن على التادلي، المدعو أبو سالم، الذي تنقل بين دمشق وحلب.ويختلف عن القضاة متقدمي الذكر، أنه تكرر عزله واعادته بشكل لافت للنظر. فقد ولي قضاء حلب أول مرة سنة ٧٧١هـ/ ١٣٧٠م ،كقاضي قضاة، علما بأنه كان ينوب عن القاضي فيها قبل هذه السنة. وتكرر عزله واعادته خلال الفترة التي تلت هذا التاريخ. ففي سنة ٧٧٧هـ/ ١٣٧٦م ، استقر في قضاء حلب عوضاً عن ناصر الدين أبو عبد الله محمد بن سرى الدين المعروف بابن هانىء الاندلسي، (١٢) ثم انتقل في السنة التي تلت إلى مدينة دمشق وتسلم قضاءها عوضاً عن زين الدين أبي بكر المازوني، لكنه لم يستقر سوى فترة قصيرة عزل بعدها عن القضاء، وحل محله علم الدين أبو عبد الله محمد بن ناصر الدين القفصي، الذي بقي حتى سنة ٧٨٠هـ/ ١٣٧٩م ،ثم عزل وأعيد مرات عديدة.

وهكذا، فان الفترة التي أمضاها في القضاء في كل من حلب ودمشق، بلغت بمجموعها نحو ثلاثة عشر عاما ونصف العام. وكان خلال هذه الفترة نموذجاً للقضاة ، الذين توفرت فيهم القوة والتصميم والجد في العمل، اضافة إلى الشجاعة والجرأة في اصدار الاحكام، وامتثال

العدالـة والمساواة بين الناس. ويظهـر هذا بشكل مـؤكد ،من خـلال قصيدة أرسلها إليـه أحد أعيان حلب المعروف بـالبدر أبي محمد بن حبيب، عندما كان يستعـد لمغادرة حلب إلى دمشق. يقول مخاطباً القاضي المذكور:

سر إلى جنة الشام دمشق
حاكماً عادلاً رفيع المقام
رامت القرب منك فادخل إليها
ياأبا سالم بأذكى سلام

توفي بدمشق سنة ٨٠٣هـ/ ١٤٠١م وهو قاض(١٣).

أيضاً وفي مـدينة دمشـق، يمكن أن نضع قـاضيين اثنين ضمن هـذه الفئة، تبـاينت فترات استلامهما لمنصـب القضاء، هما القاضي يحيـى المعروف بمحي الـدين المغربي، المتـوفي سنة ٨٤٢هـ/ ١٤٣٩م (١٤)، والقـاضي يعقوب بـن يوسف المعـروف بالشرف القـرشي المغربي، الـذي عزل وأعيد إلى القضـاء منذ سنـة ٨٤٢هـ/ ١٤٣٩ حتى وفـاتـه في سنة ٨٥٧هـ/ ١٤٥٤م. وقد ذكر السخاوي في كتابه (الضوء اللامـع) أنه كان يعرفه جيداً، واطلع على بعض احكامه في سنة ٨٥٦هـ/ ١٤٥٣م(١٥).

وعلى الرغم من أهمية بيت المقدس، فـان منصب قاضي المالكية ظل دون استحداث إلى فترة متـأخـرة إلى حـد مـا. ومـن المحتمـل أنـه استحـدث في السنين الاخيرة مـن القـرن الثـامـن الهجري/الرابع عشر الميـلادي، وذلك بالاعتماد على بعض القضاة، الذيـن شغلوا هذا المنصب فيها في الفترة الأولى.

والذين سنـذكرهم في سياق الحديـث عن الفئة الثانية مـن القضاة. أما الذيـن برهنوا على أهليتهم وصلاحيتهـم للقضاء في بيت المقدس، كانوا قـلائل جداً اذا ماقيسوا بالذيـن لم يرعوا للقضـاء حرمة .ففـي سنة ٨٤٧هـ/ ١٤٤٤م قيض الله لمدينة القدس قاضيـا مالكيا، لم تعرف مثيلاً له، منـذ أن استحدث فيها هذا المنصب، هـو عيسى بن محمد المغـربي الشحمني الملقب بشرف الديـن ابي الروح، الذي بقي على رأس منصبـه بصورة مستمرة حتى سنـة ٨٥٤هـ/ ١٤٥١م، ومـارس الحكم خـلال هذه الفترة، بكـل اخـلاص وعفة واستقـامة، لايحابي أحـداً، ولايخاف في الله لومة لائم. ويدعمه في ذلك قوة شخصيته وصلابة مواقفه، وعدم التراجع عنها، اضافة إلى علمه ومعرفته بشؤون المذهب المالكي والشريعة الاسلامية.

ومن مواقفه الرائعة ،ماحدث له مع نـائب القدس مبارك شاه، الذي كان قد قرّر قتل أربعة من الفلاحين، وكلّفه بشنقهم بتهمة السرقة واللصوصيـة، فسأله القاضي المذكور عما اذا كانت السرقة قد ثبتت عليهم بطـريقة شرعية؟ فأجابه النائب نحن لانحتاج إلى اثبـات شرعي. فأجابه لايمكن تنفيذ مأمرت، إلا بعد أت تثبت الادانة، لكن النائب شدّد من تصلبه والح على قتلهم.

فأجابه القاضي بقوله:«والله لوقتلتهم بحضوري، لكنت أقتلك بيدي، وأعلقك إلى جانبهم كما

أنت بخلعة السلطان»فتراجع النائب عن اصراره». (١٦).

ويبدو أن عدد الجالية الاندلسية المغربية تكاثرت في مدن فلسطين الكبرى إلى حد دفع إلى نشوء منصب القضاء فيها، وهكذا ظهر في الرملة أواسط القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي، وتولاه محمد بن سعيد المغراوي المالكي الملقب بشمس الدين. ولد سنة ٨٠٧هـ/ ١٤٠٥م، وحفظ القرآن الكريم، واستطاع أن يتوصل إلى مرتبة قاضي القضاة في هذه المدينة، وبقي فيها فترة طويلة من الزمن انتقل بعدها إلى مدينة بيت المقدس في سنة ٨٥٤هـ/ ١٤٥١م ،وتسلم قضاءها بعد وفاة قاضيها النـزيه عيسى بن محمد المغربي الشحمني الآنف الذكر. ومنذ ذلك الحين استقر بالقدس الشريف، يتولى قضاءها حينا ويعزل حيناً آخر، حتى وافته المنية سنة ٨٧٣هـ/ ١٤٦٩م وهو قاضيها(١٧).

ومن هؤلاء القضاة، من تنقل بين كل من دمشق وبيت المقدس. كسالم بن ابراهيم المغربي الصنهاجي، الملقب بأمين الدين المالكي. ولد بعد سنة ٧٧٠هـ/ ١٣٦٩م ودرس الفقه وعلوم الدين في بلاده، ووصف بأنه من أهل العلم والفضل. وقد أسر سنة ٨٣٤هـ/ ١٤٣١م عندما كان في طريقه إلى الشام، وظل في الأسر مدة طويلة، قصد بعدها مدينة دمشق، ليتحول بعد قليل إلى بيت المقدس، حيث شغل منصب قاضي القضاة سنة ٨٤٥هـ/ ١٤٤٢م. وبعد فترة قصيرة، أعيد إلى دمشق مرة أخرى، وتسلم قضاءها، ولكن المدة التي أمضاها في هذا المنصب غير معروفة على وجه التحديد، وان كان من الثابت، انه لم يغادر دمشق بعد ذلك، وتوفي سنة ٨٧٣هـ/ ١٤٦٩م.

وقد برهن خلال ممارسته القضاء، على عفة نفسه واستقامة احكامه ونزاهتها(١٨).

وبعد ظهور هذا المنصب بمدينة الخليل، كان أول من تسلمه فيها القاضي حميد الدين محمد بدر الدين المعروف بابن المغربي، وقد اشتهر بأنه كان من حفظة القرآن الكريم، وعارفاً بالروايات، الأمر الذي ساعده، لان يتولى قضاء عدة مدن شامية اضافة إلى الخليل، الذي تسلمه فيها لاول مرة سنة ٨٧٤هـ/ ١٤٧٠م، نقل خلالها إلى قضاء مدينة بيت المقدس، دون أن يتخلى عن قضاء الخليل، وهو أول قاضٍ من الاندلسيين المغاربة، جمع بين قضاء مدينتين في وقت واحد. لكن مدته لم تدم وقتاً طويلاً في هاتين المدينتين، فقد عزل في أواخر السنة المذكورة عن قضائهما نهائياً، وتوجه إلى القاهرة ، ومنها أرسل إلى طرابلس الشام، حيث ولي قضاءها. وتوفي سنة ٨٧٨هـ/ ١٤٧٤م(١٩).

وربما كان آخر القضاة الاندلسيين في مدينة بيت المقدس، العلامة الغرناطي شمس الدين محمد بن على الازرق المغربي المالكي، الذي اختلف عن جميع القضاة الاندلسيين في الشام في ناحية واحدة، تجلت بأنه كان قاضيا للجماعة في كل من مالقة وغرناطة بجنوب الاندلس، قبل أن يأتي إلى الشام. وقد اشتهر عنه التبحر في العلم وحسن المنظر ووقار الهيئة. خرج من غرناطة ، على أثر سقوطها بيد فرناندو وايزابيلا، خرج منها يستنفر حكام المسلمين، فتوجّه

إلى المغرب وطلب من ملوكها نجدة بلاده، ولكن محاولته هذه باءت بالاخفاق، فتوجّه إلى مصر، حيث التقى بالسلطان الاشرف قايتباي وكان منشغلا بمحادثة الاتراك، فحج و جاور ريثما انتهى، وطلب منه نصرة المسلمين في غرناطة، لكن الثابت أيضاً أن هذا الطلب لم يسفر عن نتيجة ايجابية كما حصل في المغرب. عند ذلك آثر البقاء في المشرق، وطلب من السلطان المذكور تأمين عمل له، فولاه قضاء المالكية ببيت المقدس بدلا من القاضي محمد ما زن الغزي، وباشر عمله في ا لسادس من شوال سنة٨٩٦هـ/ ١٤٩١م وظل فيه حتى السابع عشر من ذي الحجة من السنة نفسها. وبذلك تكون ولايته، أقصر ولاية أمضاها أندلسي مغربي في منصب القضاء، بحيث لم يتجاوز واحدا وستين يوما، توفي بعدها بمرض مفاجيء ألم به، ودفن بماملا ببيت المقدس. وقد كان مثال العفة والنزاهة(٢٠).

ولم يكن كل هؤلاء القضاة بالمستوى نفسه من العلم والمعرفة في شؤون الدين، وبخاصة على المذهب المالكي، فقد حدث أن توصل بعضهم إلى هذا المنصب، على الرغم من قلة علمه ومعرفته، التى غطت عليهما سمعته الطيبة وسلوكه القويم. مثال هؤلاء، مثل القاضي المالكي أحمد بن محمد المريني المغربي، الذي حل بدمشق في الفترة التي تلت سنة ٨٦٠هـ/ ١٤٥٦م واشتغل باديء الامر في البيمارستان النوري كإداري على أغلب الظن، فظهرت أمانته وشدة تعلقه بالدين، الامر الذي حدا بالمسؤولين لانتدابه للعمل كنائب لقاضي قضاة المالكية شهاب الدين التلمساني منذ سنة ٨٧٩هـ/ ١٤٧٥م ، واستمر حتى سنة ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م ثم عزل. وفي سنة ٨٩٠هـ ١٤٨٥/م ، ولي قاضي قضاة المالكية بدمشق، وبقي بشكل مستمر دون عزل حتى وافته المنية سنة ٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م ودفن بمقبرة الباب الصغير بدمشق(٢١).

أما الفريق الثاني من هؤلاء القضاة، فكان على النقيض تماما من الفريق الاول. فقد افتقر أفراده في كثير من الاحيان إلى الاهلية الشرعية والسلوكية الاخلاقية على حد سواء. فعمل بعضهم أوبالاحرى معظمهم بتأثير مصالحهم الشخصية البحتة. فأسأؤوا لهذا المنصب الجليل، بالتهافت على الرشاوي والتلاعب في الاحكام، دون وازع من ضمير ولارادع من شرع أو دين.

والشيء الذي يظهر بوضوح ان هذا الفريق من القضاة، كان أكثر من حيث العدد من الفريق الأول. وهذا أمر طبيعي جدا ، يتجلى أثره من خلال سيرة القضاة ا لمذكورين آنفاً، حيث أن الاقطاب منهم، لم يتسلموا القضاء الا بالقسر والاجبار، لانهم يعرفون أكثر من غيرهم حساسية هذا المنصب وخطورته، وهو الذي يوجب على صاحبه أن يكون من المتحرين للعدالة والانصاف في كل أحكامه وتصرفاته القضائية، وبالتالي يوجب الابتعاد عن كل مايسيء لهذا المنصب، من تقبل الاغراءات والرشاوى وغير ذلك من أوجه استغلاله للصالح الشخصي المحض، الامر الذي ظهر واضحاً عند الكثيرين من أفراد ا لفريق الثاني، الذين سآتي على ذكرهم تباعاً. فأول هؤلاء القضاة، كان عمربن سعيد التلمساني، الذي خلف القاضي أحمد بن

ياسين بن محمد الرياحي بمدينة حلب، والذي بقي فترة أربع سنوات متتالية ابتداء من سنة ٨٥٢هـ/ ١٤٤٩م وهو مثال للقاضي الجاهل في أمور الشريعة والدين والقضاء، مما أثار تعجب وحيرة أهل حلب، عندما أصبح قاضيا، بعد سعي طويل لدى السلطان في مصر(٢٢).

ومن سجلماسة بالمغرب الغربي، وصل إلى حلب عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن المعروف بابن الحفيد المالكي. ولدسنة ٧١٢هـ/ ١٣١٢م ،قدم من بلاده فأدى فريضة الحج، وتابع إلى مصر فحل بالقاهرة مدة، تابع بعدها إلى بلاد الشام، فدخل مدينة حلب، حيث اشتغل بالتجارة التي أجبرته على التنقل بين بغداد والقاهرة، ومكث فترة من الزمن، ليعود مرة أخرى إلى حلب، حيث استطاع أن يصل إلى منصب قاضي القضاة المالكية لفترة لابأس بها، كان آخرها سنة ٧٨٧هـ/ ١٣٨٥م حيث عزل وحل محله، القاضي جمال الدين النحريري. وهو نموذج للقاضي الجاهل، وهذا ماحدا بالبعض لان يقول عنه:«أن كلامه أكثر من علمه» وقد امتزجت قلة العلم عنده وضحالته بما هو أقسى من حدة الخلق وعدم اللين والروية واحتقاره للناس، حيث كان لايقيم قدراً لاحد(٢٣). بينما وصفه البعض الآخر، بأنه كان راويا للحديث، وله معرفة ضليعة بمذهب مالك، أصوله وفروعه، اضافة إلى معرفة جيدة ببعض العلوم الاخرى (٢٤). وبعد عزله عن قضاء المالكية بحلب سنة ٧٨٧هـ/ ١٣٨٥م، توجه إلى دمشق، ومنها إلى غزة ثم إلى بيت المقدس، حيث توفي سنة ٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م (٢٥).

أما القاضي المالكي محمد بن يحيى بن سليمان المغربي، الملقب بجمال الدين، فانه لم يعرف الاستقرار، فقد تنقل بين كل من حماه وطرابلس ودمشق، وعرف بتضلعه ببعض العلوم العقلية، وعدم معرفته بالعلوم الشرعية، وخاصة على المذهب المالكي، وعلى الرغم من ذلك، فانه استطاع ان يتسلم منصب قاضي القضاة المالكية في مدينة حماه لفترة قصيرة عزل بعدها، فتوجه إلى دمشق واتصل بحاكمها طالباً منه أن يوليه قضاءها فأجيب طلبه هذا، وتصدر لقضاء المالكية، لكن طريقته لم تكن مقبولة، حيث تصدى لايذاء الناس واطلاق لسانه في الاكابر والاعيان. يضاف إلى ذلك، أنه برهن في مناسبات عديدة على عدم اتزانه العقلي، وفجوره وفسقه وقلة دينه، الامر الذي يتنافى بشدة مع مركز القضاء، فحكم عليه بالعزل من منصبه كقاض غير صالح فذهب إلى مصر، وتوسط لدى السلطان، لكنه لم ينجح، ونفاه إلى الشام سنة ٧٩٤هـ/ ١٣٩٢م ، فتوفي بالرملة في السنة التالية (٢٦).

وقد تمثلت صورة الجهل المطبق وعدم السلوكية الاخلاقية في قاض آخر هو محمد بن محمد الدمشقي المالكي الملقب بعلم الدين القفصي، وهو يعد أيضاً من النماذج غير الصالحة لمنصب القضاء.

ويختلف عن رفاقه السابقين الذين هم من فئته، بأنه من مواليد مدينة دمشق، كان جده والد أبيه يسكن بدمشق منذ سنة ٧١٩هـ/ ١٣١٩م، وخلال فترة وجوده فيها عمل نائبا في القضاء.

أما والـد قاضينا علـم الدين القفصي، فقـد كان جنـديا في الجيش المملـوكي، وكذلـك الامر بالنسبة له، فانه انخرط في صفوف الجيش لفترة غير قصيرة على مايبدو، انطلاقا من كونه، لم يركز على الدراسة والتحصيل إلا بعد ا ن أصبح في سن متقدمة، بعكس معظم الذن سبقوه من القضـاة. وعلى الرغم مما عرف عنه من الجهل وعدم الاتزان العقلي وسوء الاخلاق والسيرة، فقد استطاع أن يتوصل إلى منصب قاضي القضاة في ثـلاث مدن شامية، هي حلب وحماه ودمشق، وأمضى فترة خمس وعشرين سنـة يعمل في القضـاء بالمدن المذكورة، بين معـزول عن القضـاء وشاغـل له، مثال ذلـك، أنه ولى قضـاء دمشـق احدى عشرة مـرة، وكذلك في حماه وحلـب عدة مرات. توفي وهو قاض بدمشق سنة ٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م(٢٧).

وفيما يلي نموذج آخر من القضاة المالكية، الذين عـرف عنهم الجهل وعدم الاستقامة، وهو القاضي محمـد بن اسماعيـل بن هـانيء اللخمي الغـرناطـي المالكي، ولـد بمدينـة حماه سنة ٧٤٠هـ/ ١٣٤٠م أو بعدها بقليـل. وقد كان صورة عكسية لوالده، الذي اشتهـر بالاستقامة وعدالة الاحكـام والمعرفة الشرعية الواسـعة. اشتغـل نائبا عن والده في قضـاء حماه فترة توليه هذا المنصب(٢٨). فبينما كان والده مثالا للقاضي العـادل العارف الى حد، جعل بعض من كتب عنه، يضعه في مقدمـة القضاة المالكيين الذين عملوا في هذا المجال في مختلـف مدن الشام. كان سيء السيرة غير محمود، ضيق الأفق قليل المعرفة لى درجة أساء لوالده الشيء الكثير. تنقل بين عدة مدن شامية، يعمل قاضيا لقضـاء المالكيـة، ففي مدينة حماه أصبح قاضي القضاة على أثر وفاة والده، حتـى كانت سنة ٧٧٦هـ/ ١٣٧٥م حيـث نقل إلى قضاء مدينـة حلب، وحل محل القاضي التادلي، ومنذ ذلك الحين، ظل يتنقل بين كل من حلب وحماه وطرابلس، حتى كانت سنة ٨١٦هـ/ ١٤١٤م نقل خلالها إلى دمشق وتسلم قضاءهـا، ولسوء سيرته بشكل ظاهر، أقصي عن قضاء المالكيـة بدمشق، وأرسل إلى مدينـة طرابلس في سنة ٨٤٧هـ/ ١٤١٥م، حيث بقي فيها يمارس القضـاء عدة سنين، وفيها كانت وفاته سنة ٨٢٨هـ/ ١٤٢٥ (٢٩).

ولم يكن جميع أفراد هـذه الفئة من القضاة، يفتقرون إلى الأهلية العلميـة والمعرفة بشؤون القضـاء، بـل حدث أن وجد بعضهم، لايقلـون من هذه النـاحية عن قضاة الفئـة الأولى، لكنهم خالفـوهم في أنهم لم يسيروا على منهجهـم في تطبيق معرفتهـم على صعيد القضـاء، وكان على رأس هؤلاء القـاضي أحمد بن سليمان بن عمـر بن عبد الـرحمن المعرو ف بـابن عوجـان، فقد تسلم هذا ا لقاضي مهمتـه في بيت المقدس لاول مرة سنة ٨٠٥هـ/ ١٤٠٣م ،فكـان ثاني قاضٍ مالكـي فيها(٣٠). وقـد عرف عنه الفضـل والتعمق في العلـوم الشرعية على المذهـب المالكي، واتقانه لصناعة القضـاء على أتم وجه. وهو مثال للقاضي الذي يعرف خطـر مهمته وجسامتها وتأثيرها على النـاس، ولايعمل لتحقيقها وتنفيذها. حيـث افتقر إلى السلوكية الاخـلاقية، التي تعد مـن الشروط الواجـب توفـرها، بمـن يتصدى لهذه المهمـة الصعبة. فقـد عرف عنـه حبه وتهافته على استلام الرشاوى، الامر الذي اضفى على أحكـامه صفة الظلم الباطل، مما أدى إلى

عزله عن القضاء فترةمن الزمن، لايعرف ان كانت طويلة أم قصيرة. لكن الشيء المؤكد، أنه أعيد في سنة٨٣٨هـ/ ١٤٣٥م ليخلفه بعد فترة قصيرة أحد أبنائه، الذي لم يكن بأفضل منه، بل زاد عليه سوءا بأنه كان يعتقد بأن الشمس تستحق أن يعبدها البشر(٣١). وربما استمر في منصبه هذا برغم سوء سيرته حتى سنة ٨٤٧هـ/ ١٤٤٤م وقد عرفت مدينة دمشق واحداً من هؤلاء، كان يحل محل القاضي يعقوب بن يوسف المعروف بالشرف القرشي المغربي(٣٢) في أثناء عزله عن منصب القضاء وهو شهاب الدين التلمساني، الذي كان يتولى قضاء دمشق سنة ٨٥٢هـ/ ١٤٤٩م، والذي عزل بالسنة نفسها وعين بدلا عنه القاضي أبو عبد الله البيدمري المغربي العروف بالبريكي(٣٣) واذا كان القضاة المالكيون، الذين عرفتهم الشام خلال فترة هذا البحث، قد ألفوا فريقين متباينين من حيث الاهلية العلمية والثقافية من جهة، والسلوكية الاخلاقية من جهة اخرى ،فانهم التقوا في عدة نواح ادارية محضة لايمكن الخروج عنها، وان كان الامر لايخلو من بعض الحالات ا لشاذة. فبالنسبة لتعيين القضاة، كان يأتي بتوقيع رسمي على مايبدو من السلطان المقيم في مصر، انطلاقاً من أهمية وجلالة هذا المنصب، ولكن تعيين القضاة، لم تكن كلها طبيعية، كثيراً ماشغلت الوساطات والمصالح السياسية، وبذل الرشاوى من قبل القضاة الطامعين في الحكم، شغلت دورا فاعلاً في هذا المجال.

حيث أن الحكام كثيراً ماتأثروا إلى حد كبير بمواقف وآراء المقربين منهم، فكانوا يتوسطون لدى السلطان ويستميلونه بالرشاوى المالية فيصدر أمرا بتعيين قاض عوضا عن قاض آ خر، وذلك دون النظر إلى أ خلاقه وعلمه، أو صلاحيته للقضاء كما أنه لم ينظر أو بالاحرى لم يحسب حسابا للنتائج التي ستتمخض عن مثل هذا التعيين. والامثلة كثيرة في هذا المضمار، منها ماأشار إليه صاحب كتاب(النجوم الزاهرة) عندما كان في صدد الحديث عن القاضي جمال الدين يوسف بن موسى بن محمد الملطي، الذي خلف القاضي الحنفي شمس الدين أبا عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الطرابلسي المتوفى سنة٧٩٧هـ/ ١٣٩٥م فقد ذكر أن السلطان هو الذي طلب القاضي الملطي ببريد رسمي، وعلق على ذلك بالقول:«هكذا تكون ولاية قضاة الشرع الشريف بعزةٍ وطلب واحترام، لا كمن يسعى فيها من بيت المال، والامير الكبير إلى والي القاهرة، حتى تلبى با لمال والبذل من غير تستر في ذلك، حتى انه يعرف ولايته بالبرطيل كل أحد من المسلمين حتى النصارى واليهود فلاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم) (٣٤) ويؤكد على ذلك صاحب كتاب(الدارس في تاريخ المدارس) بصورة أوضح ، إلى درجة أنه يذكر ،مقدار المبلغ الذ ي دفعه أحد القضاة ،وهو شهاب الدين التلمساني من أجل أن يعود إلى منصب القضاء في مدينة دمشق سنة٨٥٩هـ/ ١٤٥٥م ،بدلا من القاضي زين الدين عبد الرحمن ابن محمد السعيدي المغربي المالكي. وقد وصل مقدار المبلغ الذي دفعه إلى خمسمئة دينار(٣٥).

أما بخصوص الراتب الذي كان يتقاضاه صاحب المنصب ونوابه، فلايعرف عنه شيئاً.

ولم اتمكن من العثور على اشارة، تتعلق بهذا الشأن في جميع المصادر والمراجع التي اعتمدتها في هذا البحث.

وكل مايمكن قوله في هذا الصدد، أن الراتب كان متساويا لجميع القضاة دون تميز بين قاضي مدينة أو أخرى، يضاف إلى ذلك أن هذا الراتب كان مغريا إلى حد كبير، ودليل ذلك، أن كثيراً ممن توصل إلى تسلّم هذا المنصب في بلاد الشام خلال فترة هذا البحث، عرفوا بسعيهم الحثيث والمتلاحق من أجل الوصول إليه والاستئثار به، فكان من هؤلاء من عمل بالتجارة، فتركها وعمل في مجال القضاء.

أما من ناحية تسمية كبير القضاة، فإن الامر اختلف في بلاد الشام عماكان عليه بالاندلس، وان كان المضمون واحدا. ففي الوقت الذي اطلق على كبير القضاة بالاندلس تسمية(قاضي الجماعة) ،فقد اطلق عليه في الشام تسمية(قاضي القضاة). وكان يساعده عدد من الاشخاص على المذهب المالكي، لم يكن عددهم محددا في أغلب الاحيان، اطلق على كل واحد منهم تسمية(نائب القاضي المالكي). والجدير بالذكر، أن الذين تسلموا منصب قاضي قضاة المالكيه في بلاد الشام في فترة الحكم المملوكي، لم يكونوا جميعاً من أصل أندلسي مغربي، ان ماحدث في كثير من الاحيان، أن عين لهذا المنصب، قضاة مالكيون من أصل شامي أو مصري أو غير ذلك. فعلى سبيل المثال لاالحصر، يمكن أن اذكر واحداً من هؤلاء، هو القاضي المالكي بدمشق محمد بن أبي بكر الهمداني، الملقب بشرف الدين المتوفى سنة ٧٤٧هـ/ ١٣٤٧م، لكن هذا الأمر لم يكن مقبولا أو مرغوبا به على مايبدو من قبل الاندلسيين المغاربة نزلاء بلاد الشام، فكثيراً ماوقفوا موقف المعارض لهذه التصرفات، مثال ذلك ماحدث سنة ٨٧٠هـ/ ١٤٦٦م بمدينة بيت المقدس، عندما عين محمد بن احمد بن شداد المعروف بشمس الدين لقضاء المالكية فيها. حيث لم يبق سوى فترة قصيرة جدا، عزل بتأثير تعصب ومعارضة الجالية الاندلسية المغربية له(٣٧).

وقد انفرد القضاة المالكيون بكل فئاتهم عن قضاة المذاهب الاخرى، بأنهم أعطوا الحق والصلاحية التامة للمساعدة والاحسان إلى كل مالديهم من غرباء أهل مذهبهم، وبصورة خاصة أولئك الدين جاؤا من الاندلس والمغرب لكنهم غابوا من جهة أخرى عن قضاء العسكر، الذي اقتصر على قاضيين واحد من الشافعية وآخر من الحنفية(٣٩).

واذا كان هؤلاء القضاة قد تساووا على صعيد الصلاحية في اصدار الاحكام، وعلى صعيد الراتب وغير ذلك من الامور المهمة الاخرى، فإنهم اختلفوا بعض الشيء من الناحية المعنوية، بحيث كان ارفعهم مكانة في نظر الحكام والشعب، قضاة مدينة دمشق، الذين عدوا بالمرتبة الاولى، من حيث دلالة الالفاظ التي يخاطبون بها عندما توجه إليهم المكاتبات، مثال ذلك، كان يكتب:«المقر الشريف العالي المولوي القضائي الكبيري الامامي العالمي الصلاحي...»بينما كان يكتب لقاضي حلب وغيرها من المدن الشامية الاخرى:«المقر الكريم العالي المولوي القاضوي

الكبير العالمي القدوي المفيدين...»(٤٠).

ومن ناحية أخرى، فقد التقى القضاة الاندلسيون المغاربة جميعا على صعيد قضية هامة جدا تجلت بأنهم كانوا مصدر كل حكم تقريبا على الذين كانوا يتركون دينهم ويتحولون من دين إلى آخر، أو أولئك الذين كانوا يتعرضون للرسول (ص) والانبياء والصحابة بالشتم والسب وغير ذلك. فقد حدث في كثير من الاحيان، ومنذ أن اعتمد منصب قضاء المالكية في بلاد الشام، ان القضاة على المذاهب الاخرى، كانوا لايبتون في قضايا الخروج على الدين، انما كانوا يحولون المارقين إلى القاضي المالكي، لينظر في قضاياهم ويصدر بحقهم الاحكام المناسبة، انطلاقا من أن المذهب المالكي يعد من المذاهب الوحيدة تقريبا، التي لاترى غير حكم القتل والموت لكل من يخرج عن الدين الاسلامي، والذي يسمى في هذا المذهب (بالزنديق). ومثل هذا الامر الهام لابد من دراسته بشكل مستفيض في بحث مستقل.

القضاة على المذهب الشافعي:

لم يعمل الاندلسيون والمغاربة في القضاء على المذهب المالكي فحسب، انما حول بعضهم من مذهب المالكية إلى مذهب الشافعية، وعملوا قضاة على هذا المذهب، كما كان حال الكثيرين من الاندلسيين، الذين عملوا في مجالات متعددة في الشام. لكن الشيء الملفت للنظر، أن القضاة الشافعية من الاندلسيين المغاربة، كانوا قليلي العدد إذا ماقورنوا بالقضاة المالكية وربما يعودسبب ذلك بكل بساطة، إلى ان العلماء الشافعية، أو بالاحرى أصحاب المذهب الشافعي، شكلوا الاكثرية الساحقة لسكان بلاد الشام، الامر الذي جعل فرصة الوصول بالنسبة للاندلسيين المغاربة إلى منصب القضاء من الفرص الصعبة المنال في كثير من الاحيان: وان كان قد وصل بعضهم إلى تسلم هذا المنصب الهام، فإن ذلك لم يحدث الا في مدن صغيرة مع بعض استثناءات لاقيمة لها.

والذين اشتهروا بالقضاء على المذهب، كانوا من الذين ولدوا بالشام ونشأوا فيها، بحيث تتلمذوا ودرسوا الفقه الشافعي منذ سن مبكرة. مثل ذلك، مثل القاضي الشافعي سليمان بن عمر بن سالم، الذي ولد بأزرع من أعمال مدينة درعا سنة ٦٤٥هـ/ ١٢٤٨م، وقدم إلى مدينة دمشق في سن الشباب، وفيها انكبّ على الدراسة والتحصيل. فكان أهم العلوم التي ركز عليها بشكل خاص، علم الحديث، الذي سمعه عن جلة من علماء دمشق، أمثال أحمد ابن عبد الدائم، والكمال أحمد بن نعمة، ويحيى بن الصيرفي، والبرازلي وغيرهم. ويظهر أن هذا القاضي، حاز على ثقافة عالية المستوى، الامر الذي ساعده لان يتوصل إلى منصب القضاء في عدة مدن شامية، كأزرع وشيزر ودمشق، فكان أول تعيين له في هذا المنصب بمدينة دمشق سنة ٧١٠هـ/ ١٣١١م وهو في سن متقدمة سبيا، وذلك على أثر عزل القاضي الشافعي ابن جماعة. وتنقل بعد ذلك إلى تسلم قضاء شيزر وأزرع، وأمضى في كل مدينة فترة تختلف عن الاخرى، فالشيء الثابت عنه، أنه أمضى فترة طويلة في القضاء، فقد بلغ عدد سني هذه الفترة عشرين

سنة، سبع سنوات منها في دمشق، وثلاث عشرة سنة في أزرع، والباقي وهي فترة وجيزة في شيزر.

وكانت هذه السنون الطويلة كافية لتقويمه من الناحية السلوكية، التي اتبعها خلال ممارسة عمله كقاضي قضاة الشافعية. فقد وصف بالعفة والترفع عن قبول الرشاوى، وبالحزم والصرامة في تطبيق الاحكام بحسب تعاليم مذهبة التي كان يعرفها جيدا. توفي سنة ٧٥٨هـ/ ١٣٥٧م، بعد عمر دام أكثر من قرن من الزمان(٤١).

أما النموذج الآخر، الذي احتوته كتب التراجم، فلم يكن في مستواه الثقافي على المذهب الشافعي، الذي تفقه عليه بعد وصوله إلى الشام، كما أنه لم يتوصل إلى قضاء عدة مدن كسابقه.

هذا القاضي هو محمد بن أحمد القرياني نسبه إلى قريانة، التي تقع بين قفصة وبيشة بتونس. عرف في بلاد الشام(بالمغربي) وصل الشام وهو على المذهب المالكي، الذي تحول عنه الى المذهب الشافعي، املا في الوصول إلى مرتبة مناسبة تكون مصدر رزقه وعيشه على مايبدو.

فكان له ذلك، بأن توصل إلى قضاء نابلس لفترة من الزمن، لاتعرف على وجه التحديد. والنقطة التي التقى بها مع القاضي المذكور، تمثلت بمسلكه الشخصي على صعيد القضاء، فكان عفيفا، توخى في احكامه العدل والمساواة حسب مايقتضيه الشرع. ولد سنة ٧٨٠هـ/ ١٣٧٩م، اما وفاته فمختلف فيها، بعضهم يجعلها سنة ٨٥٧هـ/ ١٤٥٥م. بعضهم يجعلها في سنة ٨٦٢هـ/ ١٤٥٨م، وآخرون في سنة ٨٦٩هـ/ ١٤٦٥م وغيرهم في سنة ٨٥٤هـ/ ١٤٥١م (٤٢).

وفيما عدا هذين القاضيين، لم نعثر على ترجمة لاندلسي مغربي، عمل في هذا المجال. وبهذا لايمكن الاعتماد عليها، من أجل المقارنة بين قضاة المالكية،وقضاة الشافعية من الاندلسيين والمغاربة في بلاد الشام، سواء أكان ذلك من حيث السلوكية العامة، أو من حيث الصلاحيات الاخرى. وبالجملة فان المغاربة والاندلسيين الذي عملوا في مجال القضاء، لم يتميزوا عن غيرهم من القضاة على المذاهب الاخرى، الا في مسألة تصديهم للحكم على القضايا، التي كانت تمس بعض مسائل العقيدة الاسلامية، كالاقدام على شتم الرسول(ص) أو الصحابة، أو التعرض للقرآن الكريم أو الاستهزاء بالاسلام أو الارتداد عنه إلى غير ذلك من هذه المسائل.

ولم يكن هؤلاء القضاة، هم الذين يطالبون بالحكم على مثل هذه القضايا كما يخيل للوهلة الاولى، انما الذي كان يحدث هو أن القضاة على المذاهب الاخرى، كانوا يحولون جميع مرتكبي هذه الجرائم الى قضاة المالكية، الذين اعتادوا عدم التساهل فيها، وذلك بالاعتماد على تعاليم

المذهب المالكي نفسه، هـذه التعاليم التي يبدو على انها متشددة اذا ماقورنـت بتعاليم المذاهب الاخرى، التي كانت تقبل التوبة من صاحب الجريمة اذا أراد ذلك.

بينما قضاة المالكية لايبرئون المتهمين حتى ولو أعلنوا توبتهم وعودتهم عن جرائمهم التي اقترفوها عن قصد أو غير قصد.

حتى أن القاضي المالكـي، اذا حضر مجلسا قضائيا مشتركا بين المذاهـب على سبيل المثال، فانه كان يظهر عن غيره بتشدده في أحكامه ، دون النظر إلى أي اعتبار آخر وكثيرا ماكان رأيه هو الذي يفوز ويؤخذ به، لكن ذلك لم يكن سنة أوقاعدة يجب أن تطبق على الدوام.

يتضح لنـا من خلال هذا العـرض عمق العلاقات بين مشرق الـوطن ومغربه حيـث سادت روح التعاون والتعاضد وانتقال الخبرات والتجارب والمعارف والعلوم عبر انتقال اصحابها... ومن المقرر أنهم والحالـة هذه ينتقلون في إطار الوطن الـواحد دون حاجة للوقـوف والتوقف للتدقيـق والتفتيش عـن هوياتهم وشخصيـاتهم والأمثلة بهذا المجـال كثيرة جداً جداً... فهل يتطلع العـرب في الوطن العـربي الواحد مـن مشرق الوطـن إلى مغربه إلى تعـزيز رسالـة الامة واسهاماتها السامية في رسالة الانسانية والبشرية جمعاء.

مصادر البحث

١ـ ابن كثير«أبو الفداء الدمشقي»، البداية والنهاية ، مكتبة المعارف، بيروت بدون تاريخ.
٢ـ الصقاعي، «فضل الله»، تالي كتاب وفيات الاعيان ، تحقيق جاكلين سوبله، طبعة دمشق ١٩٧٤ .
٣ـ أبو الفداء، «اسماعيل الملك المؤيد»، المختصر في أخبار البشر.

٤ـاليونيني،«،موسى بن محمد»، ذيل مرآة الزمان ،طبعة أولى ،حيدر آباد الدكن ١٩٦١ .
٥ـ ابن الجزري«محمد بن محمد،»، غاية النهاية في طبقات القراء»، عني بنشره ج ـ برجستراير»، طبعة اولى القاهرة ١٩٣٢ .
٦ـ النعيمي ا لدمشقي«عبد القادر»، الدارس في تاريخ المدارس ، تحقيق جعفر الحسيني، طبعة دمشق ١٩٤٨ .
٧ـ ابن تغري بردي، «يوسف الاتابكي»،«النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة»، مصورة عن طبعة دار الكتب ، وزارة الثقافة والارشاد القومي بمصر، بدون تاريخ.
٨ـ ابن حجر العسقلاني«، أحمد بن علي،»الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ـ طبعة أولى ـ حيد آباد الكل ١٣٤٨هـ .
٩ـ ابن العماد الجنلي الحنبلي«عبد الحي»شذرات الذهب في أخبار من ذهب طبعة بيروت بدون تاريخ.
١٠ـ ابن قاضي شهبة،«تقي الدين أحمد»، تاريخ ابن قاضي شهبة، تحقيق عدنان درويش، دمشق ١٩٧٧م .
١١ـ المقريزي«أحمد بن علي» السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور طبعة القاهرة ١٩٧٠م
١٢ـ السخاوي«محمد بن عبد الرحمن»، الضوء اللامع لاهل القرن التاسع، طبعة بيروت بدون تاريخ.
١٣ـ الجنلي«محيي الدين»، الانس الجليل في تاريخ القدس والخليل، بدون ذكر اسم الطبعة وتاريخها .
١٤ـ ابن حجر أنباء الغمر.
١٥ـ القلقشندي«أحمد بن علي»صبحي الاعشى في صناعة الانشاء، نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية، وزارة الثقافة بمصر ١٩٦٣م

الحواشي:

١ـ تمت عملية فتـح المغرب خلال الفترة من ٢١ــ ٩٠هـ وتمت عملية فتح الاندلس خلال الفترة من ٩٠ـ ٩٢هـ.

٢ـ ابن كثير(ابو الفداء الدمشقى) ، البـداية والنهاية ،ج /١٣/ ،طبعةمكتبة المعارف بيروت بدون تا ،ص ٢٤٦ . الصقاعي، (فضل الله)، تالي كتاب وفيات الاعيان، تحقيق جاكلين سوبلة، طبعة دمشق ١٩٧٦٣ص ١٠٦ .

٣ــ أبـو الفـداء(اسماعيــل الملـك المؤيــد)، المختصر في أخبـار البشر، ج/ ٤/، دون ت ص/١٤٧/.

٤ـ الصقاعي، المصدر السابق ص ١٠٥ـ ١٠٦.

ـ المصدر السابق ص ٢٣٥ـ١٣٦

ـ اليونينـي(موسى بن محمد) ، ذيل مـرآة الزمان ،ـج/ ٤/ طبعة أولى ، حيدر آبـا د الدكن ١٩٦١ ،ص١٧٣ـ ١٧٤.

٥ــ ابن الجزري(محمـد بن محمـد) ،غايـة النهـاية في طبقـات القراء، ج١ عنـي بنشره ج برجستراير ـ طبعة أولى القاهرة ١٩٣٢ ، ص ٣٨٧.

٦ـ الصقاعي ـ المصدر السابق، ص ١٠٦.

٧ـ اليونيني، المصدر السابق، ج٤ ص ٢٣٩.

٨ـ ابـن كثير ، المصدر الســابق ، ج ١٤ص ٨٤ ـ٨٥ . النعيمـي الدمشقـي(عبد القـادر)، الدارس في تاريخ المدارس ،ج٣ ، تحقيق جعفر الحسيني، طبعة دمشق ١٩٤٨ ص ١٢ـ١٣.

٩ـ ابن تغـري بردى(يوسف الاتابكـي) ، النجوم الزاهرة في أخبــار مصر والقاهرة، ج١٠، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ،وزارة الثقافة والارشاد القومي بمصر بدون تا ،ص ١٩٠.

١٠ـ ابـن حجر العسقلاني(احمد بـن علي)، الدرر الكـامنة في أعيان المائة الثــامنة، ج١ ، طبعة أولى ، حيدر اباد الدكن ١٣٤٩هـ ، ص ١٧٢ـ١٧٣

١١ـ ابن العماد الحنبلي(عبد الحي)، شذرات الذهـب في أخبار من ذهب، ج٦ ، طبعة بيروت بدوت تـا ،ص ٣٤٥؛ ابن حجـر، الدرر الكـامنة ، ج١١ص ٣؛ ابـن قاضي شهبـه (تقي الـدين أحمد)، تاريخ ابـن قاضي شهبة، مجلد ١ ج٣، تحقيـق عدنان درويش، طبعـة دمشق ١٩٧٧، ص٥٢٤ ـ ٥٢٥.

١٢ـ المقريزي(أحمد بن علي)، السلوك لمعرفة دول الملوك ،ج٣ق١ تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، طبعة القاهرة ١٩٧٠ص ٢٥٧.

١٣ـ السخاوي(محمـد بن عبد الرحمن)، الضوء الـلامع لاهل القرن التــاسع، ج١، طبعة

بيروت بدون تا ، ص ١٥٥ـ١٥٦المقريزي المصدر السابق، ج٣ .ق ١، ص ٢٩٤ .

١٤ـ السخاوي ،المصدر السابق، ج١، ص ٣٠٧ .

١٥ـ السخاوي ، المصدر السابق، ج ١٠ ،ص ٢٨٧ .

١٦ـ الحنبلي(محيي الدين)،الانس الجليل في تاريخ القدس والخليل، ج٢، بدون ذكر اسم الطبعة ولاتاريخها ص ٥٨٥ .

١٧ـ الحنبلي ،المصدر السابق، ج٢ ،ص ٥٨٦ .

١٨ـ الحنبلي ، الانس الجليل ،ج٢ ،ص ٥٨٤ .

١٩ـ الحنبلي ،الانس الجليل ،ج٢ ،ص ٥٨٨ .

٢٠ـ الحنبلي ، المصدر السابق ،ج٢، ص ٥٩٢ .

٢١ـ النعيمي الدمشقي ،المصدر السابق، ج٢ ص ٢٣ السخاوي المصدر السابق. ج٢ص ٢١٨ـ ابن طولون(محمد) ، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ،القسم الأول، تحقيق محمد مصطفى ، طبعة مصر ١٩٦٢ ، ص ٩٥ .

٢٢ـ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣،ص ١٦٧ .

٢٣ـ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢ ،ص ٣٤٣ .

٢٤ـ تاريخ ابن قاضي شهبة، مجلد١، ص ٢٣٠ .

٢٥ـ ابن حجر،الدرر الكامنة ،ج٢ ،ص ٣٤٣، تاريخ ابن قاضي شهبة، مجلد ١ ،ص ٣٠ .

٢٦ـ ابن حجر، أنباء الغمر بأبناء الغمر ،ج١ ،طبعة أولى، حيدر آباد الدكن، ١٣٤٨هـ . ص ٢٦٤ـ٤٩٦ .

٢٧ـ ابن العماد، شذرات الذهب ،ج٧ ،ص ٥٣؛ ابن حجر، انباء الغمر ،ج٢،ص ٢٥٢تاريخ ابن قاضي شهبة ،مجلد ١ ،ص ٥٩،السخاوي ،الضوء اللامع، ج١٠،ص ١٣ .

٢٨ـ المقريزي ،السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج٣ ق١، ص ٢٥٧ .

٢٩ـ السخاوي ،الضوء اللامع، ج٧،ص ١٤٢ .

٣٠ـ لقد أمضيت وقتا طويلا في البحث عن أول قاض مالكي لبيت المقدس فلم أوفق في الحصول عليه حتى في الصق المصادر التي تؤرخ لمدينة المقدس وهو (الانس الجليل لابن الحنبلي).

٣١ـ السخاوي ،الضوء اللامع ج١ص ٣٠٧ .

٣٢ـ السخاوي ،الضوء اللامع، ج١٠،ص ٣٨٧ .

٣٣ـ السخاوي ،التبر المسبوك في ذيل الملوك ،طبعة بولاق، مصر ،١٨٩٦،ص ٢١٠ .

٣٤ـ اين تغري بردى ،النجوم الزاهرة ،ج٢ ،ص ١٥٧ـ١٥٨ .

٣٥ـ النعيمي الدمشقي ،الدارس في تاريخ المدارس، ج٢، ص ٢١ـ٢٢ .

٣٦ـ تاريخ أبي الفداء،ج٤ ،ص ١٤٧ .

٣٧ـ الحنبلي ،الانس الجليل ،ج٢، ص ٩٥ .
٣٨ـ القلقشندي(أحمد بن علي) ،صبحي الاعشى في صناعة الانشاء، ج١١، النسخة المصورة عن الطبعة الاميرية ،وزارة الثقافة بمصر ١٩٣ ص ٩٥ .
٣٩ـ القلقشندي ، صبح الاعشى، ج٤ ،ص ١٩٢ .
٤٠ـ القلقشندي ، صبح الاعشى ،ج١٢ ،ص ٢٩٠ـ٢٩١ .
٤١ـ ابن حجر،الدر ر الكامنة ، ج٢ ،ص ١٥٩، ومابعدها .
٤٢ـ ابن حجر ،انباء ا ل غمر، ج٣ ص ٥١٧ .

* * *

انتقال العلوم العربية من الشرق الى الغرب وتأثيرها في أوربا

الدكتور علي دياب
كلية الآداب - جامعة دمشق

قبل الشروع في الحديث عن انتقال العلوم العربية من الشرق إلى الغرب وتأثيرها في أوربا تجدر الاشارة الى تلك العلاقة بين الشرق والغرب أو بالأحرى إلى فهمنا لهذه العلاقة عند الحديث عن الاندلس؟ وبالتالي بيان ما كان لها من فضل في تطور العلوم وتقدمها.

إن من أبرز مايستوقف أي مطّلع على الثقافة العربية الأندلسية، ولاسيما في بداياتها الأولى، تأثر هذه الثقافة بنظيرتها الثقافة العربية المشرقية بشكل ملفت للنظر وفي مختلف مجالات الحياة، سواء السياسية أم الاجتماعية أم الفكرية بشتى فروعها العلمية والفنية، وربما كان قول ابن بسام في هذا الصدد خير شاهد على ذلك: «الا أن أهل هذا الافق، ابوا إلاَّ متابعة أهل الشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة، رجوع الحديث إلى قتادة، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب، أوطنَّ بأقصى الشام والعراق ذباب، بحثوا على هذا صنما، وتلَوْا ذلك كتاباً محكماً، وأخبارهم الباهرة، وأشعارهم السائرة، مرمى القصيَّة، ومناخ الرذية، لايعمر بها جنانٌ ولاخلد، ولايُصرَّفُ فيها لسان ولايد. فغاظني منهم ذلك، وأنفت مما هنالك، وأخذت نفسي بجمع ماوجدت من حسنات دهري، ويتتّبع محاسن أهل بلدي وعصري، غَيْرةً لهذا الافق الغريب أن تعود بدوره أهلة، وتصبح بحارة ثمادا مضمحلة، مع كثرة أدبائه، ووفور علمائه، وقديما ضيَّعوا العلم وأهله، ويارُبَّ محسن مات احسانه قبله، وليت شعري من قصر العلم على بعض الزمان، وَخَصَّ أهل المشرق بالاحسان؟»(١)

والتأمل في قول ابن بسام، يؤكد ماقلناه عن تلك العلاقة ولاسيما اذا اخذنا بعين الاعتبار، الفترة الزمنية التي جاء فيها قوله، حيث عاصر فترة اواخر القرن الخامس الهجري، وفترة لابأس بها من القرن السادس الهجري، إذ كانت وفاته عام ٥٤٢هـ(٢)

لقد كان هذا موقف ابن بسام الذي كاد كتابه الذخيرة وبعد مرور قرابة خمسة قرون على

تلك العلاقة بين المشرق والمغرب أن يكون بمثابة رد على هذه النقطة، الا وهي تأثر المغرب بالمشرق، ساعيا إلى تنبيه أهل بلاده على أن عندهم مايعتزون به، ويفاخرون غيرهم. وربما يوافق المرء ابن بسام الى حد ما، على ماذهب اليه، وخاصة عندما يكون الحديث متصلا بالفترة المتأخرة من عمر الثقافة العربية في الاندلس التي نضجت وتكاملت، وأضحت ذات سمات أندلسية خالصة. وهذا مايدفعنا الى القول: ان ابن بسام ربما كان متعصبا لمغربيته التي دفعته إلى تناسي الحقائق التاريخية. ومن الطبيعي أن يكون هناك تأثر وتأثير فتلك الديار قد وطئت بادىء ذي بدء من قبل القادمين من المشرق الذين قاموا بدورهم بنشر لغتهم ودينهم وثقافتهم العربية الاسلامية، لقد كانوا الاداة المنفذة لعملية النشر هذه، ولذا فمن الطبيعي أن يكون هذا النشر مطبوعا بالطابع المشرقي، الذي تضاءل تدريجيا فيما بعد. وهاهو الاديب الفرنسي المشهور هنري بيريز يقول وفي السياق اياه:

«يتطلع الأُمَوِيُّونَ في اسبانيا دائما نحو العباسيين في بغداد. والادب الذي تَكَوَّن في قرطبة وفي تلك القصور الصغيرة حول الحكام في المحافظات ماهو الا محاكاة».

وتقليدا لما حدث في العراق كان خلفاء قرطبة يستميلون أدباء بغداد امثال: أبي علي القالي وهو عالم لغوي أكثر من أنه شاعر، وصاعد اللغوي الشاعر الحاذق واللغوي الشجاع الذي وصلتنا اخباره حديثا. لقد قام أمير اشبيلية ابراهيم بن الحجاج بتقريب اللغوي أبو محمد العذري وإبقائه إلى جانبه وهو من الحجاز، ولكن تأثيره لم يكن أقل قوة من الذي مورس من قبل الجواري المغنيات المتدربات في الشرق، في المدينة كما في بغداد، حيث تم شراؤهن من قبل الامراء والحكام في إسبانيا، الذين كانوا يدفعون في بعض الاحيان اثمانا باهظة لانتزاعهن من بلاط بغداد»(٣)

وهنا نود الاشارة الى ماذكره المقري في نفح الطيب وهو بصدد الحديث عمن رحل من المشرق الى بلاد الاندلس.

«اعلم ان الداخلين للاندلس من المشرق قوم كثيرون لاتحصر الأعيان منهم فضلا عن غيرهم، ومنهم من اتخذها وطنا، وصيرها مسكنا، إلى ان وافته منيته، ومنهم من عاد إلى المشرق بعد ان قضيت بالأندلس منيته»(٤).

هكذا يقوم المقري باحصاء المعروف منهم إذ بلغ عددهم قرابة /٨٦/ ستة وثمانين شخصا، ومنهم عدد من النساء المشهورات.

ومما يجدر ذكره ان معظم الذين دخلوا بلاد الاندلس من المشرق لم يدخلوها للغرض نفسه الذي ذهب من أجله الاندلسيون إلى بلاد المشرق، وانما جاؤوا الاندلس كفاتحين ومبشرين، سواء منهم المقاتلون والقادة العسكريون، أم المثقفون الذين سيسند إليهم التوجيه والإرشاد، فضلا عن تعليم اللغة العربية، ونشر الدين الاسلامي في تلك الأصقاع.

وإذا مارغب المرء في عرض بعض الاسماء اللامعة على سبيل المثال لا الحصر، وذكر من

قدم من المغرب إلى المشرق، وما كان له من تأثير بشكل عام في الغرب فإنه يمكن أن يشير في مقدمة هؤلاء إلى زرياب(٥). لقد كان زرياب مولى أمير المؤمنين المهدي العباسي وكان كذلك تلميذا لاسحق الموصلي في بغداد فتلقف من أغاني استاذه وهدي إلى فهم الصناعة، وصدق العقل مع طيب الصورة، وصورة الطبع الى ماكان به اسحق نفسه، وقد غنى مرة لامير المؤمنين الرشيد:

يا أيها الملك الميمون طائره

هارون راح اليك الناس وابتكروا(٦)

وطرب له، وأعرب الرشيد لاستاذه اسحق عن رضاه واعجابه بهذا المغني الشاب وعن لومه له لعدم إعلامه بشأن هذا المغني وطلب منه رعايته والاهتمام به، ونتيجة ذلك خاف منه استاذه ودب الحسد فيه، فجاءه وصارحه تاركا له ان يختار بين أمرين اثنين:

إما أن يهجر تلك البلاد، وإما ان يموت اغتيالا وكان زرياب عارفا بقدرة استاذه فتركه وقصد بلاد الاندلس مع عائلته، لقد استقبل زرياب في قرطبة استقبالا مرضيا، وأمر له الأمير عبد الرحمن بن الحكم براتب جيد، وانزله مسكنا لابأس به وطلب إلى عماله ان يحسنوا اليه وكان ذلك سنة ست ومائتين للهجرة(٧).

بعد ان استقر المقام بزرياب في مكان إقامته الجديد، قام بزيادة اوتار عوده وترا خامسا، أحمر متوسطا فاكتسب به عوده الطف معنى واكمل فائدة، وقد اخترع ايضا مضراب العود من قوادم النسر معتاضا به عن مرهف الخشب، فَأَبْدَعَ في ذلك للطف قشر الريشة ونقائه وخفته على الاصابع، وكان زرياب ايضا عالما بالنجوم، وقد جمع الى خصاله كفنان وموسيقي كثيرا من ضروب الظرف وفنون الأدب ولطف المعاشرة، حتى اتخذه ملوك أهل الاندلس وخواصهم قدوة لهم فيما سنه من آداب، ومما أخذ عنه الأندلسيون تعليمه لهم كيف يفرقون شعرهم وسط الرأس، ويعقصونها من الخلف حتى يظهر العنق ويبدو الجبين، في حال أنهم كانوا يتركونها تُغَطِّي كل هذه الاماكن الجميلة من الانسان، وهناك الكثير من العادات التي اخذها عنه الاندلسيون ولامجال لحصرها في مثل هذه الدراسة(٨).

وخلاصة القول: إن زرياب أنشأ أول مدرسة في الأندلس لتعليم الموسيقى والغناء، وكان عماد هذه المدرسة أبناؤه وبناته وجواريه، وماتبعها من مدارس أخرى في إشبيلية وطليطلة وبلنسية وغرناطة كان استمرارا لمدرسته، ويعتبر واضع حجر الاساس في فن الموسيقى الاسباني. كما كان من نتائج مجيئه للأندلس وانتشار مستحدثاته الاجتماعية والفنية، ان شاع في المجتمع الأندلسي حب الترف والتأنق والأخذ بمتع الحياة، وقد وضع زرياب نظاما للزي يقضي بأن يلبس الابيض منذ مطلع حزيران حتى نهاية تشرين وان الربيع هو الفصل الذي تلبس فيه الناس الحرير والألبسة الخفيفة وذات الألوان المتعددة، أما في فصل الشتاء فتلبس الفراء والمعاطف المبطنة.

«وكـان النـاس يلتمسـون آراءه فيطبقـونها نصا وروحـا»(٩) كما شـاع ايضـا الشغـف بالموسيقى والتعلق بالغناء، مما ادى إلى التورط احيانـا باللهو والمجون، والذي ساعد على ذلك تحرر بعض الامراء الذيـن حكموا في تلك الفترة مثل عبد الرحمن الاوسـط، ومع نهاية فترة عبد الرحمن هذا ينتهي زرياب بانتقاله إلى العالم الآخر وذلك عام /٢٣٨/هـ(١٠).

وكان لزرياب أثـر بالغ في بعث النهضة الفنية في أوروبـا، وهناك شبه أجماع بين المؤرخين والباحثين يشير إلى ان فـن التروبا دور قـد نبع مـن أصول عـربية وأنـدلسية. ومـن الأعلام المشهورين أيضـا الذين قدمـوا الأندلس من المشرق أبـو علي القالي صاحب الأمـالي والنوادر، وكان أحفظ أهـل زمانه باللغة والشعر ونحـو البصريين، وكان يسمى بالبغدادي لـوصوله إلى الأندلس من بغداد، ويقال:

إن الناصر هو الذي استـدعاه من بغداد لولائه لهم(١١).ونذكر أيضـا من هؤلاء العلماء ابا العلاء صاعـد البغدادي(١٢) اللغوي وأصله من الموصـل، دخل قرطبة ايـام المنصور بن أبي عامر، وظـن المنصور انه سيناهض به ابـا علي القالي الوافد على بني أميـة، ولكنه لم يجد عنده مايرتضيه، وأعرض عنه أهل العلم، وكان له نوادر عديدة مع المنصور، وقد أعجب مرة بما بدر منه، واراه كتاب النـوادر لابي علي القالي، وطلب صاعـد من المنصور انه إذا أراد فبـإمكانه ان يعد كتابـا ارفع من النوادر وأجـل منه، وانه لايورد خبراً ممـا يورده أبو علي، ثم ذهـب وجلس بجامـع مدينة الـزهراء وانجز كتـابه «الفصوص» وبعـد أن اطلع عليه أدبـاء ذلك الوقـت امر المنصور بقذفه في النهر، حيث قال فيه بعض الشعراء:

قد غـاص في النـهـر كـتاب الفـصـوص
وهكـذا كـل ثـقـيل يـغـوص

فأجابه صاعد:

عـاد إلـى معدنـه، انمـا
توجـد في قعـر البحـار الفصوص(١٣)

ومن الذين دخلوا الانـدلس أيضا أبو الحسن الأنطاكي وفيه يقول أبـو الوليد ابن الفرضي: «أَدْخَلَ الانطاكي الأنـدلس علما جما، وكان بصيرا بالعربية والحساب وله حـظ من الفقه، قرأ الناس عليه، وسمعت انـا منه، وكان رأسا في القراءات لايتقدمه احد في معـرفتها في وقته، وكان مولده في انطاكية سنة ٢٩٩هـ ومات بقرطبة سنة ٣٧٧هـ رحمه الله تعالى»(١٤).

ومن الذيـن وفدوا ايضا الى الاندلس من المشرق، عبـد الملك بن عمر بن مـروان ابن الحكم الاموي، إذ فر من الشام خوفا من أعدائه، فمـر بمصر ومضى الى الاندلس فأكرمه عبد الرحمن الداخـل وولاه اشبيلية، وكان يحن دائما لـوطنه، ولاسيما انـه لم يأت الاندلـس راضيا كغيره، وإنما أتاها فـارا من خصومه في المشرق، ويـروي لنا المقري انه رأى نخلـة منفردة في اشبيلية فتذكر وطنه بالشام وقال:

يـــانخــل انــت فــريـــدة مثــلي
فـــي الارض نـــائيـــة عن الأهـــل
تبكـــــي وهـــل تبكـــــي مكممـة
عجمـــاء لـــم تجبـل على جبلـي(١٥)

ومـن الذيـن قـدموا الانـدلـس ايضا احـد الاوليـاء الصـالحين واسمـه سيـدي يوسـف الدمشقي(١٦) وهو شاذلي الطريقة، كان يأتي مـدينة وادي آش الكرة بعد الكرة لزيارة بعض معارفه، وكان من الذين اخفاهم الله لايعرف به الا من تعرف له.

كما قدم الاندلس ايضا عدد من النساء نذكـر منهن: عابدة المدنية(١٧؛ ام ولـد حبيب ابن الوليد المرواني المعروف بدحون، وكانت جارية سوداء من رقيق المدينة.

ونذكر ايضا فضل المدنية(١٨) وهي حاذقة بـالغناء كاملة الخصال، واصلها لاحدى بنات هارون الـرشيد، نشـأت وتعلمت ببغداد، ومنهـن ايضا قمـر جارية ابـراهيم حجـاج اللخمي وكانت من اهل الفصاحة والبيان والمعرفة بصوغ الالحان ولها في مولاها:

مـا فـي المغـارب من كـريـم يـرتجـــى
الا حليـف الجـود ابــراهيـم
إننـــي حللـت لـــديـه منـــزل نعمـة
كـــل المنــــازل مـــاعـداه ذميـم(١٩)

ومن النسـاء اللـواتي دخلن الأندلس ايضـا الجارية العفراء ويصفها الارقمـي انها لم تكن حسنة المظهر ولاجميلته، الا انها كانت مغنية بارعة ولها:

يـــاطـــول ليـلـــي اعـالـــج السـقما
إذ حَـــلَّ كـــلُّ الاحبـــة الحـــرمـا
مـــاكـــنــت اخشــــى فــراقكـم ابـدا
فاليـــوم امســى فراقكـــم غـــرمـا(٢٠)

وهكذا نجـد انه كـان لمجموع الوافـدين إلى ديار الأنـدلس تـأثير كبير في مختلف مجالات الحياة وقـد ظل الأنـدلسيون يحاكون أهـل المشرق في كل شيء وفي هـذا الصدد يقـول هنري بيريز:

«إن الثقافة الأدبية التي رأينـاها هكذا، بدأت في اسبانية بالشعر المشرقـي وفرضت طريقة استبـدادية على ذهـن جميع الانـدلسيين، فإذا ارادوا ان يميّـزوا اديبـاً اوشخصية مـا كانـوا يعودون مبـاشرة الى مايقابلها في ذاكـرتهم المشرقية. فالمعتضـد قورن بالخليفة العبـاسي أبو جعفر المنصـور، والمعتمد قـورن بالـواثق بـالله وذلـك بسبب حـدة ذكائه واتسـاع معرفتـه الأدبية»(٢١).

وفي هذا الاطار نفسه يقول شوقي ضيف:

«ارتبطت الاندلس في علمها وفلسفتها بالمشرق فقد كانت تستورد منه نماذجها الثقافية، تارة يذهب أهله اليه ليتعلموا على يديه، وتارة يرسل هو إليه علماءه كأبي علي القالي على سبيل المثال»(٢٢).

وفضلا عن الفنون والآداب، كانت العلوم في البداية ذات أصل مشرقي، فقد انتقلت كما ذكرنا إلى المغرب عامة والاندلس خاصة، وبغض النظر عن تقليدية هذه العلوم في البداية فقد غدت فيما بعد أصيلة واضحة السمات والهوية، وحققت في مجالات عديدة السبق، وانتقلت من هذا الموقف الجديد إلى بقية أنحاء أوروبة، وكان ماكان من صدى لإنتاج ابن حزم وابن رشد وابن سينا والفارابي وغيرهم. وربما كان من المفيد قبل أن نذكر بعض الامثلة لنماذج تم انتقال هذه العلوم عبرها، ان نشير الى تلك المكانة التي كانت تمثلها اللغة العربية في ذلك الوقت، وكيف انصرف اليها الجميع، لما تمتعت به من أهمية وعلى مختلف الصعد الفلسفية والفنية والادبية وغير ذلك، واقبال الكثيرين على تعلم هذه اللغة، وخير شاهد على ذلك هو ماقاله الفرو القرطبي (ALVARO CORDOBE) عندما خاطب ابناء الإسبان مبديا تخوفه من انتشار العربية وتحول معظم ابناء بلده إلى العربية، ويعرب عن تأسفه حيال ذلك فيقول من جملة مايقول:

«إن إخواني في الدين يجدون لذة كبرى في قراءة شعر العرب وحكاياتهم، ويقبلون على دراسة مذاهب اهل الدين والفلاسفة المسلمين، لا ليردوا عليها وينقضوها، وإنما لكي يكتسبوا من ذلك اسلوبا عربيا جميلا صحيحا. وأين تجد الآن واحدا - من غير رجال الدين — يقرأ الشروح اللاتينية التي كتبت على الأناجيل المقدسة؟ ومن سوى — رجال الدين — يعكف على دراسة كتابات الحواريين وآثار الأنبياء والرسل؟ ياللحسرة إن الموهوبين من شبان النصارى لايعرفون اليوم إلا لغة العرب وآدابها، ويؤمنون بها ويقبلون عليها في نهم. وهم ينفقون اموالا طائلة في جمع كتبها، ويصرحون في كل مكان بأن هذه الآداب جديرة بالاعجاب. فإذا حدثتهم عن الكتب النصرانية اجابوك في ازدراء بأنها غير جديرة بأن يصرفوا إليها انتباههم ياللألم لقد نسي النصارى حتى لغتهم، فلا تكاد تجد بين الألف منهم واحدا يستطيع ان يكتب إلى صاحب له كتابا سليما من الخطأ. فأما عن الكتابة في لغة العرب فإنك واجد فيهم عددا عظيما يجيدونها في أسلوب منمق، بل هم ينظمون من الشعر العربي مايفوق شعر العرب أنفسهم فنا وجمالا»(٢٣).

ودون الخوض في مناقشة مفصلة لقول الفرو يمكن القول: إن ذيوع اللغة العربية وانتشارها كان كسريان النار في الهشيم أما في المناطق التي لم تصلها اللغة العربية، أو كان من الصعوبة بمكان ان يتعلم أبناؤها هذه اللغة الجديدة فقد دفعت جودة الانتاج وسُمُوُّه الباحثين والمفكرين إلى ترجمة هذه الآثار الرائعة إلى اللغات الاخرى وكانت اللاتينية في مقدمتها بل وعلى رأسها، ومن خلال هذه الترجمات وصلت هذه الآثار إلى أنحاء المعمورة الاوروبية، قبل ان نذكر بعض الامثلة كشواهد حية على انتقال العلوم العربية وانتشارها في اوروبة، نود أن نذكر

مانقله زكريا هاشـم زكريا عن برفو (BRIFFAUT) في كتاب: «تكوين البشرية في القرن التاسع عشر»: (إن رئيس دير كلوني (CLUNY)كان يأسف أثناء إقامته بـالأندلس، لما كان يشاهد من تهافت الطلبة مـن فرنسة والمانية وانكلترة على مراكـز العلم العربية، كما يضيف بـرفو ايضا: (العلم هبـة عظيمة الشـأن جادت بها الحضارة العـربية على العـالم الحاضر) كما ويذكـر لنا السيد بلقاسـم مولود في بحثه الذي قـدمه لندوة الثقافـة العربية ـ الاسبانيـة عبر التاريخ في دمشق عام ١٩٩٠ :

(ان الاستاذ الكبيريانبيلافسكي (JAN BIELAWSKI) رئيس قسم الدراسات الاسلامية في جامعة وارسـو قد قال لهم أثناء انعقاد الملتقـى العاشر للفكر الإسلامي في عنـابة بالجزائر عام ١٩٧٦: [ان كتاب «الكليـات في الطب لابن رشد» كـان يُدّرس في جامعة كـراكوفيا -CRA) COVIمسقط رأس البـابا الحالي ـ حتى القـرن الثامن عشر]. وجـاء في مداخلة السيد بلقـاسم ايضا ان الاستاذ الـدكتور هيرمان لاي (HERMMANN LEY) الاستاذ بجامعة هـومبولدت في برلين قال لهم:

«ان نفس الكتاب كان يُـدّرس في جامعة يينا (JENA) في المانية حتى بدايـة القرن التاسع عشر» ويضيـف السيد بلقـاسـم ايضا: ان المؤرخ الاسبـاني المعـاصر الكبير خوان فيرنييـت (JUAN VERNET) يقول في كتابه الاخير: «الثقافة الاسبانية العربية في الشرق والغرب»: (إذا كان القـرن الحادي عشر الميلادي عصر علماء الفلك الكبار في الانـدلس، فالقـرن الثاني عشر أعطى هـذه الاسبقية للاطبـاء والفلاسفة ففـي كلا الميـدانين تميز ابن رشـد، بأن مؤلفـاته في الميدانين، قد كان لها مـن التأثير في العالم الغربي (اوروبا) بحيث أصبـح هذا العالم في القرن الخامس عشر، لم يعد يؤمن بأن النور يبزغ من الشرق، بـل من اسبانية (الاندلس) ولقد ذكره (الشاعر الايطالي الكبير) دانتي في ديوانه الجحيم)(٢٥) ويضيف المؤلف نفسه:

«إن ابن رشد هـو ربما الإسباني الذي كان لـه اكبر تأثير على طول التاريـخ كله على الفكر البشري»(٢٦).

هذا ويخبرنا الفيلسوف الفرنسي رنان عن ابن رشد ايضا:

«ان ابن رشد، خاصـة قد عظم في نظري، وباختصار فـالتطور العقلي الذي احرزه العلماء العـرب ظل حتـى نهاية القـرن الثاني عشر الميـلادي اعلى من مقـام العالم المسيحـي»(٢٧) ويضيف كذلـك المؤلف نفسه وهو في اطار الحديث عـن ابن رشد مجملا حديثـه عن الفلسفة الاسلامية من خلال رأيه بابن رشد: «إنـه لحق، وصحيح جدا، ان الفلسفة العربية منطلقة من أساس تقليدي قد وصلت خاصـة في القرنين الحادي عشروالثاني عشر (الميلاديين) الى اصالة حقيقية»(٢٨).

ويعلمنا رنان في مؤلفة إياه:

«وعندما قرر الملـك الفرنسي لويس الحادي عشر تنظيم التعليم الفلسفـي سنة ١٤٧٣ كان

المذهب الذي اوصى به هو مذهب ارسطو وابن رشد»(٢٩)

ونود الاشارة ايضا إلى ان ابن رشد كان أول من قال: ان بعض الامراض المعدية مثل الجدري الاسود، قد تمنح الجسم حصانة مدى الحياة. وبذلك يتجلى لنا مدى تأثير فلسفة ابن رشد، وماتركته من بصمات بيّنة، واضحة المرتسمات في الفكر الاوروبي عامة. والمثال الثاني الذي يحضرنا هنا بعد الحديث عن ابن رشد هو ابن حزم القرطبي وهو سابق لابن رشد وما كان له من دور في انتقال العلوم الى الغرب وسنقتصر في حديثنا عن ابن حزم على مثال واحد هو شيوع مؤلفه الهام في الحب /طوق الحمامة/ الذي سرت أفكاره في الحب وماهيته وأنواعه في الحياة العاطفية الأوروبية، وخير مايؤيد قولنا هنا ماذكره السيد غومس غارسيا وهو في اطار رده على الذين انكروا اثر العذرية العربية في الادب الاوروبي يقول:

«ان شعراء الإسلام، من بغداد إلى مرسية، أقاموا قرونا ثلاثة يتفننون بالحب العذري، ويحللونه، ويرسمون له المناهج، وتلك هي الحركة التي انتقلت من قرطبة إلى بروفانس (جنوب فرنسة) لتلهم البروفنسيين ماسموه (بالعلم البهيج) والتي أوحت الى جويدا جينزلي (GUINIDA GUINZELI) استاذ «دانتي» اسلوبه العذب الجميل ، ومع هذا فعندما أخرجت مطابع فلورنسة النص الاغريقي لكلام «افلاطون» رمى الناس العرب بالحسية الجافية، ومضوا من ذلك الحين يصفونهم بذلك»(٣٠) لانريد ان نسهب هنا في الرد على الذين انكروا العذرية على العرب، فتاريخ الادب العربي حافل بها لايحتاج إلى اثبات وبراهين وذلك بدءا من عنترة بن شداد ومرورا بجميل بثينة إلى ابن حزم الذي قيد الحب في طوقه، عارضا خلاصة تجربته في الحب والاشكال المتعددة له بحلوها ومرها، هذه الاشكال التي جاء الشعر البروفانسي الاوروبي وبعد قرن من الزمن ليتعرض اليها، وان ماتضمنه هذا الشعر من تمجيد للمرأة وخضوع لها ليس له أي جذور في الشعر الغنائي الاوربي الذي لم يعرف قبل القرن الثاني عشر الميلادي ولم يبق امام النقاد والمؤرخين الا ان ترد هذه الجذور الى الآدب العربي عامة والاندلسي خاصة، والتي كان يشكّل فيها غرض الغزل جوهره ومركز تطوره.

ونود ان نذكر هنا قول ستندال للتدليل على ذلك:

«يجب ان يبحث عن الحب الحقيقي ووطنه تحت خيمة الأعراب القاتمة»(٣١)

وخير مانختم به حديثنا من انتقال آثار ابن حزم الى الغرب، ماأشارت إليه د.البغدادي في تقديمها لكتاب هوسا(٣٢) ـ الذي قامت بتعريبه ـ من مقارنة بين طوق الحمامة لابن حزم ومؤلفات اخرى مثل: فن الحب لاندريه لوشابيلان، وكذلك فن الحب العفيف لاندرياس كابلانوس.

حيث ظهر هذان الكتابان في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين مع ظهور الشعر الغنائي الاوروبي في اسبانية جنوب فرنسة قبل انتقاله الى ارجاء اوروبة الغربية، مع الاشارة الى ان آراء كثيرين ممن تعرض لهم هوسافي كتابه: شعراء التروبادور ومجالس الحب مثل:

دي سانت ديـديه، ودي كابستان، وارنـودي مـاري، ولابازول وغيرهم جـاءت صدى وتكرارا بشكل أو بآخر لما تعرض له ابن حزم ونأتي بمثالين على سبيل الذكر لا الحصر مؤكدين ذلك:

المثال الاول: يقول ابن حزم في باب طي السر:

«ومن بعض صفات الحب الكتمان باللسـان، وجحود المحـب ان سئل، والتصنع بـاظهار الصبر، وربما كان سبب الكتمان ابقاء المحـب على محبوبـه، وانّ هذا لمن دلائل الـوفاء وكـرم الطبع. وفي ذلك اقول:

درى الـنـاس أنــي فــتى عـاشــق
كئيب معــنّىً ولــكــن بمــن
اذا عــايـنــوا حــالتــي ايقنــوا
وان فتشـــوا رجعــوا في الظنن

وفي كتمان السر اقول قطعة منها:

للســر عنــدي مكان لــو يحـل به
حــي إذا لاهتـدى ريــب المنــون له
أميتـه وحيــاة الســـر مِيتَتَــهُ
كمـا سرور المعنى في الهوى الوله(٣٣)

وفي المقابل يقول ارنودي ماري مخاطبا حبيبته:

«اذا تفضلت بمنحى بعض الاحسان، آه ياأعز النسـاء، فاعلمي انني سـأتحمل الموت اولى من ان ارتكب اقل خطأ بافشاء السرّ، آه انني اطلب من الله ان يقضي على أيامي في اللحظة التي ارتكب فيها خطأ خيانة سر الطافكم»(٣٤)

أما المثال الثاني: فهو عندما يقول ابن حزم في باب علامات الحب:

«ومنها بهتٌ يقـع وروعة تبدو على المحـب عند رؤية من يحب فجـأة وطلوعه بغتـة، ومنها اضطراب يبدو على المحب عند رؤية من يشبه محبوبه او عند سماع اسمه فجأة وفي ذلك اقول قطعة منها:

إذا مـا رآت عينـاي لابـس حمـرة
تقطع قلبـي حـسرة وتفـطرا
غدا لدماء الناس باللحظ سـافكـا
وضرّج منها ثوبه فتعصفرا(٣٥)

وفي المقابل يقول لـوشابيلان: (في قوانين الحب. القانون الخامـس عشر (على كل عاشق ان يمتقع لونـه بحضور حبيبته) القانون الســادس عشر: (على العاشق ان يرتعش قلبـه في حالة رؤية محبوبته فجأة)(٣٦).

يقول بالنثيا في كتـابه المشهور: [ويذكر ابن حزم صورا متعـددة للهوى العذري.. ويقول:

«إن هناك وجوها كثيرة للقنوع بالحب، منها الاطمئنان على سلامة الحبيب (وهو أمر سيرده دانتي عندما يتحدث عن سلامة بياتريس) ويذكر حينا آخر كيف يقنع المحب بتقبيل التراب الذي وطئه قدم الحبيب ويقول: «واخبرني بعض إخواني عن سليمان بن احمد الشاعر انه رأى ابن سهل الحاجب بجزيرة صقلية، وذكر أنه كان غاية في الجمال، فشاهده يوما في بعض المنتزهات ماشيا وامرأة خلفه تنظر اليه، فلما بَعُدَ اتت إلى المكان الذي قد اثر فيه مشيه فجعلت تقبله وتلثم الارض التي فيها اثر رجله» وهو أمر سيفعله فيما بعد شاعرنا المبدع ماثياس (MACIAS)](٣٧).

ونورد هنا بعض الابيات التي أنشدها ابن حزم على لسان تلك التي قبلت موطىء قدم الحبيب:

«يلومونني في موطىء خفه خطا
ولو علموا عاد الذي لام يحسد
فيا اهل ارض لاتجود سحابها
خذوا بوصاتي تستقلوا وتحمدوا
خذوا من تراب فيه موضع وطئه
واضمن ان المحل عندكم يبعد»(٣٨)

وإذا ماغادر المرء ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، فإنه يستطيع ان يذكر مالايحصى من الإسهامات العربية التي كانت وراء وجوه كثيرة من النهضة الاوروبية فقد سبق العرب إلى الكثير من الاكتشافات التي اقتبسها الاوروبيون عنهم ودانوا لهم بها.

ففي مجال العلوم والطبيعة يمكننا الاشارة إلى ماذكره د.عبد الحليم منتصر في بحث له نشر ضمن مؤلف يتحدث عن أثر العرب والإسلام في النهضة الاوروبية إذ يقول:

«ويدلنا تتبع تطور الفكر العلمي على مر العصور، كيف أثر العلماء العرب في النهضة الاوروبية، وكيف تأثر علماء اوروبة بأعمال العلماء العرب، فقد بينا مثلا اثر العرب في ابتكار نظام الترقيم والصفر والنظام العشري، وكيف نادى ابن مسكويه وابن خلدون واخوان الصفاء، بنظرية التطور قبل داروين بمئات السنين، وكيف عرف ابن النفيس الدورة الدموية الصغرى قبل هارفي بثلاثة قرون، وكيف قال الادريسي وابن جزم والخازن بالجاذبية قبل نيوتن بقرون طويلة بل كيف ربط الخازن بين الثقل والسرعة والمسافة مما جعل كثيرا من المحققين يقولون إن صاحب كتاب ميزان الحكمة أي الخازن كان يعرف هذه العلاقة التي وضعها نيوتن على هيئة قوانين ومعادلات، وكيف أجرى ابن الهيثم التجارب لقياس سرعة الضوء، وتقدير زوايا الانعكاس والانكسار وكيف قدر بنوموس محيط الأرض وكيف قاس فلكيو الغرب أبعاد الاجرام السماوية وكيف ابتكروا الآلات الفلكية، وعرفنا ان ابن ماجد الملاح العربي، كان ربان سفينة فاسكودي جاما في رحلاته الاستكشافية في أعالي البحار، وأن جابر

بن حيان هو أول مـن أسس علم الكيمياء على دعائم قوية، وخلّصه مـن التشويه والاضطراب فنقله من صورته المشوبة بالشعوذة والسحر، إلى علم له قواعده وتجاربه وأصوله، حتى قال عنه سارتون بحق، إن علماء العصر الحالي لم يقدروا أن هذه أعمال رجل عاش في القرن الثاني للهجـرة لوفـرة مـا بها من مـادة علمية صحيحـة، وشهـد له «هـو لميـارد» العالم الكيميـائي المعاصر»(٣٩) وفي مجال الطب يمكن ان نذكر بما أكده د.محمـد كامل حسين من ان العرب قد بلغوا بالتنسيق الفكري للخبرة الطبية غايته على يـد الرازي وابن سينا، وان الطب العربي كان قمة الطب الـوسيط حيث اعتمد على الطب القديـم وبلغ به ارقى مايمكـن ان يسمح به العصر، وانتقل بحكم هذا الرقي الى البلاد الغربية بجملته علما وعملا(٤٠).

ويمكن كـذلك الاشارة الى الـرازي صاحب كتـاب الحاوي وهو موسـوعة في الطب تعـالج الموضوعات الطبية من عهد ابقراط حتى عصر المؤلف. وكـذلك ابن النفيس الذي امتاز بالشكل وقوة النقـد وكان اول من اكتشـف الدورة الدمـوية واكد وجـودها. وابن زهـر الاشبيلي الذي اكتشف حشرة الجرب وهو اول مـن شخص امراض الالتهابـات الجلدية ولايمكن لاحـد ايضا ان يتجاهل ابن سينا الذي سمي بالرئيس وكـان اول من جعل الادوية حبوبا، ولبسها بالسكر ليسهل تنـاولها، وهو أول مـن لاحظ ان السرطان الموضعـي هو عبارة عـن مرض بـالسرطان للعضو، وقد اهتم بالمعالجة النفسية بالاضافة الى العلاج بالادوية.

وكـذلك ابـو القاسـم الـزهراوي الـذي ابتـدع الخياطـات الجراحية، والكثير مـن الآلات الجراحيـة واستخدام الخطـاف لاستئصـال الزوائد الانفيـة واليـه يعـود أيضا ابتـداع المرآة المهبلية.

لقد كان العرب اول من أسس الصيدليات العامة، وقد تم تأسيس أول صيدلية في عهد ابي جعفر المنصور في القرن الثامن الميلادي، وظل تأثير العرب على اوروبة في الصيدلة قائما حتى القرن التاسع عشر وكان العرب قد اكتشفوا طريقة حـديثة في التخدير، وهو التخدير الشامل، لتسهيل مهمة الطبيب وتخفيف آلام المريض، وبذلك خالفـوا الهنود والرومان واليونان، الذين كانوا يسكرون المريض لتخفيف آلامه. ولقد ابـدى العرب عبقرية خاصة في البصريات، ويعتبر هذا العلـم بحق انه علـم عربي، وقـد ساعد التقـدم في هذا العلم عنـد العرب على تقـدم في طب العيون وكانوا اول من اهتم بهذا الطب، حيث يعتبر كتاب حنين اسحق اول كتاب لطب العيون.

والخلاصة أن هناك كثيرا من المكتشفات والاختراعـات التي تنسب ظلما وخطأ الى الانكليز والفرنسيين، ولكـن التاريخ يثبـت ويؤكد أن العـرب بمؤلفاتهم العظيمـة، هم اساتـذة اوروبة الحقيقيون، وقد اخذت اوروبة عنهم كتبهم التي امتـازت على ذلك الخليط المشوش الذي تركه اليونان(٤١).

والمثال الاخير الذي نسوقـه هنا ماجاء في كتاب تزفيتان تودوروف (فتـح امريكا) ففيه ان كولـومبس قد استفاد في رحـلاته الاستكشافية مـن بعض معلومـات الفلك التي استقاهـا من

بعض العلماء العرب، فقد كان هناك اعتقـاد سائد في عصره ان الارض كروية وان لم يكن هناك من دليل يـؤكد ذلك. وقد استنـد كولومبس الى رأي الفـرغاني الفلكي العربي الـذي الف كتاب المدخل الى علـم هيئة الافـلاك المترجم إلى اللاتينيـة قبل ظهور كـولومبـس وتفكيره في رحلته بحـوالي ثلاثمائة عـام. كمايشير في كتابـه بشكـل صحيح الى حـد ما إلى طـول دائرة الارض. وعندمـا ترجم كـولومبس طـول الاميال البحريـة العربية التـي وضعها الفرغـاني إلى الأميال البحرية الايطالية، وجد انه يستطيع القيام بهذه الـرحلة. كما انه استفاد من علم الفلك العربي عندما حـوصر من قبل الهنود الحمر على ساحـل جامايكة مدة ثمانية اشـهـر، ولم ينج منها الا عندمـا لجأ الى حيلة وهـي الزعـم بانه سـوف يسرق القمر وذلـك عندمـا عرف بقـرب وقوع خسوفه(٤٢).

وهكذا نجـد ان البون شـاسع بين اسهـامنا الحضـاري وفضل السبـق الذي حققنـاه في مختلف ميادين الحياة في الوقت الذي كانـت فيه اوروبة متخلفة عن الركـب الحضاري الذي عاشته امتنا العربية والاسلامية، وفي هذا الاطار نستشهد بقول باحثة اوربية منصفة، توضح لنا الفـارق الكبير الذي كان بين اوروبة والعـالم الاسلامي عـامة والاندلسي خاصـة اذ تقول: (كان التعليـم في العالم الاسـلامي ميسرا لجميع النـاس، وكان الاطفـال من جميـع الطبقات، يقصدون المدارس الاولية، لقاء نفقـات ضئيلة جدا، وفي اسبانية المسلمة كـان التعليم مجانيا، وقد كانت توجد في قرطبة وحدها ثمانـون مدرسة لاولاد الفقراء، وبينما كانت الغالبية العظمى من المسلمين متعلمين، كانت اوروبة بين القرنين التاسع والثـاني عشر موطنا للأمية وقد بلغت نسبتها ٩٥٪ وكـان شارلمان ملك فـرنسة العظيم اميًـا ولم يحاول تعلم القراءة والكتـابة الا وهو في سـن متقدمـة. حتى رجال الـدين في الاديـرة لم تكن بينهم غير قلـة قليلة جـدا، تعرف القراءة والكتابة...؛(٤٣).

وفي ذلك يتبين لنا بشكل جليّ الإسهام الحضـاري العظيم الـذي قدمته حضـارتنا للحضارة العالميـة وهذا خلاف مـايريده اعداؤنـا ولحسن حظ العـرب والمسلمين انه وجد في الغـرب من انصف هذه الحضـارة ورد على المغرضين الذين ارادوا النيل من تراثنا وتاريخنا. ويخطرنا هنا ماذكره في السياق إياه جوزيف ماك كيب في مـؤلف هام له عن مكتشفات العرب وانجازاتهم في مختلف مجالات العلوم والصناعات والفلك والرياضيات والفيزياء والطب... فيقول:

- «إن هذه الاخبـار وان كانت مختصرة جـدا فانها كافيـة للدلالـة على ان عرب الانـدلـس هم الذين وضعوا فاتحة هذه المدنية الجديدة في أهم نواحيها»(٤٤).

وفي النهاية يمكن ان نجمل القول: ان اللقـاءات الاولى بين العرب والغرب كانت عبر المعارك العسكرية وغير العسكريـة التي شهدتها شبه الجزيرة الايبرية، ومـن ثم حصل التمازج وكان التأثـر والتأثير في مجال الثقـافة والعلـوم عامة، قـد توطـد، وقوي الاتصـال بين الطرفين عبر قرون عدة حيث لانزال نشهـد حتى يومنا آثار الحضـارة العربية بـاقية لاتمحي ولاتزول، على

الرغم من كل ماحيك من أعداء العرب للقضاء عليها، كما كان لوجود العرب هذه الفترة الطويلة في تلك الاصقاع اثر بالغ مما ادى الى تنبيه الاوروبيين وجذبهم تجاه المؤلفات العربية في العلوم كافة: الفلسفية منها والطبية والفنية والرياضية والفلكية وغيرها، متوجهين نحو العواصم العربية التي كانت تزخر بامهات الكتب لينهلوا منها، سواء بالاخذ منها مباشرة او بترجمتها إلى لغاتهم الحية. كما نود الاشارة إلى اننا إذا اردنا الاسهاب في هذا المجال، فان الحديث يطول ويستغرق مجلدات عدة، وانما نعتبر ان ماذكرناه ليس الا اشارات سريعة غايتها تسليط الضوء على هذه الجوانب كافة، ومن ثم يمكن افراد ابحاث خاصة لكل فرع من هذه العلوم، والسير معها منذ ولادتها سواء في المشرق او الأندلس ومن ثمّ انتقالها من خلال الجسر الاسباني إلى أوروبة.

اشارات :

١ ـ ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القسم الاول، المجلد الاول: ١٢ .
٢ ـ ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، ١/ ٢١٧ .
٣ ـ PE'RE'S H. LA POE'SIE ANDALOUSE EN ARABE CLASSIQUE P.40
٤ ـ المقري، نفح الطيب ٣/ ٥ .
٥ ـ اسمه: ابو الحسن علي بن نافع الملقب بزرياب وهو لقب غلب عليه ببلاده من اجل سواد لونه مع فصاحة لسانه، وحلاوة شمائله ولذا فشبه بطائر اسود غرد عندهم اسمه زرياب.
٦ ـ المقري ـ نفح الطيب ٣/ ١٢٣ .
٧ ـ المصدر السابق ـ ١/ ٣٤٤ .
٨ ـ للمزيد من التفصيل انظر المصدر السابق ـ ٣/ ١٢٢ ـ ٣٢٢ .
٩ ـ ليفي بروفنسال، حضارة العرب في الاندلس: ٥٧ .
١٠ ـ المقري ـ نفح الطيب ١/ ٣٤٧ .
١١ ـ المقري، نفح الطيب ٣/ ٧٠ ـ ٧٥ .
١٢ ـ المصدر نفسه: ٧٥ ـ ٧٨ .
١٣ ـ المصدر نفسه: ٧٨ .
١٤ ـ المصدر نفسه: ١٤٤ .
١٥ ـ المصدر نفسه: ٥٩ ـ ٦٠ .
١٦ ـ المصدر نفسه: ١٤٨ .
١٧ ـ المصدر نفسه: ١٣٩ .
١٨ ـ المصدر نفسه: ١٤٠ .
١٩ ـ المصدر نفسه: ١٤١ .
٢٠ ـ المصدر نفسه: ١٤٢ .

٢١ ـ Pérès; H. Op. cit. P. 116
٢٢ ـ شوقي ضيف ـ ابن زيدون: ٩ ـ ١٠ .
٢٣ ـ بالنثيا ـ تاريخ الفكر الاندلسي، ترجمة د. حسين مؤنس: ٤٨٥ ـ ٤٨٦ .
٢٤ ـ زكريا هاشم زكريا ـ فضل الحضارة الاسلامية العربية على العلوم، ص٣١٤ .
٢٥ ـ الثقافة العربية ـ الاسبانية عبر التاريخ، دراسات وابحاث: ١٨٢ .
٢٦ ـ المصدر نفسه.
٢٧ ـ ارنست رنان ـ ابن رشد والرشدية: ١٢ ـ ١٣ .
٢٨ ـ المصدر نفسه .
٢٩ ـ المصدر نفسه: ٢٤٥ .
٣٠ ـ غومس غارسيا ـ الشعر الاندلسي ـ ترجمة د. حسين مؤنس: ٨٢ .
٣١ ـ حيدر بامات مجابي الاسلام، ترجمة عادل زعيتر، ص٣١١ ـ ٣١٢ نقلا عن ستندال «حول الحب» باريس ١٨٨٢ .
٣٢ ـ هوسا، جاك لايت، شعراء التروبادور ومجالس الحب، انظر مقدمة الترجمة.
٣٣ ـ ابن حزم، طوق الحمامة: ٣٦ـ٣٨ .
٣٤ ـ هوسا، شعراء التروبادور ومجالس الحب: ١٠٨ .
٣٥ ـ ابن حزم، طوق الحمامة: ١٢ .
٣٦ ـ هوسا، شعراء التروبادور ومجالس الحب: ٧٥ .
٣٧ ـ بالنثيا، تاريخ الفكر الاندلسي، ترجمة د. مؤنس: ٢٣٣ .
٣٨ ـ ابن حزم، طوق الحمامة: ٩٧ .
٣٩ ـ القلماوي وآخرون: ٢٥٤ ـ ٢٥٥ .
٤٠ ـ المرجع نفسه: ٣٠٤ .
٤١ ـ حومد، أسعد، محنة العرب في الأندلس: ٤٠٢ ـ ٤٠٤ .
٤٢ ـ تودوروف، تزفيان، فتح امريكة ـ مسألة الآخر: ٢٥ ـ ٣٦ .
٤٣ ـ د. هونكه، فضل العرب على اوروبة، ترجمة د. فؤاد حسنين علي: ٢٩٧ .
٤٤ ـ ماك كيب، جوزيف، مدنية العرب في الاندلس، ترجمة د.تقي الدين الهلالي: ٥٦ .

* * *

مراجع البحث :

١ـ ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق د. احسان عباس، دار الثقافة بيروت ١٩٧٨ ـ ١٩٧٩ .

٢ـ ابن حزم القرطبي، طوق الحمامة في الألفة والألاف، تحقيق حسن كامل الصيرفي وتقديم ابراهيم الابياري، مطبعة الاستقامة، القاهرة ١٩٦٤ .

٣ـ ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، تحقيق د. شوقي ضيف، دار المعارف في مصر القاهرة ١٩٦٤ .

٤ـ ارنست رُنان، ابن رشد والرشدية، ترجمة عادل زعيتر، دار احياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٥٧ .

٥ـ بالنثيا آنخل غونثالث، تاريخ الفكر الاندلسي، ترجمة د. حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٥ .

٦ـ تودوروف، تزفيتان، فتح امريكة ـــ مسألة الآخر، ترجمة بشير السباعي، سينا للنشر، القاهرة ١٩٩٢.

٧ـــ حيدر بامات، مجابي الاسلام، ترجمة عادل زعيتر، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة ١٩٥٦.

٨ـ د. حومد أسعد، محنة العرب في الاندلس، طبعة ثانية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٨ .

٩ـ زكريا هاشم زكريا، فضل الحضارة الاسلامية العربية على العلوم، القاهرة ١٩٧٠ .

١٠ـ د. ضيف شوقي، ابن زيدون، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٣ .

١١ـ غومس غارسيا، الشعر الاندلسي، ترجمة د. حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية.

١٢ـــ القلماوي د.سهير وآخرون، أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠ .

١٣ـ ليفي بروفنسال، حضارة العرب في الاندلس، ترجمة د. ذوقان قرقوط، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، دون تاريخ.

١٤ـ المقري ـ نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب، تحقيق د. احسان عباس، دار صادر بيروت ١٩٦٨.

١٥ـ ماك كيب جوزيف، مدنية العرب في الاندلس، ترجمة د. تقي الدين الهلالي، بغداد ١٩٥٠.

١٦ـ هوسا جاك لافيت، شعراء التروبادور ومجالس الحب، ترجمة د. مريم البغدادي، دار تهامة، جدة ١٩٨١ .

١٧ـ د. هونكه سيجريد، فضل العرب على اوروبة،تعريب د. فؤاد حسين علي، دار النهضة العربية بمصر ١٩٦٤ .

١٨ـ الثقافة العربية ـــ الاسبانية عبر التاريخ، دراسات وابحاث وزارة الثقافة والارشاد القومي، دمشق ١٩٩١ .

١٩ـ PE'RE'S , H.,La POSIE andalouse en arabe classique au x SIECLE. ADRIEN - Maisonneuve. PARIS 1953 .

* * *

تاريخ الدراسات الأدبية المقارنة في سورية

الدكتور غسان بديع السيد
جامعة دمشق - كلية الاداب
قسم اللغة العربية

على الرغم من الإشكاليات الكثيرة التي أثارها ظهور الأدب المقارن كفرع مستقل من فروع المعرفة التي تتيح الدخول إلى مجاهل النصوص الأدبية، فإنه أثبت أهميته، ومازال يكسب مناطق نفوذ جديدة. ولايختلف اثنان اليوم على أهمية الأدب المقارن خاصة في عصر تقلصت فيه المسافات، وأصبح من الصعب على أي أمة أن تتقوقع على ذاتها وتكتفي بما عندها من علم وأدب وثقافة وأفكار.

ومن هنا جاء الاهتمام بدراسة التأثيرات المتبادلة بين الأمم. وعلى الرغم من أن الاهتمام بهذا الموضوع ليس حديثاً فإنه قد بلغ أوجه في النصف الثاني من القرن التاسع عشر نتيجة لعدد من العوامل المتعلقة بالأوضاع العامة السائدة في العالم حينذاك، مثل ازدهار حركات الكشف الجغرافي والرحلات إلى مناطق نائية ومجهولة من العالم، واتساع حروب الاستعمار التي ساعدت في التعرف على حضارات وثقافات ونظم جديدة(١).

وكان طبيعيا إذن أن تنشأ هذه الدراسات في أوروبة الغربية التي كانت تحاول في كل يوم كسب مناطق نفوذ جديدة. فبدأ الحديث عن القانون المقارن، والتشريع المقارن، واللغويات المقارنة، والادب المقارن.

وكل هذه العلوم المقارنة كانت تنطلق من مبدأ واحد هو التسليم بوجود علاقة بين الشعوب والمجتمعات التي يتم المقارنة بين نظمها وثقافاتها، ثم البحث بعد ذلك عن طبيعة هذه العلاقة وأوجه التأثير المتبادل.

دراسات تاريخية، العددان ٥٣ / ٥٤، تموز - كانون الاول ١٩٩٥

وما يهمنا في بحثنا هو الأدب المقارن الذي يُجْمِعُ النقادُ على أن نشأته كانت في فرنسة عندما ألقى فرانسوانويل وبعض مساعديه محاضرات في الأدب المقارن في السوربون بين عامي ١٨١٦ ــ ١٨٢٥ تركزت في معظمها على الآداب الفرنسية واللاتينية والإنكليزية والايطالية. بعد ذلك بعامين جاء من يعده النقاد رائد الأدب المقارن آبيل فيلمان الذي حاضر في جامعة السوربون صيف عام ١٨٢٧ .

ومنذ أن بدأ فيلمان محاضراته ارتسمت خطوط عامة سار عليها كثير من المقارنين الفرنسيين من أمثال فان تييغم وفرانسواغويار وغيرهم. وأول مايميز المدرسة الفرنسية هو أنها تعد العامل التاريخي شرطا ضروريا لاقامة الدراسة المقارنة. يقول فانتييغم: «الادب المقارن الحقيقي يحاول، ككل علم تاريخي، ان يشمل اكبر عدد ممكن من الوقائع المختلفة الاصل، حتى يزداد فهمه وتعليله لكل واحدة منها على حدة، فهو يوسع أسس المعرفة كيما يجد أسباب أكبر عدد ممكن من الوقائع»(٢).

ولكن هذا التعريف لم يَلْقَ الترحاب المناسب، فحاول المقارنون الفرنسيون الجدد تطوير تعريف المدرسة كما جاء في كتاب «ما الادب المقارن» الادب المقارن: وصف تحليلي، ومقارنة منهجية تفاضلية، وتفسير مركب لظواهر أدبية مختلفة بين اللغات، أو الثقافات، من خلال التاريخ والنقد والفلسفة، من أجل الوصول إلى فهم جيد للادب، بوصفه وظيفة خاصة بالعقل البشري»(٣).

وإذا كان الجيل الجديد من المقارنين الفرنسيين قد اكتفى بادخال بعض التعديلات في المفهوم الفرنسي، فإن رينيه ويليك قد نسف هذا المفهوم من أساسه في المحاضرة التي ألقاها في مؤتمر الرابطة الدولية للادب المقارن الذي عقد عام ١٩٥٨، وعنوانها «ازمة الادب المقارن».

وكانت هذه المحاضرة أساس المفهوم الامريكي في الأدب المقارن. ويقوم هذا المفهوم على أن الادب المقارن هو العلم الذي لايقتصر في دراسته للادب على إنتاج دولة معينة دون غيرها من سائر دول العالم، بل يكسر الحدود الإقليمية الضيقة ويخترقها وهو العلم الذي يدرس العلاقة بين الأدب من ناحية وبين ميادين المعرفة الأخرى. باختصار، يتصدى الادب المقارن، في المفهوم الامريكي، للمفاضلة بين التعبير الادبي وصور التعبير الاخرى.

هذا يعني أن المدرسة الامريكية ترفض مبدأ الصلات التاريخية بوصفها شرطا أساسيا للدراسة المقارنة. وبعد المدرسة الامريكية جاءت المدرسة السلافية أو الماركسية التي تطالب بدراسة العلاقات بين الآداب انطلاقا من وجهة نظر الماركسية التي تقول: إن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في مجتمع الاجتماعية والاقتصادية في مجتمع مايفرز نمطا معينا من الادب وهو مااصطلح على تسميته بالبناء الفوقي. فإذا تشابهت هذه الاوضاع في مجتمعين مختلفين أو أكثر فإن البناء الفوقي «الأدب» سيتناول موضوعات متشابهة. وهذا مايتيح لنا دراسة هذه الآداب المختلفة من باب رؤية، كيف أن مجتمعات مختلفة يجمعها الأدب تحت

ظروف اجتماعية واقتصادية متشابهة.

وبعد أن ازداد الاهتمام ببحث العلاقات بين الآداب المختلفة ونجاح هذا الفرع المعرفي الجديد في اكتساب مناطق نفوذ جديدة، بدأ العرب الاهتمام به. وعلى كل حال، العرب هم أكثر من يعرف فائدة الانفتاح الثقافي على العالم خاصة بعد مجيء الاسلام واختلاط العرب بالامم المجاورة، واطلاعهم على ما في ثقافاتهم من قيم جديدة، كما استفادت هذه الأمم مما لدى العرب فتمازجت الثقافات إلى درجة جعل من المستحيل العودة إلى أصولها. هكذا كان حال العرب مع الفرس الذين أسهموا في الثقافة العربية الإسلامية.

يقول الدكتور أحمد أمين في «ضحى الاسلام»: «فلعلك تقرّ معي في هذا، أن الادب الفارسي صبغ الأدب العربي صبغة جديدة، وربما كان أدق من ذلك أن تقول إنهما تفاعلا»(٤).

من الخطأ إذن القول إن العرب والمسلمين جميعا كانوا بمعزل عما حولهم من الثقافات، وإن أراءهم وآدابهم وعلومهم نبتت وحدها من عقول عربية من غير أن تتأثر بغيرها. ولايقلل هذا من قيمة ما تركه العرب، فالعلم ملك شائع ومنبع مباح يغترف منه الناس جميعا وليس له حدود فاصلة كالتي ترسمها السياسة الدولية. وإنما الذي يقدح في الأمة حقا أن تغمض عيونها، وتسد آذانها عما حولها من نظريات وأفكار، أو أن يدفعها التعصب الأعمى أن تنسب لنفسها ماليس لها، وتعزو إليها خلق مالم تخلق، وابتداع مالم تبتدع. وانطلاقا من هذا الفهم القائم على وحدة الثقافة الانسانية وشيوعها وعلى ضرورة الاتصال بالامم الاخرى، شارك الرواد من المقارنين العرب في مد جسور الاتصال مع الثقافات الاخرى، خاصة الاوربية منها.

لقد أتاح الاتصال المبكر بالثقافة الاوربية عن طريق البعثات العلمية والحروب الاستعمارية، الاطلاع على نمط جديد من الحياة الثقافية استوجب نظرة متفحصة مزدوجة على الذات والآخر.

ويحدد الدكتور محمد غنيمي هلال تاريخ ولادة الدراسات الأدبية المقارنة، بغزوة نابليون على مصر سنة ١٧٩٨، ولكن الدرس المقارن الحقيقي تطور في الربع الثاني من هذا القرن.

فيقول: «إذا تتبعنا محاولات نشأة الادب المقارن عندنا في الربع الثاني من هذا القرن وجدنا أن نشأته لم تكن نتيجة لحركة فكرية واتجاهات فلسفية، ومنحى علمي، ومنهج نقدي عميق»(٥).

ونلاحظ هنا أن الدكتور هلال حدد ولادة الادب المقارن في الوطن العربي في الربع الثاني من القرن العشرين، ولم تكن الدراسات المقارنة في هذه الحقبة من الأدب المقارن في شيء لان اصحابها قد أساؤوا فهم الادب المقارن ونفروا منه وشككوا في جدواه. ويربط الدكتور هلال ولادة الدراسات العربية المقارنة بالبحث الاكاديمي في الجامعات المصرية التي أوفدت عددا من الباحثين إلى أوربة عامة وإلى فرنسة خاصة للتخصص في هذا المجال. والدكتور هلال نفسه كان أحد أولئك الذين أوفدوا إلى فرنسة وتتلمذ على يدي أحد أشهر المقارنين الفرنسيين وهو

فرانسوا غويار.

والحقيقة إن الدراسات المقارنة في الوطن العربي بدأت قبل هذا التاريخ، ومن هذه الدراسات دراسة الناقد السوري قسطاكي الحمصي (١٨٥٨ ـ ١٩٤١)، «منهل الوُرّاد في علم الانتقاد». ويتألف الكتاب من ثلاثة أجزاء في تسعمئة صفحة، وبدأت طباعته في مصر سنة ١٩٠٧، وانتهت عام ١٩٣٥ .

والمهم بالنسبة لبحثنا هو الجزء الثالث من هذا الكتاب، الذي قسمه صاحبه إلى ثمانية عشر بابا، وخص الباب الاخير بالموازنة بين الالعوبة الالهية (الكوميديا الالهية) للشاعر الايطالي دانتي ورسالة الغفران لابي العلاء المعري.

وتعد دراسة الحمصي من الدراسات المقارنة التطبيقية الرائدة ليس في سورية فحسب بل في الوطن العربي على رأي الدكتور حسام الخطيب في كتابه «الادب المقارن»، ج١ ، ص١٣١ .

والمهم في هذه الدراسة هو إقامة المقارنة بين هذين العملين على أساس تأثيرات رسالة الغفران في الكوميديا الالهية. وقد عد الناقد قسطاكي الحمصي الشاعر الايطالي دانتي سارقا لفكرة الرحلة الخيالية من رسالة الغفران، ولهذا لايعد دانتي مبدعا وإنما نقل ماوجده في رسالة الغفران، وتصرف في بعض المسروقات تصرفا بعيدا وفي بعضه الآخر، غير الاسماء والاماكن. ويؤكد قسطاكي الحمصي على أن الاشارات التي وردت حول علوم الهندسة والتاريخ واللاهوت وآيات التوراة والانجيل جاء ليستر السرقة عن النقاد. ثم ينتقل الباحثإلى المقارنة بين العملين ويعدد المشاهد المتشابهة والتي تبرهن على اطلاع دانتي على رسالة الغفران حسب رأيه.

ونحن إذ نورد كتاب قسطاكي الحمصي لأهميته التاريخية في مجال الدراسات الادبية المقارنة، فإننا نعارضه في ماذهب إليه من تأثر دانتي برسالة الغفران، وفي اطلاعه عليها قبل كتابته للكوميديا الالهية. ونظن ان قسطاكي الحمصي أخذ ماقاله المستشرق الاسباني آسين بلاسيوس (١٨٧١ ـ ١٩٤٤) في المجمع الملكي الاسباني في جلسة ٢٦/١/١٩١٩ حول «الاصول الاسلامية والكوميديا الالهية».

فإذا عرفنا ان الحمصي قد نشر مقالته الاولى في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٢٧، ثم نشر الجزء الثالث من كتابه والذي هو موضوع حديثنا سنة ١٩٣٥، فإننا ندرك علاقته بالباحث الاسباني. وكان الدافع وراء تبني أفكار بلاسيوس هو إظهار ماللعرب من أثر في الحضارة والثقافة الغربيتين.

فيقول: «ليس قصدنا في هذه الموازنة الحط من قدر دانتي ببيان سرقته الموضوع من شعر المعري، فقد سرق شعراؤنا وغيرهم قبل دانتي وبعده، وسيسرقون إلى يوم الدين... ولكن لنعلم نفرا يجهلون مدى آداب لغتنا ويكفرون بنوابغنا»(٦).

والمجال هنا ليس للحديث عن مدى تأثر دانتي برسالة الغفران ولكن ينبغي الانتباه إلى أن

تأثر الشاعر الايطالي برسالة الغفران لايعلي من قدر الأدب العربي، كما لايقلل من قيمته عدم تأثره بها(٧).

ويظهر هنا أن دراسة الحمصي ابتعدت عن المنهج العلمي، وقفزت إلى إطلاق أحكام عامة كلية لاتستند إلى مقدمات سليمة، أو إلى أدلة وبيانات كافية تبرر هذه الأحكام. كما أن الناقد اكتفى بوجود تشابه في موضوع الرحلة الخيالية إلى العالم الآخر ليبرر تأثير رسالة الغفران في الكوميديا الإلهية دون أن يقدم الدليل القاطع على ذلك. قد يكون دانتي قد تأثر بقصة المعراج التي ترجمت إلى اللغة القشتالية سنة ١٢٦٣ هـ، ثم ترجمت بعد ذلك إلى اللاتينية. ومن الممكن أن يكون دانتي قد اطلع على هذه الترجمة، وإن كان هذا لايكفي للجزم بتأثره بها، ولكنها فرضية قابلة للنقاش أكثر من تأثير رسالة الغفران. وعلى الرغم من ذلك، يبقى الناقد قسطاكي الحمصي من رواد الدراسات التطبيقية في الادب المقارن في سورية وفي الوطن العربي ويكفيه ذلك فخرا. وإذا كان قسطاكي الحمصي من رواد الدراسات التطبيقية في الادب المقارن في الوطن العربي، فإنه لم يشر، في دراسته، إلى مفهوم الادب المقارن ولم يستخدم هذا المصطلح.

لقد تناولت دراسته نقاط التشابه بين رسالة الغفران والكوميديا الإلهية، دون الاعتماد على نظرية الأدب المقارن التي تهتم بدراسة الأدب القومي في علاقاته التاريخية مع غيره من الآداب خارج حدود اللغة القومية التي كتب بها. أما أول من استخدم مصطلح الادب المقارن في الوطن العربي فهو خليل هنداوي(٨).

والحقيقة إن الدكتور حسام الخطيب يصحح في كتابه «آفاق الأدب المقارن عربيا وعالميا» ماتناولته المصادر المعروفة حول تاريخ الادب المقارن العربي، حيث تؤكد هذه المصادر على أن فخري أبو السعود هو أول من أستخدم مصطلح الادب المقارن في سلسلة مقالات نشرها في «الرسالة» عام ١٩٣٦ .

أما الدكتور حسام فيعيد الريادة في هذا المجال إلى الاديب السوري خليل هنداوي(٩) فيقول: «خلافا لكل مانشر سابقا في هذا الموضوع، يتبين من مراجعة الدوريات العربية ذات الاتجاه الأدبي منذ أوائل القرن العشرين إلى منتصفه أن أول استعمال محدد لمصطلح الادب المقارن ظهر بقلم خليل هنداوي (حلب سورية) على صفحات مجلة الرسالة المصرية بتاريخ ٨/٦/١٩٣٦(١٠).

وكان عنوان المقال هو «اشتغال العرب بالأدب المقارن»(١١)

ويبدو من خلال المقالات التي نشرها خليل هنداوي على صفحات مجلة الرسالة القاهرية، أن الكاتب كان واعيا لطبيعة مصطلح الادب المقارن ومعناه لأنه يميزه عن الموازنات التي كانت تقوم بين شاعرين أو كاتبين عربيين كما فعل الآمدي في «الموازنة» لابل إنه يتجاوز المفهوم الفرنسي القائم على مبدأ التأثر والتأثير، ويتحدث عن نوع من الأدب العالمي الذي لايعرف الحدود، ويحمل رسالة إنسانية تسمو فوق التعصب الفكري والنظرة الضيقة.

«ولكن الأدب ـ كما يبدو له ـ سلطان قاهر، يرمي بالحواجز التي تفصل بين الحدود الصناعية ويقتحم في عوالم الفكر والخيال دون أن يصد اقتحامه شيء لأنه أدب....

وهكذا نشأت الصلات الأدبية بين الأمم... وربطت بين المفكرين ربطا لايقوم على مصالح سياسية أو مطامع مادية، وإنما يقوم على رفع الفكر وإعلاء كلمة الفكر»(١٢).

وهكذا نرى أن خليل هنداوي يبشر بالرسالة الانسانية للادب المقارن الذي يعمل على تهديم الحدود المصطنعة بين ثقافات شعوب الارض. إنَّ روح الكاتب الانسانية جعلته يستشرف آفاق المستقبل في دراسة الآداب المختلفة، ويبتعد عن التعصب القومي الذي يحد الرؤيا، ويسيء إلى الفكر. إن الأدب عطاء وإبداع، فكيف يمكن حصره في زاوية ضيقة تحجب عنه أشعة الشمس؟

هذه النظرة الانسانية الشمولية جعلته ينطلق في الأدب العربي إلى فضاء رحب يقع على حدود الآداب العالمية ليستمد منها وتستمد منه، فيقول: إن دراستنا اليوم للأدب الأجنبي أكثر ضرورة منها بالأمس بعد أن امتزجت عوالم الفكر واتحدت مناهج الأدب، وأصبح لايليق بنا أن نترك الأدب العربي محصورا في عزلته بحجة صيانته ووقايته. وما الذي يُخْشَى عليه؟ وأنما صيانته ووقايته في تعريضه للهواء والنور لا في حجبهما عنه وفي تقريبه من الآداب العالمية»(١٣).

ماأحوج الأدب المقارن إلى هذا الفكر الذي يسمو إلى أفق إنساني لاتشوبه شائبة ولاتحده حدود، ولايخضع لاعتبارات آنية مؤقتة تفصل الانسان عن أخيه الانسان.

تعد مقالة خليل هنداوي ردا على أولئك الذين يريدون توظيف الادب المقارن لاغراض شخصية او قومية ضيقة. بعد قسطاكي الحمصي وخليل هنداوي شهدت الساحة السورية غيابا للدراسات الأدبية المقارنة، على الرغم من النجاحات التي بدأت تحققها على امتداد الوطن العربي خاصة في القاهرة وبيروت وبغداد، بعد عودة عدد من الموفدين إلى الجامعات الاوربية الذين درسوا الادب المقارن وتخصصوا فيه. ومن هؤلاء الدكتور محمد غنيمي هلال الذي تتلمذ على يدي المقارن الفرنسي الشهير فرانسوا غويار.

وكان لكتبه في حقل الادب المقارن تأثير كبير على الدراسات المقارنة في الوطن العربي. وبقي الجمود مسيطرا على الساحة السورية، ماعدا بعض المقالات، حتى عام ١٩٧١ حيث أدخل مقرر الأدب المقارن إلى قسم اللغة العربية في جامعة دمشق، وقام بتدريس هذا المقرر الدكتور حسام الخطيب الذي أسهم بصورة كبيرة في نشر هذا الفرع المعرفي في سورية، من خلال التدريس والتأليف. فظهر له أول كتاب يحمل عنوانا من صلب الادب المقارن «سبل المؤثرات الاجنبية اشكالها في القصة السورية: دراسة تطبيقية في الأدب المقارن»(١٤).

وقد وجد هذا الكتاب اهتماما من الباحثين لأنه شكل قفزة في تاريخ تطور الدراسات الأدبية المقارنة في سورية، كما أن المعلومات المهمة الموجودة في هذا الكتاب أسهمت في تنبيه الدارسين

إلى العلاقة بين الأدب العربي في سورية وبين الآداب الأوربية، هذه العلاقة التي أنتجت اجناسا ادبية جديدة لم تكن موجودة في الادب العربي القديم مثل المسرحية والقصة والرواية. ويحمل عنوان الكتاب دلالة مهمة إذ يشير إلى منهج الكاتب في تبني المفهوم الفرنسي الذي كان مسيطراً ليس في سورية فحسب ولكن في الوطن العربي، وخاصة أنَّ الرواد الأوائل مِنَ المقارنين العرب تتلمذوا في الجامعات الفرنسية.

ويشير الدكتور عبد النبي اصطيف في مقالته التي تقدمت الطبعة الخامسة من الكتاب عام ١٩٩١ إلى هذه المسألة، ويؤكد على أن مسألة التأثر والتأثير هي مسوغ الدراسة المقارنة. وعلى الرغم من أهمية عقد السبعينيات بالنسبة للادب المقارن في سورية، بعد إدخاله إلى الجامعة وظهور كتاب الدكتور حسام الخطيب فإنه لم يشهد انطلاقة حقيقية إلا في عقد الثمانينيات.

وكان الأمر مقتصرا قبل عام ١٩٨٠، بالإضافة إلى الكتاب سابق الذكر، على بعض المقالات في مجلة المعرفة السورية، حيث نشر الدكتور حسام الخطيب عام ١٩٧٦ عرضا مفصلاً عن مشاركته في المؤتمر الثامن للرابطة الدولية للأدب المقارن الذي عقد في بودابست في العام نفسه، كما نشر ثلاث مقالات في المجلة نفسها عام ١٩٧٩ حول «الأدب المقارن بين التزمت المنهجي والانفتاح الانساني» بالاضافة إلى مقالات الدكتور حسام الخطيب خصصت مجلة المعرفة بعض الأعداد للدراسات المقارنة من الناحيتين النظرية والتطبيقية. واشترك في كتابة هذه المقالات مجموعة من الباحثين المشتغلين في مجال الأدب المقارن، ومن هؤلاء الدكتور جمال شحيد الذي نشر عام ١٩٧٧ مقالا بعنوان «الأدب المقارن بين التقليد والحداثة»(١٥).

وخصص العددان ١٩١ ـ ١٩٢ لعام ١٩٧٨ بصورة كاملة للدراسات الأدبية المقارنة خاصة التطبيقية منها(١٦). ويأتي هذان العددان في حقبة ازداد فيها الوعي بضرورة الاستفادة من مناهج الأدب المقارن من أجل معرفة موقعنا بالنسبة للآداب العالمية. ولهذا قامت وزارة الثقافة بطباعة كتابين مترجمين. الأول ترجمة عن الانكليزية عبد الكريم محفوض عام ١٩٨٠، وهو من تأليف هاري ليفن بعنوان «انكسارات، مقالات في الأدب المقارن». وأكثر مايركز هذا الكتاب على الدراسات التطبيقية المقارنة في الآداب الغربية. ولايبتعد الكتاب الثاني عن الكتاب الأول، وهو من تأليف ايغريم كارانفيلوف، وعنوانه «ابطال وطباع، مقالات في النقد والنقد المقارن»، قام بترجمته ميخائيل عيد عن البلغارية وصدر عام ١٩٨٢. وفي هذا الاطار يمكن الاشارة إلى كتاب كاترينا مومسن «غوتة وألف ليلة وليلة». الذي قام بترجمته الدكتور أحمد حمو وأصدرته وزارة التعليم العالي عام ١٩٨٠. ويظهر هذا الكتاب أثر ألف ليلة وليلة في شاعر المانية الكبير غوته الذي تربى منذ نعومة اظفاره على سماع حكايات أعظم قاصة في التاريخ «شهرزاد» وهذا دليل على أن التأثير لايمكن أن يكون في اتجاه واحد. على الرغم من عظمة غوته ومكانته كواحد من القمم الكبرى في الأدب الغربي فإنه اعترف بفضل الأدب

العربي عليه بالأضافة إلى القرآن الكريم الـذي كان له أكبر الأثر في ظهور بعض أعمال الشاعر إلى الوجود(١٧).

إلى جانب هذه الكتب المترجمة ظهر في دمشق لأول مرة كتاب يحمل عنوان «الأدب المقارن» للدكتور حسام الخطيب. وصدر هذا الكتاب عام ١٩٨١، في جزأين عن جامعة دمشق. الجزء الأول مخصص للحديث عن النظرية والمنهج، إذ يعمد المؤلف إلى التعريف بالمفهومات الرئيسية للادب المقارن مع طرح المعضلات التي تواجهه. ولاينسى الحديث عن الأدب المقارن عند العرب منذ بداية عصر النهضة حتى تاريخ صدور هذا الكتاب. أما الجزء الثاني فيحتوي على كل الموضوعات التي وردت في كتابه «سبل المؤثرات الأجنبية في القصة السورية» فيقف أولا عند علاقة الادب العربي الحديث بالآداب الأوربية خاصة بعد الاتصالات الكثيرة التي قامت بين هذه الآداب بفعل عوامل عديدة. لينتقل بعد ذلك إلى القصة السورية والمؤثرات الأجنبية التي أسهمت بصورة مباشرة في ولادتها. اما الفصول الاخيرة من الجزء الثاني فقد خصصت للدراسات التطبيقية حيث يقف المؤلف خاصة عند التأثيرات الوجودية في القصة والرواية في سورية.

ومعروف الآن فائدة هذه الطريقة من التأليف التي تساعد على فهم الجانب النظري، فإذا تم للقارىء ذلك انتقل به المؤلف إلى الجانب التطبيقي الذي يثبت المعلومات النظرية ويوضحها.

مما لاشك فيه أن هذا الكتاب جاء تتويجا لمرحلة كاملة من البحث المقارن في سورية وأسهم في إغناء الثقافة المقارنية وتنشيط الدراسات النقدية إزاء مشكلات نوعية متخصصة في ميادين الأدب المقارن وظهر في هذه المرحلة كتاب الدكتور محمد ألتونجي «دراسات في الأدب المقارن» وهومن منشورات اتحاد الكتاب العرب عام ١٩٨٢. وكما جرت عليه العادة في الكتب السابقة، قرن المؤلف النظرية بالتطبيق، ولكنه يعتمد اعتمادا كبيرا على كثير من الموضوعات، وعدد من الكتب المختصة في الأدب المقارن. وهذا مايعترف به المؤلف نفسه. إن هذه الكتب التي ظهرت في السنوات الأولى من مرحلة الثمانينيات تعد مؤشرا على الاهتمام المتزايد في الظاهرة المقارنية، توجت بالمؤتمر الثاني للرابطة العربية للادب المقارن الذي عقد في رحاب كلية الآداب بدعوة من جامعة دمشق بين ٦-٩/٧/١٩٨٦(١٨).

وشارك في المؤتمر باحثون من عدد من الأقطار العربية بالإضافة إلى بعض الباحثين العالميين. وكان الموضوع المركزي لهذا المؤتمر هو مجالات الأدب المقارن عند العرب نظريا وتطبيقا، وانقسم إلى ثلاثة محاور. المحور الأول تناول الأدب العربي المقارن، والمحور الثاني دار حول علاقة الأدب العربي المقارن بالعالم، أما المحور الثالث فخصص للدراسات التطبيقية. وعلى الرغم من كل مايمكن أن يقال عن هذا المؤتمر، فإنه يمثل ظاهرة متطورة على طريق ترسيخ دعائم الدراسات الأدبية المقارنة في سورية وفي الوطن العربي. لأنه أسهم في

إثارة قضية الأدب المقارن ونشر الوعي المقارني كما يقول الدكتور حسام الخطيب رئيس اللجنة التنظيمية للمؤتمر «إن قضية الأدب المقارن، إذ تبدأ بطرح نفسها على جمهرة المثقفين والقراء إلى جانب المتخصصين، إنما تبعث في النفس أملا وتفتح أبوابا ومجالات من البحث كفيلة بأن ترفد الأدب العربي المعاصر بدم جديد، وأن تسهم في تسهيل طريق تحقيق طموحه القومي العصري وتطلعه الانساني الشامل»(١٩).

وعقب المؤتمر شهدت المجلات السورية حركة نشطة في نشر المقالات الأدبية المقارنة، وخصصت أعداد كاملة من مجلات المعرفة والموقف الأدبي والآداب الأجنبية لنشر المقالات التي ألقيت في المؤتمر والتي ألقت أضواء جديدة على مواضع مظلمة، وساعدت على رؤية الأدب العربي من خلال المقارنة والمقابلة بالآداب الأجنبية. فنشرت مجلة المعرفة في عددها / ٢٩٥/ الصادرة عام ١٩٨٦ مقالات لكتاب سوريين وعرب، ومن هذه المقالات «حول الأدب العربي وامتحان العالمية» للدكتور حسام الخطيب، و«أسطورة أورفيوس بين الآداب الغربية والشعر العربي المعاصر» للدكتور علي الشرع من جامعة اليرموك في الأردن، و«الموشح الاندلسي بين التأثر والتأثير» للدكتور رضوان الداية، و«في نظرية الأدب المقارن» للدكتور فؤاد مرعي. أما مجلة الموقف الادبي الصادرة عن اتحاد الكتاب العرب في دمشق فقد تناولت في عددها / ١٨٦/ عام ١٩٨٦، ملف الأدب العربي في علاقاته مع الآداب الاخرى وافتتح العدد الدكتور عبد الله أبو هيف في «قصة الأدب العربي المقارن».

تلاه رأي الدكتور حسام الخطيب في المؤتمر الثاني للرابطة العربية للادب المقارن.

بعد ذلك حاولت المجلة أن تقدم دراسات تطبيقية قائمة على النماذج الأدبية المقارنة التي تطرح كثيرا من الأسئلة المثيرة للاهتمام. فقدم الدكتور جمال شحيد بحثه حول «رواية عصر التنوير الفرنسية والحضارة العربية»، أما الدكتور عادل عبد الله فتحدث عن «ألف ليلة وليلة وفن البرلسك الانكليزي».

وبقيت الدكتورة بثينة شعبان في إطار الادب الانكليزي لتطرح قضية مهمة جدا هي «الأدب النسائي العربي والأدب النسائي الانجليزي».

وكما فعلت مجلتا الموقف الادبي والمعرفة، فعلت مجلة الآداب الأجنبية في عددها المزدوج / ٥٠ ـــ ٥١/ الصادر عام ١٩٨٧. ومن المقالات التي قدمها الباحثون السوريون مقال الدكتور عبد النبي اصطيف بعنوان «دعوة إلى المنهج المقارن في دراسة الأدب العربي الحديث ونقده».

وقدم الدكتور سليمان محمد أحمد بحثا بعنوان «هاردي والعقاد». على أن المجال لايتسع هنا لاستعراض كل البحوث التي نشرت عل صفحات هذه المجلات، وإبداء الرأي فيها، ولكنها تثبت الاهتمام المتزايد الذي أولاه الباحثون السوريون والعرب لهذا الفرع المعرفي المفيد في فهم النصوص الأدبية.

ولايفوتنا الإشــارة هنا إلى ترجمة عارف حـديفه لكتاب أس.أس.براور «الـدراسات الأدبية المقارنة ـ مدخل» الصادر في دمشق عام ١٩٨٦ عن وزارة الثقافة.

خلال السنوات القليلة التي تلت المؤتمر عاد بعض الموفدين الدارسين في الجامعات الغربية في مجال الأدب المقارن، إلى سورية وعملوا بالتدريـس في الجامعات السورية الأربع. مما لاشك فيه أن سيـاسة الايفاد التـي اتبعتها الجامعات السـورية، أسهمت في تـوسيع أفق الـدراسات المقارنـة بسبب تعـدد الجامعات وتنوعهـا، وامتلاك الموفـدين للغات مختلفـة تساعـدهم على الاطلاع على وجهات النظر المتعددة والفنية. وهكذا نرى التنوع في التأليف، كما يظهر من كتاب الدكتـور عبده عبود «الأدب المقـارن»، الصادر عن جامعـة البعث عام ١٩٩١، حيـث استفاد الباحـث من دراستـه في المانية ومعرفتـه للغة الالمانيـة. ولهذا احتوى كتابـه على موضـوعات جديـدة تتعلق باستقبـال الرواية الالمانيـة في العالم العـربي. كما أن توزيع الموضـوعات على فصول الكتاب التسعـة أسهم في إعطاء صورة شـاملة للقارىء عن الأدب المقـارن في المجالين النظري والتطبيقـي، محاولا في الوقت نفسـه استخدام مفاهيم جـديدة في دراساتـه التطبيقية فيقول: «وقد انطلقنا في هذا الكتاب من منحى نظري رئيسي شكل منعطفا حادا في نظرية الادب وكان له أكبر الاثر على تطور الادب المقارن وبحـوثه ألا وهو نظرية الاستقبال الادبي، دون ان يقودنا ذلك إلى إغفال الاتجاهات والتيارات النظرية الاخرى، أو تجاهلها»(٢٠).

ويسجل لمؤلف هذا الكتاب مشاركته النشطة في التعريف بالأدب المقارن عن طريق التأليف والترجمة وكتابة المقالات وإلقـاء المحاضرات، مما يبشر بالمحافظة على الحماس الـذي لابد منه من أجل تـرسيخ دعائم هذا الفرع المعرفي. وإذا كنـا لانستطيع الاشارة إلى كل ذلك، فـإنه لابد من التذكير بكتـابه «الرواية الالمانية الحديثة ـــ دراسة استقبالية مقارنـة» الصادر عن وزارة الثقافة في دمشق عام ١٩٩٣ ضمن سلسلة «دراسات نقدية عربية».

بالإضافـة إلى الطريقة العلمية والاكـاديمية التي يتبعها الكـاتب في رصد الظواهـر الأدبية، فإنه يقدم أيضا طريقة جديدة في التعامل مع الظاهرة الأدبية من خلال تتبع سيرورتها من بلد المنشأ حتى تلقيها من قبل القارىء العربي.

وقبل صـدور هذا الكتـاب بنحو عام، صـدر كتاب الدكتـور حسام الخطيـب «آفاق الأدب المقارن عربيا وعالميا» عن دار الفكر في سورية ولبنان عام ١٩٩٢. وعلى الرغم من التشابه بين هـذا الكتاب والكتـاب الذي صـدر عن جـامعة دمشـق في جزأيـن عام ١٩٨١، بعنـوان الأدب المقارن، فإن الدكتـور حسام الخطيب يحاول أن يقدم هنا نظرة متكـاملة تعتمد على خبرته في مجالات التأليف والتـدريس وحضور المؤتمرات العربية والـدولية، مستفيدا من الـوثائق التي حصل عليها في إعادة تصحيح بعض الحقائق، خاصـة المتعلقـة منها بتاريخ الدراسات المقارنة في الوطن العربي.

قبل أن أختم بحثي هذا أريد أن أشير إلى أن كاتب هـذه السطور قام بجهد متواضع في هذا

الإطار.

وكان الكتاب الأول «إشكالية الموت في الأدب» الذي صدر في دمشق عن دار معد عام ١٩٩٣ محاولة جادة لرصد موضوع إشكالية الموت في أدب الكاتب السوري جورج سالم، وعلاقة ذلك بفكر غابرييل مارسيل وألبيركامو.

والكتاب الثاني بعنوان «الحرية الوجودية بين الفكر والواقع، دراسة في الأدب المقارن»، ونشر في دمشق عام ١٩٩٤، وإذا كان الكتاب الأول قد كرس للجانب التطبيقي، فإن الكتاب الثاني قد بدأ بفصل عن تاريخ الأدب المقارن ومدارسه في حين أن الفصلين الثاني والثالث قد خصصا للحديث عن الحرية عند بعض الكتاب السوريين والفرنسيين الوجوديين لأن الحرية هي جوهر الانسان بالنسبة إلى الفكر الوجودي لابل هي الوجود الانساني ذاته.

بالإضافة إلى ذلك قمت بنشر بعض المقالات في مجلات سورية وعربية(٢١).

وفي هذا المجال لم يتوقف نشاط الباحثين السوريين كما يتبدى من خلال الأبحاث المختلفة التي تنشر في مجلات سورية وعربية.

في نهاية هذا العرض السريع، يحق لنا أن نتساءل ماذا قدمت كل هذه الدراسات من فائدة للادب في سورية، وما هي آفاق تطورها؟ على الرغم من الجهد الواضح الذي بذله الباحثون السوريون، فإن النتائج لم تكن في مستوى الطموح. ولو ألقينا نظرة سريعة على عدد الكتب المؤلفة أو المترجمة لوجدناها لاتتجاوز عدد أصابع اليدين.

إن نشأة الأدب المقارن في سورية قد تأخر عن نظيره في البلاد الغربية بنحو قرن من الزمن. وهذه الولادة مرتبطة باتصال المقارنين السوريين الاوائل بالثقافة الغربية واستفادتهم من مناهجها الحديثة. ولكن هذه الاستفادة انحصرت في الجانب التطبيقي لا في الجانب النظري وكما يعاني الادب المقارن من أزمة في البلدان العربية كذلك الامر في سورية، ولم تستطع الجهود الكبيرة في نقله من مجرد مقرر هامشي في الجامعات يهم عدداً محدوداً من المتخصصين إلى فرع معرفي من بين فروع المعرفة المختلفة. وإذا كان المستقبل يبشر بالخير نتيجة عدد من العوامل التي تشجع على إطلاق مثل هذا الحكم، فإننا يجب أن نتعهد هذه الانطلاقة المبشرة بالرعاية اللازمة عن طريق رسم خطط مستقبلية تكفل نشر الثقافة المقارنية وتشجع المقارنين السوريين وترعاهم.

كما أنه يجب إعادة النظر في المقررات الجامعية وطرق التدريس، إن ذلك يعد اللبنة الاساسية في تطوير البحث المقارن. وهذا يتطلب التواصل المستمر مع المقارنين العرب من جهة ومع المقارنين العالميين من جهة أخرى عن طريق عقد اللقاءات والندوات التي تشجع البحث وترعاه. ويبقى الاساس في كل عملية تطوير الإنسان نفسه، فإذا توفرت النية والامكانية أمكن للبحث المقارن في سورية أن يحقق انطلاقة مهمة. أمنية صعبة التحقيق لكنها ليست مستحيلة.

الحواشي :

١ـ أحمد أبو زيد، «الأدب المقارن»، عالم الفكر، المجلد الحادي عشر، العدد الثالث (١٩٨٠) ص٣ .

٢ ـ بول فان تييغم، الأدب المقارن٧ القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٥٦، ص٢٠ .

٣ P.Brunel, Claude Pichois, A,M,Rousseau, Qu est-ce_ que la litterature comparée, Paris, Armand Colin, 1983/ P.15/.

٤ ـ أحمد أمين، ضحى الاسلام، ط٢، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٥، ص١٣٣ .

٥ ـ محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، ط٣، القاهرة، دار نهضة مصر، ١٩٧٧ ، ص٨٥ .

٦ ـ قسطاكي الحمصي، منهل الوراد في علم الانتقاد، ج٣، حلب، مطبعة العصر الجديد ١٩٣٥، ص١٩٧ .

٧ ـ للمزيد من المعلومات، راجع كتاب، الياس سعد غالي، رسالة الغفران والكوميديا الالهية دمشق، اتحاد الكتاب العرب، ١٩٨٨ .

٨ ـ حسام الخطيب، آفاق الأدب المقارن عربيا وعالميا، بيروت، دار الفكر المعاصر في لبنان، ودار الفكر في سورية، ١٩٩٢ ، ص١٥٤ .

٩ ـ ولد خليل هنداوي في صيدا في جنوب لبنان عام ١٩٠٦، انتقل إلى سورية عام ١٩٢٨، وعمل مدرسا في مدارس دير الزور وحلب إلى أن عين رئيسا للمكتب الفرعي لاتحاد الكتاب العرب في حلب حتى وفاته سنة ١٩٧٦ .

١٠ ـ حسام الخطيب، آفاق الأدب المقارن عربيا وعالميا، بيروت، ١٩٩٢، ص١٥٣ ـ ١٥٤ .

١١ ـ ظهر المقال على صفحات مجلة الرسالة القاهرية عام ١٩٣٦، الاعداد: ١٥٣ ـ ١٥٤ ـ ١٥٥ ـ ١٥٦ .

١٢ ـ خليل هنداوي. «اشتغال العرب بالادب المقارن! ، الرسالة، المجلد الأول، العدد ١٥٣، ١٩٣٦/٦/٨د ص١٩٣٨ .

١٣ ـ المصدر السابق، ص٩٣٩ .

١٤ ــ صدرت الطبعة الاولى من الكتاب في القاهرة عام ١٩٧٣ عن معهد البحوث والدراسات العربية، ثم أعيد طبعه في دمشق عام ١٩٨١ وعام ١٩٨٥ (اتحاد الكتاب العرب). وأخيرا ظهرت طبعة منقحة ومعدلة بدمشق عام١٩٩١ تتقدمها مقالة الدكتور عبد النبي اصطيف «سبل المؤثرات من منظور مقارني».

١٥ ــ جمال شحيد، «الأدب المقارن بين التقليد والحداثة»، مجلة المعرفة، العدد ١٨٢، ١٩٧٧ ص٥٩ـ٧٢ .

١٦ ـ خصص العدد المزدوج ١٩١ ـ ١٩٢، عام ١٩٧٨، بصورة كاملة للدراسات المقارنة ولذلك استحال علينا ذكر كل الموضوعات، وننصح بالعودة إلى هذا العدد من مجلة المعرفة.

١٧ ـ من المفيد العودة إلى كتاب، كاترينا مومزن، غوته والعالم العربي، ترجمة عدنان عباس علي الكويت، سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٩٤، عام ١٩٩٥ .

١٨ ـ لمزيد من المعلومات، راجع، حسام الخطيب، «حول المؤتمر الثاني للرابطة العربية للادب المقارن»، الموقف الادبي، العدد ١٨٦ ، ١٩٨٦، ص٧ ـ ١٤ .

١٩ ـ المصدر السابق، ص١٤ .

٢٠ ـ عبده عبود، الأدب المقارن، حمص، جامعة البعث، ١٩٩١ ـ ١٩٩٢ .

٢١ ـ من هذه المقالات، «في الأدب المقارن» مجلة علامات، السعودية، جدة، المجلد الرابع، الجزء الرابع عشر، (١٩٩٤)، ص٢٠١ .

* * *

المصادر والمراجع في اللغة العربية :

ـ أمين، أحمد، ضحى الإسلام، ط٢، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٤ .

ـ براور، اس. اس الدراسات الأدبية المقارنة. ترجمة عارف حديفة. دمشق وزارة الثقافة ١٩٨٦

ـ التونجي، محمد، قسطاكي الحمصي شاعرا وناقدا وفيلسوفا. بيروت: دار الانوار، ١٩٦٩ .

ـ دراسات في الأدب المقارن، دمشق: اتحاد الكتاب العرب، ١٩٨٢ .

ـ تييغم، بول فان. الأدب المقارن. القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٤٦.

ـ الحمصي، قسطاكي. منهل الوراد في علم الانتقاد، ج٣ حلب: مطبعة العصر الجديدة، ١٩٣٥.

ـ الخطيب، حسام. سبل المؤثرات الأجنبية وأشكالها في القصة السورية، ط٥ . دمشق: مكتبة الادب القصصي في سورية، ١٩٩١.

ـ الأدب المقارن، ج١ـ٢ دمشق: دار الانشاء، ١٩٨٢

ـ آفاق الأدب المقارن عربيا وعالميا، دار الفكر في سورية ولبنان، ١٩٩٢ .

ـ عبود، عبده. الأدب المقارن. حمص: منشورات جامعة البعث، ١٩٩١ .

الرواية الالمانية الحديثة، دراسة استقبالية مقارنة. دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٩٣ .

ـ علوش، سعيد. مدارس الأدب المقارن، بيروت: المركز الثقافي العربي، ١٩٨٧ .

ـ غالي، الياس سعد. رسالة الغفران والكوميديا الالهية. دمشق: اتحاد الكتاب العرب، ١٩٨٨ .

ـ ليفين، هاري، انكسارات، مقالات في الأدب المقارن، ترجمة عبد الكريم محفوض. دمشق:

وزارة الثقافة، ١٩٨٠ .
- ويليك، رينيه. مفاهيم نقدية. ترجمة محمد عصفور، الكويت، عالم المعرفة العدد ١١٠/١٩٨٧ .
- هلال، محمد غنيمي، الأدب المقارن، ط٣ . القاهرة: دار نهضة مصر، ١٩٧٧ .

المصادر والمراجع في اللغة الفرنسية

- Bfunel, P.Pichois, Claude, Roussau, A.M.Qu est-ce que la littérature comparée. Paris: Armand Colin, 1983
- Guyard, Marius- Francois. La littérature comparée. Paris: P.U.F. 1969.

الدوريات العربية

- الآداب الأجنبية، دمشق، العدد المزدوج، ٥٠ - ٥١ ، ١٩٨٧ .
- الرسالة، القاهرة، المجلد الأول، الأعداد، ١٥٣ - ١٥٤ ، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٦د ١٩٣٦ .
- عالم الفكر، الكويت، المجلد الحادي عشر، العدد الثالث، ١٩٨٠ .
- علامات، السعودية، المجلد الرابع، الجزء الرابع، ١٩٩٤ .
- المعرفة، دمشق، الاعداد ١٨٢، ١٩٧٧ . ١٩١ - ١٩٢، ١٩٧٨ . ٢٩٥، ١٩٨٦ .
- الموقف الأدبي، العدد ١٨٦ ، ١٩٨٦ .

* * *

ملخص البحث

يرتبط مصطلح الأدب المقارن بالنصف الأول من القرن التاسع عشر، بعد محاضرات آبيل فيلمان التي ألقاها صيف عام ١٨٢٧ ونشر قسم منها عام ١٨٢٨ و١٨٢٩ .

كسب الأدب المقارن بعد «فيلمان» مناطق نفوذ جديدة، أو بالأحرى كسب شعبية في فرنسة وفي كل مكان من العالم، بما في ذلك سورية حيث نشر قسطاكي الحمصي دراسته «منهل الوراد في علم الانتقاد» عام ١٩٣٥. في السنة التالية، كتب خليل هنداوي عدة مقالات في مجلة الرسالة حيث استخدم، للمرة الاولى، مصطلح الادب المقارن.

في جامعة دمشق بدأ الدكتور حسام الخطيب عام ١٩٧١، بإعطاء محاضرات في الأدب المقارن. وخلال هذه السنوات، بدأ الأدب المقارن يعرف كعلم مستقل في سورية.

اشكالية [اللفظ] في النقوش والكتابات القديمة

محمد بهجت قبيسي
محاضر في جامعة حلب

١ ـ إن مباحثات طابا، بين الوفد الفلسطيني والاسرائيلي، في شهر كانون الثاني ١٩٩٤ قررت: أن مسؤولية الآثار المسيحية والاسلامية تكون للفلسطينيين، أما الآثار اليهودية فتكون لاسرائيل(١).

هكذا يصادر التاريخ القديم في المنطقة ليصبح إسرائيلياً يهودياً لاغراض سياسية.

٢ ـ وقبلها، يصادر الصهيوني درايفر نقوش الأرض وكلماتها ليضيفها إلى قاموس جيزنيوس القديم ١٨١٥، ويعطيه نفس الاسم (قاموس جيزنيوس) عبري ـ إنكليزي بلعبة ذكية في الاخراج (٢) عام ١٩٥٣.

٣ ـ والآن فإن اكثر جامعات العالم تذهب إلى لفظ النصوص بكلماتها، حسب اللفظ العبري، الذي حققه الماسوريون في القرن العاشر الميلادي [نعم في القرن العاشر الميلادي] (٣).*

---

*فمثلاً يلفظون كلمة يادي يا ؤودي (مملكة آرامية عاصمتها شمأل)، وكلمة فعل: فيعال ف ـ ع ـ ل، وكلمة ملك أو مالك يلفظونها: ميليك بأحرفها م ـ ل ـ ك، وكلمة آية يلفظونها إيت ويقولون ليس لها محل من الاعراب (٤)، وكلمة [أنا، كه] بمعنى أنا يلفظونها أنوك او أناكو بأحرف ا ن ك، وأهل مدينة حلب يقولون كهنه: بمعنى إكهنها، ها هي، او [كه] بنفس المعنى، وهي لا تزال مستعملة لفظاً، لكن الهاء لا تكاد تسمعها، فإن قلت (أنا، كه) إختلف الموضوع والمعنى كما اختلف اللفظ، ويلفظون جبيل جبلا وهلك هوليخ، وكلمة قرأ تلفظ قرا بمعنى نادى، وكلمة بت نعم قرأوها بتنو عام بأحرفها ب ت ن ع م وبت تعني بنت، أي بنت نعم وهو إسم أم ملك في الساحل الكنعاني الشامي تعطي صفة لنفسها.

وكلمة عز بعل إسم علم يلفظها عزي بعل بأحرفها ع ز ب ع ل. وجملة محسم حارص لـ فيّ أي ـ علبة حمرة شفاه ترعى وتحرس فمي (٥) ـ يقرؤوها محسم حاروس لفـي أي علبة حمرة ذهبية لفميّ. كان الكنعانيون يعتقدون ان الميت بحاجة لتزيين الفم ليكون راعياً أو حارساً من الشياطين [وقد وجدت هذه العادة في قرطاجة وبحر ايجه بالإضافة إلى وضع قطع معدنية مع الميت في قبره أيضاً].

ويلفظون كلمة حوي. حفييا بالأحرف ح و ي.

وكلمة مفلت يلفظونها مفلات بمعنى أحجار فلتانة أي أنقاض (٦). و [مزرمه]= ماذا رماه(٧).

فمشكلة اللفظ تتجلى بأمرين:
١ـ غياب اللفظ لغياب الاحرف التي تمثل الصوتيات وهي الالف والواو والياء.
٢ـ الاعتماد على ٢٢ حرف فقط لتمثل ٢٩ صوتاً.

أولاً: غياب الأحرف الصوتية:

إن أكثر النقوش القديمة (عدا المسمارية وشيئاً من الكتابة المقدسة المصرية) كتبت بإسلوب مختزل من الأحرف الصوتية: الالف والواو والياء، بالاضافة إلى حركاتها الخفيفة الفتحة والضمة والكسرة (وإمالاتها)، وترك تقديرها للقارىء آنذاك.

وكان القارىء معاصراً لما كتب فاشتركت لديه حواس:
السمع بالأذن والرؤية بالعين واللفظ أخيراً باللسان، ولذلك وبهذه الحواس كان اللفظ سليماً.

يقول ابن جني [العبرة في اثبات الحرف بالنطق لا بالخط، لوجود اللفظ قبل الخط] (٨) حيث ان الكتابة ليست من جوهر اللغة فقد تكلم الناس قبل ان يعرفوا الكتابة طريقاً.

أما المشكلة اليوم أننا نملك الرؤية ولا شيء سواها، وفاتنا السمع وبالتالي فقدنا اللفظ السليم.

وقبل البحث بالوسائل المقترحة للفظ، فلا بد من التذكير بالثوابت التالية:
١ـ إن أنظمة الكتابة منذ فجر التاريخ وحتى اليوم عاجزة عن تلبية متطلبات الصوت (فلا يمكننا تعلم الانكليزية إعتماداً على الكتاب فقط بدون معلم).
٢ـ لابد لمتعلم القراءة السليمة من شيخ يعلمه، لذا وجدنا دائماً عبر التاريخ العربي العدناني هذه الجملة الجميلة: لقد قرأ فلان عن فلان.
٣ـ إن اختلاف نمط الخط لا يعني إختلاف اللغة، فقد كتبت العربية العدنانية على سبيل المثال:
آـ بالحرف الآرامي المربع: كتب به ورقة بن نوفل (٩).
ب ـ بالحرف المسند: رسالة النبي (ص) إلى أهل اليمن (١٠).
ج ـ الحر ف السرياني وسميت بالكرشونية نسبةً إلى قريش(١١).
د ـ وكتبت بحرف الجزم: وهو المستعمل حالياً أو ما دعي بالحرف العربي مجازاً.
هـ ـ كذلك كتبت بخليط من المسند والجزم والهيروغليفية (الكتابة المصرية المقدسة) نقش رم [٢] بجبل رم شمال خليج العقبة(١٢).

كما كتبت الآرامية بالحرف الكنعاني وبالخط المسماري والمصري واليوناني والمربع(١٣).
بهذا نجد أن اختلاف نمط الخط لا يدل على اختلاف اللغة.
ونورد مثالاً آخر معاصراً، فاللغة التركية تركت حرف الجزم العدناني سنة ١٩٢٩

واستبدلته بالحرف اللاتيني، فالسؤال المطروح:

هل تغيير نمط الخط بالتركية أدى إلى اختلاف اللغة؟ بالطبع لا.

٤ـ الثابت الرابع هو ان وحدة الخط لا تدل على وحدة اللغة، فبالمسمارية كتبت كل من السومرية والاكادية والحورية والآرامية وغيرها من اللغات القديمة.

وبالتاريخ الحديث نجد أن الحرف اللاتيني حوى كلا من الجرمانيات واللاتينيات.

٥ـ الثابت الخامس والهام: نود أن نذكر بـ عالم الآرميات الفرنسي دوبون سُومر حيث يذكر في كتابه [الآراميون]:

رغم أن الآرامية تتميز بخصائص كثيرة (مثل أداة التعريف فهي ألف في آخر الكلمة) فإنها قريبة الصلة باللغتين (اللهجتين) الكنعانية والعبرية، وتشترك معهما بمصطلحات إلى حد ما. ولكنها أقرب إلى اللغة العربية (العدنانية) من غيرها ولهما مصطلحات لغوية وألفاظاً مشتركة.

أي ان الآرامية قريبة الصلة بالعبرية لكنها وثيقة الصلة بالعربية العدنانية ولها ألفاظ مشتركة معها، لنلاحظ كلمة ألفاظ ما دام بحثنا عن اللفظ(١٤).

٦ـ الثابت السادس والهام أيضاً في موضوع اللفظ ما جاء في قاموس لسان العرب لابن منظور في مادة كنع عن اللهجة الكنعانية:

[كان الكنعانيون يتكلمون بلغة تضارع العربية](١٥).

وعود على ذي بدء: كيف لنا أن نلفظ هذه النقوش وهذه الكلمات لفظاً هو أقرب للحقيقة ما دامت أكثرها لا تحوي أحرفاً صوتية*.

الوسائل البادية لنا:

لدينا من اللهجات الحيّة مايلي:

١ـ العبرية ٢ـ السريانية.

٣ـ آرامية معلولا وبخعه وجب عدين (وهي خلاف السريانية).

٤ـ العدنانية ٥ـ اللهجات العامية على امتداد الوطن العربي.

٦ـ الوزن الشعري أو السجع إن وجد كالامثال.

وأخيراً والهام:

٧ـ اسماء المدن والقرى والاماكن القديمة.

ولا أظن انه بعد هذه الوسائل السبعة شيئاً يمكن ان يعتد به من ناحية اللفظ الذي يعتمد على المسموع تحديداً.

---

* ـ عندما نجد الالف والواو والياء في الكتابات القديمة، فهي تمثل احرفا ساكنة (صامتة) لا احرف مد، فالياء في كلمة بيت مثلا حرف ساكن وليست حرف مد لعدم تأثيرها على حركة ما قبلها، وكذلك الواو في كلة (موت) ايضا، والياء والواو في كلمة (يوم) أيضا.

١ـ العبرية:

نفرق بين عبريتين: الاولى العبرية الحديثة التي وضعها اليعازر بن يهوذا بين عامي ١٩١١ ـ ١٩٢٢ (١٦)، والثانية التوراتية. فالحديثة المحكية في الاذاعات الآن لا يمكن الركون إليها حيث هي خليط من التوراتية ولغة اليدش والتي بدورها خليط من البولونية والالمانية والروسية (١٧). وهي حديثة العهد ترقى إلى بداية القرن الثامن عشر (١٨) وأنْ متكلم العبرية الحديثة لا يستطيع فهم التوراة. تماماً كالعربي الذي يقرأ الفارسية بأحرفها العربية اليوم.

أما التوراتية القديمة:

١ـ نعلم جميعاً أن التوراتية هي خليط من اللهجتين الكنعانية ثم الآرامية التي نجدها في سفر دانيال وأجزاء من سفر عزرا (١٩)

٢ـ لنرى ما يقوله الماسوريون بعد تحقيقهم وتشكيلهم للفظ التوراة بأحرفه الصوتية وتنقيطه (التشكيل) في القرن العاشر الميلادي، فقد جاء في قاموس الكتاب المقدس ـ ص٧٦٣ ـ ما نصه:

[وقد دوّن الماسوريون الاصطلاحات التي ارتأوها على النص وجعلوها في الحاشية، تاركين للعلماء الخيار في قبولها او رفضها بعد البحث والتدقيق](٢٠).

اذن، ان لفظ التوراة المحقق الآن، يرجع إلى القرن العاشر الميلادي، وهو لا يسمح لنا ان نلفظ الكلمات القديمة، التي يرجع بعض نقوشها إلى اكثر من اربعة آلاف سنة قبل هذا التاريخ.

بل على العكس، ما دامت العبرية التوراتية القديمة مؤلفة من لهجات اقدم وهي الكنعانية والآرامية، فما دمنا نبحث بالأصل ،فباستطاعتنا ايضاً تعديل ألفاظ التوراة (شكلاً) دون المساس بأحرفها الساكنة الاصلية وستفهم فهماً آخر.

واود ان اذكر الأخوة يهود الشرق للكارثة التي اتي بها اللاهوتي بوستيل عام ١٥٣٨ في باريس في [أن العبرية هي ذاك الأصل العتيق مرفوعاً بالمؤثرات الدينية. وأخطر ماألفه بوستيل ذاك الكتاب الذي زعم فيه انه يبحث في الأصول وفي قدم اللغة العبرية والشعب العبراني وفي تفرّع سائر اللغات عنها] (٢١).

وهذا ما دحضته النقوش والكتابات القديمة، بل على العكس فإن العبرية القديمة (عبرية التوراة) هي خليط من اللهجات الكنعانية والآرامية كما بينّا. إن كارثة بوستيل سنة ١٥٣٨ كانت في تضليل فقهاء اللغة العالمين بالاضافة، إلى تضليل اليهود في العالم وخاصة العرب يهودا ومسيحيين ومسلمين، حيث يعتبر بوستيل ان العبرية أقدم اللغات والشعب العبري أقدمها(٢٢).

يقول فِرْدِنَنْ دوسوسر رائد فقه اللغة الحديث حاسماً هذا النقاش:

(إن اللغة الأقدم هي التي تحوي على كم أكبر من المفردات) مع محافظتها على جذرها

الثنائي أو الثلاثي.

٢-السريانية:

لقد دونت السريانية بإشاراتها (تشكيلها) في القرن الثاني أو الثالث الميلادي على أبعد حد (٢٣). كما كثرت المداليل (مداليل الكلمات) في اللهجة السريانية. فمثلاً: كلمة فِنقِيُو: تعني متحضر وكلمة طعونو تعني كيس حيث يطعن الكيس بأداة السبر.

ومع أن مدلول الكلمة ليس موضوع بحثنا ،إلا ان السريانية كذلك حديثة العهد نسبياً في اللفظ إلى ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد. إلا انها تبقى أحياناً وسيلة لجذر معاني الكلمات مثل ترين في التدمرية فهي تعني إثنين. ولا ننسى ان السريانية الشرقية (النسطورية) ابقت إلى حد ما بعض ملامح الآرامية وهي الالف آخر الكلمة. بينما احتفظت السريانية الغربية (اليعقوبية) باللاحقة الواو والتي نعتبرها ترخيم التمويم الاكادية الوسيطة وليست ابدالاً لصوت الالف.

٣-آرامية معلولا وبخعة وجبعدين (جب عدين):

المشكلة الكبيرة بهذه اللهجة أنها غير مكتوبة لكننا نركن إلى لهجة بخعة وجب عدين أكثر من معلولا إلى حد ما، وذلك كون الاولتان نائيتين من الدخيل لما للأخيرة أي معلولا من إتصال دائم مع الغرباء والسياح لقدسيتها. هذا إذا علمنا ان فقهاء العدنانية لم يأخذوا عن أهل مدينة الطائف خوفاً من الدخيل.

٤-اللهجة العدنانية:

كذلك فإن العدنانية نقطت وشكلت في القرنين السابع والثامن الميلاديين اي بعد السريانية وقبل العبرية.

لكننا نحترم اولئك الذين حافظوا عليها من الدخيل، فلم يأخذوا إلا من منطقة محدودة جغرافياً: الخط الشمالي من شط العرب وحتى خليج العقبة والخط الجنوبي، جنوبي مكة بمسافة لا تتجاوز المائة كم. حتى انهم كما ذكرنا لم يأخذوا من أهل الطائف التي لا تبعد عن مكة أكثر من ٤٠ كم.

لقد حرمونا كثيراً من الكلمات خارج هذا النطاق شمالاً وجنوباً سواء من ناحية بلاد الشام أو العراق وكذلك مصر وشمال افريقية وحتى اليمن.

ومع ذلك، اعطونا هذا الكم الهائل من الكلمات التي حافظت على جذورهاالثنائية والثلاثية.

علماً اننا لن نأخذها أساساً في اللفظ أيضا كي لا نتهم بالشوفانية (من شوفان) رغم رأي دوبون سومر عالم الآراميات ،أن للعدنانية والآرامية مصطلحات لغوية وألفاظاً مشتركة وأن الآرامية هي أقرب للعدنانية منها للعبرية.

إلا انه مهما تجاهلنا العدنانية من ناحية اللفظ (رغم تأكيد دوبون سومر عليها) لكننا لا نستطيع تجاهلها من حيث معاني الكلمات التي حوتها معاجمها ولا سيما معجم لسان العرب لابن منظور.

٥ ـ اللهجات على امتداد الوطن العربي:

نستطيع الاعتماد عليها من حيث المعاني للكلمات واللفظ إلى درجة معقولة حيث لهجاتنا العربيات العامية هي بقايا الأكادية والعمورية / الكنعانية والآرامية وخلافها وليست تطورا للعدنانية فقط كما كان يدعى/ ومع ذلك فقد تطورت هذه العاميات أيضاً على مر السنين.

٦ ـ الوزن الشعري أو السجع إن وجد:

نذكر من ذلك ما جاء في الامثال الاجاريتية ما نصه:

إم يصدق بيرشيني   تم ! أني ويّا عقشيني

ونذكر المثل العامي المتواتر إلى الآن:

دن° دن° يا دنّه°   كل مِين° ياخذ من دنّهُ°

سنأتي إلى تفصيل ذلك فيما بَعد

٧ ـ أسماء المدن والقرى والانهار والاماكن:

ففي بلاد الشام آلاف الاسماء للمدن والقرى والانهار والجبال والبقاع والاماكن .في (سورية) فقط ١٠٠٠٠ اسم لمدن وقرى ومزارع (٢٤) عدا الجبال والانهار، منها ٥٠ ٪ تقريباً أسماء قديمة، جرى التواتر على لفظها منذ بداية العصر التاريخي جيلاً بعد جيل على مر السنين والأيام. فكلمة دمشق مثلاً قد سميت بـ دِمَشْق منذ نشوئها ولم تكن في يوم من الايام دماسك أو دمسك أو خلاف ذلك بل هي دمشق، وهكذا إسم قاسيون وقلمون وكفرون وحرمون وتدمر ودمر ودميرة وبيروت ومصر وعرب صاليم ومكا وحرستا وقرحتا وبردى ويبرود وجيرود ومزة وأرزة وبرزة وراقودا وكفر بطما والكفر. ويعفور وصبرا وصبورة وشقوقا فهو تواتر دائم يمكن ان نركن اليه ونحترمه. وبهذا ، وفيما إذا وصلنا إلى معاني هذه الكلمات فيمكننا ان نؤلف معجماً عمورياً كنعانياً آرامياً ممتازاً.

وسائل اللفظ المقترحة:

ذكرنا ان اللفظ السليم لا بد من قراءته على معلم لتشترك ثلاث حواس مع بعضها: سماعاً بالاذن ونظراً بالعين ونطقاً باللسان، وكما قلنا، ولتصحيح عمليات النطق واللفظ للوصول إلى طريقة تتصف بالعلمية المنهجية قدر الامكان، فيجب ان نتبع ما تيسر لنا من الآثار اللغوية التالية:

١ـ اسماء المدن والقرى والاماكن الجغرافية.
٢ـ الوزن الشعري او السجع إن وجد
٣ـ اللهجات العامية وبتحفظ كبير.

التفصيل:

وسيلة اللفظ الاولى:

فبأسماء المدن والقرى والاماكن الجغرافية على امتداد الوطن العربي وفي جغرافية [الآرامية الامبراطورية] الممتدة من السند إلى الاطلسي شرقاً وغرباً، ومن الممالك الآرامية وحتى أسوان شمالاً وجنوباً، نستطيع الحصول على لفظ سليم بهذه اللهجات بشرط أن نعرف معاني هذه الاسماء الجغرافية.

لقد ثبت لدينا، في الخبرة لا الخبر، ان اسماء هذه المدن والقرى والاماكن تحمل دلالات ثلاث لا رابع لها.

١ـ أسماء ذات دلالات طبيعية مثل: قاسيون ـ ميسلون ـ قلمون ـ كفرون ـ حرمون ـ جسرين ـ بردى ـ يبرود ـ صوبا ـ شقوقا ـ دمشق.

٢ـ أسماء ذات دلالات عسكرية: حرستا ـ قرحتا ـ بقرحا ـ ماري ـ دمر ـ دامور ـ دميرة.

٣ـ أسماء ذات دلالات دينية مثل: بابل ـ ببيلا ـ سرجلا ـ بليرمون ـ قدسيا ـ هابيلا .

المنهج:

قبل البدء بتجريب تفسير هذه الاسماء لابد من الاشارة إلى قانون علمي هام للمنهج التجريبي:

يقول ابن حزم:

[والتجارب لا تكون إلا بتكرير الحال مراراً كثيرة جداً على صفة واحدة لا تستحيل ابداً، تكريراً موثوقاً بدوامه تضطر النفوس إلى الاقرار به].

ويقول ابن البيطار المالقي:

[فما صح عندي بالمشاهدة والنظر، وثبت لي بالخبرة لا الخبر، إدخرته كنزاً سرياً وعددت نفسي عن الاستعانة بغيري فيه، سوى الله غنياً (اي انه بهذه الحالة لن يستعين بأحد سوى الله). وماكان مخالفاً في القوى والبيئية والمشاهدة الحسية في المنفعة والماهية للصواب والتحقيق، وان ناقله او قائله عَدَلَ فيه عن سواء الطريق، نبذته ظهرياً، وهجرته مليا وقلت لناقله أو قائله لقد جئت شيئاً فريا] (٢٥)

قبل البدء ايضاً لابد من التذكير بالقواعد التالية:

١ـ ان جذر الكلمة يجب ان يكون ثنائياً او ثلاثياً. وإن كان رباعياً او خماسياً فقطعاً تكون

الكلمة مركبة، قد ننجح بمعرفتها او لا ننجح.

٢ـ من اشهر اللواحق الكنعانية هي الـواو والنون مثل : صيد = صيدون ـ خالد = خلدون ـ قاسي = قاسيون ـ حرم = حرمون.

٣ـ من اشهر اللواحق الآرامية اداة التعريف الالف بآخر الكلمة مثل:

البرد =بردا (بردى) ـ الحارسة =حرستا ـ الشقوق = شقوقا

٤ـ اللاحقـة الآرامية (ين) أداة جمع في حالـة النكرة مثل: شمسين ـ جملين ـــ جسرين ـ ماردين.

٥ـ الـلاحقة الآرامية (يا) أداة جمع في حـالة التعريف حيـث الالف تأكل النـون وتخفيها مثل: قدسي = قدسين جمع تعريفها قدسيا أي القدسيين.

٦ـ السوابق: ذا ـ ذو ـ ذي / دَ ـ دُ ـ دِ / زَ ـ زُ ـ زِ / تا ـ تو ـ تي/ وشا وشو وشي*.

٧ـ السابقة (الباء) وهي ترخيم لكلمة بيت مثل: بملكة = بيت ملكة.

٨ ـ عرفـت بعض الاسماء بصيغة الفعل فـأقول: زاد تزيد يزيـد ـ غلب يغلب تغلـب ـ ناخ ينوخ تنوخ.

التفسير:

الاسماء ذات الدلالات ا لطبيعية:

ـ قاسيون: قاسي + ون = قاسيون وهو بالفعل جبل قاس ليس فيه نبع أو عين ماء« ونحن نعلم بـأن الجبال هي خـزانات مياه وقـاسيون هـو جبل دمشق، اي لاسـم قاسيون مـدلول طبيعي.

ـ ميسلـون: بدون (ون) تكـون ميسل وهـي تصغير مسيل وهـي منطقة دائمـة السيلان بالمياه ٣٠كم غرب دمشق (وبهذا المسيل وروابيـه جرت معركة ميسلون الشهيرة) أي للاسم مدلول طبيعي.

ـ قلمون: قلم ـ قلمـون ـ هي ثلاثة اقلام من الجبال تتجـه شمال جنوب وفي القلم الغربي منها قرى معلـولا وبخعة وجبعدين (جـب عدين) وكلمة قلم ليسـت يونانية كما كـان يظن بل وردت في قامـوس AKKADIAN DICTIONARY بمعنـى أداة للنقش وتعنـي عملية تقليـم الاشجار ايضا. اذن الاسم ذو مدلول طبيعي.

ـ كفرون: كفر ـ كفرون ـ كفر في اللغة تعني غطّى ولها مدلول دينِي بمعنى غطّى الحقيقة. والكفر هو المنطقـة الجرداء التي زرعت فغطيت بـالاشجار ومنها الكفّار بمعنـى الزرّاع جاء في القرآن الكريم سورة الحديد[٢٠](٢٦).

[كغيـث يعجـب الكفّـار نبـاتـه] أي مطـر يعجـب الـزراّع نبـاتـه كما جـاء في سـورة آل عمران[١٩٣](٢٧).

---

* ـ شا في الاكادية بقيت لتعني (ذا، ذو، ذي)، أما شي و شو، فقد اخذت مدلول هي وهو (شي=هي، شو=هو)

﴿ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفِّر عنا سيئاتنا﴾ (أي غطي عنا سيئاتنا).

وإن انتشرت الاسماء والكفور في مصر فلا ننسى الآرامية الامبراطورية في القرن السادس ق.م على أدنى حد والتأثير العموري الهيك سوسي في القرن ١٨ق.م.

وفي عملية اللفظ في كفر فلدينا الألفاظ التالية : كفر العواميد ــ كفير الزيت ـ كفر بطنا (بطما) وجميعها قرى حول دمشق. والكفرة في ليبيا. أي أسماء كفر ـ كفرون ذات مداليل طبيعية أيضا.

ـ جسرين: اسم قرية بغوطة دمشق جذرها جسر والياء والنون صيغة جمع النكرة في الآرامية فيصبح معناها جسور وفعلا نجد في هذه القرية خمسة جسور لنهر بردى وأفرعه وهي:

من الجنوب إلى الشمال: جسر بردى ـ جسر الملك ــ جسر الزابون ـ جسر جعيطة ـ جسر الداعياني.

ـ بردا (بردى): الألف أداة التعريف الآرامية فيصبح معناه البرد من البرودة. مدلول طبيعي.

ـ يبرود: جذرها برد اسم بصيغة الفعل مصغر وهي بلدة بجبال القلمون الغربية، باردة الطقس ذات مدلول مناخي طبيعي.

ـ جيرود: بلدة تبعد عن يبرود حوالي ٣٠كم وهي تقع في بادية الشام، أراضيها ذات طبيعة جرداء من الناحية الزراعية، فهي ذات مدلول طبيعي. وكم من المفيد ان نلاحظ الطباق بين يبرود وجيرود تماما كما في مزة وبرزة قرى حول دمشق.

ـ صوبا: ذات مدلول طبيعي ايضا ،سميت بهذا الاسم منطقتان الاولى غرب دمشق تبدأ من هابيلا (سوق وادي بردى) وحتى سهل البقاع ويقال أن مكان عاصمتها هي عنجر اللبنانية. جذرها (صب) والالف اداة تعريف وهي منطقة ذات خطوط مطرية تصل حتى ٨٠٠مم في السنة علما ان دمشق مطريا تصل إلى ٢٥٠مم. والثانية ،منطقة صوبا غرب حمص، والسوريون يعرفون كمية هطول الامطار في المنطقة مابين تل كلخ وصافيتا وطرطوس فيصبح معناها الصوب /صوب/ صيب/ من فعل صبّ (أي سكب)، صبّ الماء سكب الماء في الكأس، جاء في القرآن الكريم: ﴿أو كَصَيِّب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق﴾ منطقتان مشهورتان بكميات امطارهما وتعتبران من المناطق الاكثر هطلا في كافة انحاء سورية.

ـ شقوقا: منطقة في صوبا بأراضي ميسلون ومعناها الشقوق، ان ميكانيكية التربة في تلك المنطقة مختلفة كما انها ذات انفلاقات جيولوجية كبيرة، وعلى سبيل المثال فانك تجد بئرين الاول: في قمة الجبل ١٢٦٣ متر عن سطح البحر، ومستوى مياهه عن السطح الطبيعي لاتتجاوز ٥٠ مترا، ويبتعد بئر اخر عن مكان البئر الاول و لمنطقة منخفضة وتبعد ١٠٠ متر

عنه فإن مستوى المياه الجوفية فيه تبلغها على عمق ١٣٠ مترا .فهي ذات مدلول جيولوجي طبيعي.

ـ دمشق: جذرها رباعي [د م ش ق] إذن هي كلمة مركبة فإذا حذفنا السابقة د(من ذا و ذو و ذي/ودَ ودُ ودِ) نحصل على جذر الكلمة مشق. نبحث عن معنى مشق فنجده يحمل معنى أنتج /نما/ فهي أرض النمو والإنتاج و(د) واضحة المعنى (ذي) مشق مستعملة في العامية الزراعية بدمشق فتقول النسوة مشقت أغصان الملوخية أي أنتجت ما في الغصن من أوراق. ومع ذلك، هذا لايكفي فلدينا الآن دليل لغوي فقط، لكن إذا نظرنا إلى مياه دمشق الجوفية من خانق الربوة وحتى المصب في بحيرة العتيبة نجدها بين الـ٨أمتار والـ ١٨ مترا فقط.

كذلك نجد أن في «السابقة الدال(د)» في كل من الاسماء التالية: دمشق ــ دمياط ـ دِسوق (وليس دُسوق) هكذا يلفظها أهلها ودمشقين وهي قرية جانب الفيوم يصفها ياقوت أن فيها بصل كالبطيخ (من خصوبة الارض)(٢٨) ودمقش(٢٩) في دلتا النيل وهي قلب مكاني لدمشق ودِ روما ودجرجا (ياقوت الأولى ص ٢١٥ والثانية ص٣١٨).

سبعة بدايات توافر فيها التكرار لهذه السابقة (د) أما اسم مشق كما ذكرنا فاننا نجده ايضا في كل من:

دمشق ـ دمشقين (وهي صيغة جمع آرامية لدمشق) ودمقش ـ مقش كما قلنا قلب مكاني لـ مشق.

وأخيرا هناك قرية في محافظة اللاذقية ذات خصب ونمو وإنتاج اسمها مشقيتا جذرها أيضا مشق وتطورها اللغوي: مشقة= مشقيت (يت لاحقة كنعانية قديمة) مشقيتا . وهناك شجر يسمى جَرْ مَشق وهو شجر ينتج من مائه السكر(٣٠). وهنا حسب المنهج التجريبي نجد التكرار في جذر مشق ٥ مرات أيضا فاسم دمشق ذو مدلول طبيعي أيضا.

ولنأتي الآن إلى الاسماء ذات الدلالات العسكرية:

حرستا: جذرها حرس والتاء للتأنيث والالف أداة تعريف آرامية إذن معناها الحارسة. وهي عبارة عن نقطة مراقبة أولية لمدينة دمشق من الجهة الشرقية الشمالية يقول (محمود محفوض) في تاريخ حرستا ان حرستا لم تنج يوما من الحروب(٣١) حيث أنها على الطريق الشمالية الشرقية وهي ذات ممر اجباري استراتيجي وحرستا المنظرة أي للمراقبة بدأت فيها حروب احتلال دمشق أكثر من مرة.

وهناك حرستا اخرى من قرى حلب فيها حصن عظيم ومياه غزيرة(٣٢) فاسم حرستا ذو مدلول عسكري.

قرحتا: بمعنى القرحة، الذبحة ذات مدلول عسكري.

بقرحا: بمعنى بيت القرح أي بيت الذبح، وهي قرية من قرى محافظة ادلب شمال سورية

في جبل باريشا فهي قرية مبنية داخل اضراس صخرية ترتفع بين ٣٠ـ٧٠سم وهي موانع عسكرية طبيعية ضد الافراد والفرسان.

ماري: جذرها (مر) ،ومعنى المر القوة، جاء في القرآن الكريم [ذو مرة فاستوى](٣٣) أي ذو قوة فاستوى، ومعنى ماري هنا بمعنى القوي ـ الماري. وقد سمي المرّ مراً لقوة طعمه وسمي الممر ممرا للقوة التي عملت به ليصبح ممرا وسمي السيد بالسريانية مار لان من صفات السيد القوة أي الماري بمعنى القوي، اسم ذو مدلول عسكري. ولاننسى أن في الامارات العربية بلد اسمها ماري.

تدمر: جذرها دَمَر، ومعنى دمر في لسان العرب دمّر حيث التشديد (التكرار) يفيد التأكيد. وقلنا ان العربيات عرفت الاسماء بصيغة الفعل:

فأقول زاد تزيد يزيد الخ... وهنا دمر يدمر تدمر فهي المدينة التي تدمر. لم لا حيث لايصلها لوعورة طرقها وانقطاع الماء بطرقها الشرقية والشمالية والغربية والجنوبية، علما أن طول المسافة لاقرب مدينة منها ينوف عن الـ ٢٠٠كم، فهي المدينة التي تدمر عدوها، وقد بقيت عاصمة البادية بعد دمار ابلا لفترة طويلة. وقد ذهب الى هذا التفسير أيضا شاعرنا المتنبي (٣٤).

دَمَرْ: الاسم القديم لمدينة دورا اوروبوس. وقد اعتبر البعض أن اسم دمر فيه إبدال بين الواو والميم وبذلك أصبح اسمها السابق (دور) دَمَرْ، ولا أظن ذلك: حيث لم أجد مثيلا لهذا الابدال في العربيات من الاكادية وحتى السبئية.

دُمَّرْ: تقع غرب دمشق، في خانق جبلي، يقطعها نهر بردى وهي مركز استراتيجي عسكري دفاعي هام لدمشق، وهي الممر الاجباري لدمشق غربا لعشرين سنة خلت. جذرها دمَرَ أيضا وتحمل معنى التدمير. ذات المدلول العسكري.

دامور: جذرها دمر وهي على وزن فاعول وفاروق وحاسوب وطاروق (مدلول لساقية الماء عند السقاية) وناقور* تقع في لبنان على الساحل الكنعاني. زرتها سابقا لكني لا أتذكر موقعها تفصيلا وأظن أنها الآن موقعا حصينا لقوات الجبهة الشعبية الفلسطينية ومنطقة الناعمة تابعة لها.

أما الاسماء ذات الدلالات الدينية فاظنها معروفة لدى الكثيرين لكن لابد من التذكير بها:

بابل: كلمة مركبة من باب بالاضافة الى ئيل (رب الارباب) فهي تعني باب الله. ئيل في القواميس العدنانية هو الله.

ببيلا: كلمة مركبة من باب بالاضافة إلى اللـه فبالادغام اصبحت ببيلا وهي قرية جنوب دمشق. وفي عاميتنا نقول(بابَلّلا).

* ـ هذا الوزن فاعول موجود بالقرآن الكريم في سورة المدثر بكلمة ناقور، ﴿فاذا نقر في الناقور﴾ ٨. ٧٤

سرجلا: قرية في محافظة ادلب، مركبة من سراج بالاضافة الى اللـه فهي سراج الله*. ذات مدلول ديني.

بليرمون: جذرها [ب ل ر م ن]خماسية إذن هي كلمة مركبة، يذهب محمد محفل ليفك هذا التركيب فيجد انها مؤلفة من: بـ (ئيل رم ون) أربع مقاطع فالباء ترخيم بيت كما في بقرحا وئيل هو الله ورم بمعنى العالي والواو والنون لاحقة كنعانية فيصبح المعنى بيت الله العالي.

[بـ ئيل رمون] ثم اصبحت بالادغام بليرمون وهي منطقة من مناطق حلب.

وبعد، لقد رفضت المدرسة التوراتية تفسير اسماء العلم لخطورتها على لسان بول قال: درايفر في مقدمة قاموس HEBREW AND ENGLISH LEXICON OF THE OLD TEST-MENT الذي أشرنا اليه سابقا. أي قاموس جيزنيوس.

يذكر درايفر: [ولاسباب مماثلة لم يرغبوا في اتباع طريقة بُوْل BUHL بالنسبة لاستبعاد وحذف تفاسير اسماء العلم رغم خطورة مثل هذه التفاسير](٣٥) أي أن بول نصح في استبعاد تفاسير اسماء العلم كاسماء المدن والقرى لكن مجموعة درايفر لم ترغب في ذلك رغم خطورة مثل هذه التفاسير. (ومع ذلك لم نجد شيئا على الساحة اللغوية الجغرافية حتى الآن على مانعلم). هناك البعض لكنه واهٍ.

نعم، هناك خطورة لدى التوراتيين في تفاسير الاسماء لان قواميسهم والفاظهم لن تلبي الحاجة ولانهم بحاجة لاستعمال القواميس العدنانية والتي تكمن فيها الخطورة والاعتراف بالعدنانية.

إن ٩٥٪ من تفاسيرنا لاسماء القرى والاماكن العمورية الكنعانية الآرامية التي اتينا عليها كان من القواميس العدنانية ولاسيما قاموس لسان العرب لابن منظور رغم رجوعنا إلى كافة القواميس الاخرى من عبرية وسريانية ويونانية .

وعود على ذي بدء مرة اخرى، فالاسماء الانانية للمدن لم تعرفها العربيات، لهجات المنطقة ك بحيرة فكتوريا والاحمدية مثلا، انما وجدت هذه الاسماء الشخصية الانانية مع بدايات الفتح المقدوني وسياسة تغيير الاسماء، فأطلقوا اسم انطاكية على دفنا واللاذقية على راميتا وطرطوس على قرنا والاسكندرية على راقودا وبروا على حلب وابيفانيا على حماة وفيلادلفيا على عمان وبا لميرا على تدمر ودوماسكوس على دمشق وهكذا.

وعند الفتح العربي العدناني الاسلامي أعاد أهالي البلاد (وليس العرب العدنانيون) اسماء هذه المدن إلى سابق تسميتها بعد استعمار دام زهاء الالف عام.

وفي ختام بحث اسماء المدن والقرى وتطبيقا للمنهج التجريبي ولزيادة الحيطة، فلا بدلنا لتحقيق هذه الاسماء بمعانيها والفاظها من شرطين:

---

* ـ لفظ الجلالة اللا (الله) موجود بالارامية في الاسم الارامي لمدينة رام الله في فلسطين، وهي ذات مدلول ديني بمعنى علوة الله (ارتفاع الله) من كلمة عالي، ونستعملها بعاميتنا بلفظ (اللا).

١ـ اتمام الـزيارة الميدانيـة من المحقق لهذه الامـاكن للتأكـد من المعنى ان كـان طبيعيا ام عسكريا ام دينيا.

٢ـ ومن شروط معنـى الكلمة وتحديدها، انها إذا وضعت في الجملة يجب ان تعطــي اتساقا في النص والجملة، لتعطي جملة مفيدة.

أما الجملة لتفسير اسماء المدن فهي أن تتسق وتنسق ضمن قانون اسماء المدن والاماكن، طبيعيا أو عسكريا او دينيا بمـدلولاتها الثلاثة وإن خرجت عن هذه المداليـل الثلاثة فالتفسير يكون مرفوضا..

وسيلة اللفظ الثانية:

إن الوزن الشعري كثيرا مـايساعد على تسكين ماكنا نظنـه متحركا أو تحريك مـاكنا نظنه ساكنا وتشديد (تكرير) ماكنا نعتبره عاديا أو مد ماكنا نعتبره حركة بسيطة او العكس.

لقد ورد في تراث الامثال الاجاريتية:

ʾim ʾeṣdaq pi yarši ʿeni

tām ʾāni wayya ʿq ʿšeni

إم ي ص د ق ب ي ي ا ر ش ي إ ن ي

ت ا م أ ن ي و ا ي ي ا ع ق ش ي ن ي

نقرأها: إم يصدق برشيئني تم! أني ويّا عقشيني [عقش تعني جمع]

اللفظ لايستقيـم شعريـا في كل من يـرشيئني وفي أني بل يجب ان تـدغم همزة يـرشيئني لتصبح يرشينـي مثل عقشيني. و[أني] يجب أن تشدد بها النون لتصبح انّي وبـذلك يستقيم اللفظ: ام يصدق بيرشيني تـم أنيّ ويّا عقشيني، تم في المصريات هو فعل إثبـات يراد به النفي (فعل استهزاء) (تريأه) وبذلك يصبح المعنى إم بمعنى إن.

إن يصدق بيرشينـي، تمام (تم) أني وإياه اجمعني (لاحـراجه)، مثال آخر في لفـظ السجع لكنه متوارث سمعا ونظرا ولفظا عن السبئية في الحديث الشريف وأنا سمعته من مفتي سورية الشيخ أحمد كفتارو. أي أن اللفظ وصلني سماعا وليس قراءة فقط.

جاء رجل من اليمن وسأل النبي (ص) قال:

هم منم برم صيامن فيم سفر

فأجابه النبي (ص):

ليس منم برم صيامن فيم سفر

أي: هل من البر صيامٌ في السفر

كان الجواب: ليس من البر صيام في السفر

جاء في كتاب مختارات مـن النقوش السبئية لبافقيه وزملائه، أن اداة التعـريف في السبئية هي النون كلاحقة ، وأن أداة التنكير هي الميم كلاحقة ايضا.

لنرجع إلى النص ،فمن ملاحظة بسيطـة، يتبين أن الميم وصلت في نهايات الكلمات كلواحق إنما في واقع اللفظ هي سوابق للكلمات التي تليها فتصبح كتابتها:

هم من مبر مصيامن في مسفر

ليس من مبر مصيامن في مسفر

يقابلها اللفظ بالعدنانية بكتابة عروضية.:

هل من لبر لصيامن في السفر (اللام في السفر شمسية لا تلفظ)

ليس من لبر لصيامن في السفر (اللام شمسية لا تلفظ)

هذا فعلا ماننطقه بحالة الوصل أثناء التعريف بالعدنانية.

فأقـرأ :قرأت في لكتـاب. لكن نكتبها حسـب (اصطلاحنا) العـدناني الامـلائي (في الكتاب) لكننا لانلفظ الالف والتي هي في المدرسة البصرية الـ : الالف للتنبيه واللام للتعريف.

إذن، نلاحـظ نقض نظرية بـافقيه (الا ان كانت مـوجودة في السبئيات الاقدم كـالحميرية.

ومما يؤيـد ماذهبنا اليه في ان الميـم هي سابقة للتعريـف وليست لاحقة، هو مـاجاء في آرامية معلولا فنقول:

زنبل خلبا أو زنب لخلبا

بمعنى ذنب الكلب وتلفظ بدون الف ذنب لكلب، وإذا اسقطنا السبئية عليها تصبح زنب مخلبا او زمبم خلبا.

وبهذا تكون الميم السبئية ابدال لـ لام التعريف (حسب المدرسة البصرية كما ذكرنا).

من ذلـك نلاحـظ أن سلامـة اللفظ التـي وصلتنا نستطيـع أن نفسر اشياء كثيرة وبـدون سماعها ولفظها لغاب عنا الكثير في فقه اللغة.

وما نريد من هذا المثال أيضا، أن قراءاتنا وقراءات المستشرقين للنصوص لا تستوفي ماكان عليه السلف، أصحاب الاكـادية والكنعانية والعمورية والآرامية والمصريـة والسبئية، وبالتالي غاب عنا لفظها حيث فقدنا السمع.

وسيلة اللفظ الثالثة:

اللهجات العاميـة على امتداد الوطن العـربي: في هذه اللهجات وهذه الطـريقة يجب التحفظ بصورة كبيرة.

ورد في المثل العامي مانصه:

دن دن يادنه كل مين يأخذ من دنّه

نعرف أن أكثر معنى شائع في الآرامية لكلمة دنّه هو (الذي) ذا إنه لكن من سياق هذا المثل

نجد أن دنه الاخيرة تعني مثيله

اللذي اللذي يا الذي كل مين يأخذ من دنّه (أي مثيله)

وهنا نرى أن جذر دنـه هو دن، ودن هي قلب مكاني لكلمة ند الثي تعنـي مثيل، لذا أصبح لدينا معنى آخر لدنه والتي وردت في الكتابات القديمة (زنه) بمعنى (زا إنه).

ودنه بمعنى (د انـه) بالنبطي وتعني (ذا إنه) أمـا دنه الاخيرة فهي من نـده مثيله فتصبح بالقلب دنه.

هذا المعنى الجديد واللفظ الذي حصلنا عليه من العامية ساعدنا في قراءة التعرفة الجمركية التدمرية فقد جاء مانصه:

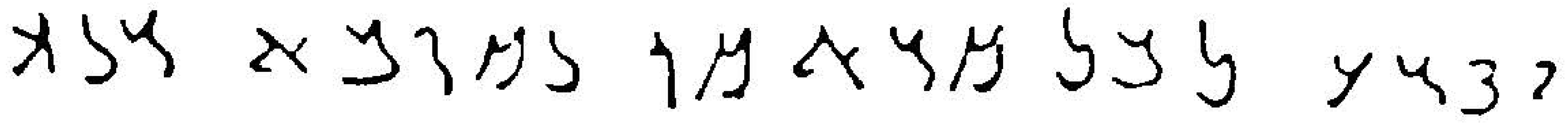

سطر ٧١   ي ف ر ع   ل ك ل   م د ا   م ن   ن م و س ا   د ن ه

يفـــرع   لكــل   مــدا   مــن   نـامـوسـا   دنــه

أي : يفـــرع   لكـــل   مـــدا   مـــن   النـامـــوس   مثلـــه

و سطر آخر

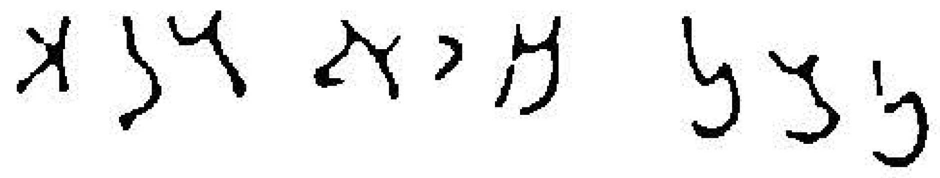

سطر ٨٤   ل ك ل   م ي ا   د ن ه

لكــل   ميـــا   دنــه

أي : لكـــل   مئـــة   مثيـــه

ونقول في اللهجـة العربيـة العاميـة الحلبية [أنا ، كـه] كتبت في الكتـابات القـديمة (أن ك) ولفظوها (أناكو) بمعنى أنا، لكن تواتر اللفظ وسماعه فسر لنا معناها وصحة لفظها.

ومن تراثنا الغنائي العامي نجد أغنية:

عل يادي الـ يادي الـ يادي (ويادي تعني وادي)

منها نقول في إبدال الواو ياء:

يهب بمعنى وهب، ويتر بمعنى وتـر ، ياقوصة بـ واقوصه وكـذلك يادي بمعنى وادي وهي أغنية مـن أقدم الاغاني إذا ماعـرفنا ان مملكة يادي الآراميـة التي عاصمتها شمـأل تقع فيما يسمى اليوم لواء اسكندرون وفيها الوادي اللاخ الوادي العميق، وادي العمق.

بذلك نكون قد حددنا لفظ يادي من التراث الغنائي والمصنف تحت اسم اللهجات العربيات العامية.

بالاضـافة إلى إكتشـاف أقدم أغنية تاريخية عرفناها حيـة الاستعمال إلى الآن (كأغنية عبد

الوهاب ياجارة الوادي).

فيكون اللفظ يادي وليس ياؤودي حيث العبرة في اثبات الحرف بالنطق لا بالخط كما يقول ابن جني(٨).

ومن لهجاتنا العامية كلمة:

هيك بمعنى هكذا في بلاد الشام

وهاك بمعنـى هكذا في اللهجة العـربية البربرية الشلحيـة في المغرب العربي. جـاء في نقش البرازيل ١٢٥ ق.م: في النص:

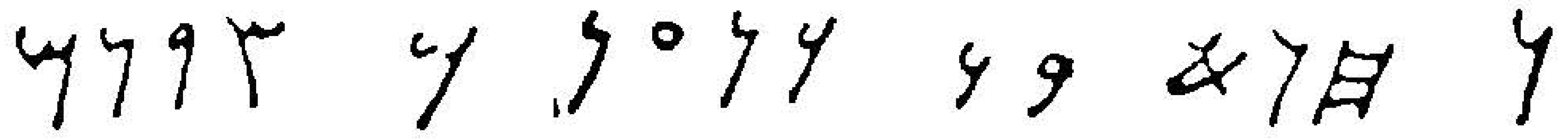

هـ ح ن ا ب ن ك ن ع ن م ف ر ن م

هـا حنـا بنـي كنعـان م فـرنـم

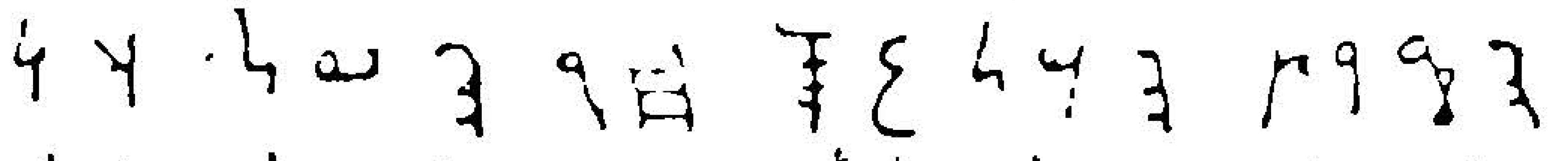

ح ق ر هـ ح م ن ا ش ح ر ح ص ل هـ ك

حـق قاريـه حمـل أوش حـر حصـل هـاك

هيـك

في اللسان لابن منظور: ١٥/١٧٨

أهل القارية للحاضرة وأهل البادية لاهل البدو

وجاءني من كل قار وباد أي كل متحضر وبدوي

قاريه: حضارة مدلول من قريت او قرتا بمعنى المدينة

فيصبح المعنـى: ها نحن بنـي كنعان من مـدينة فرنيـم حملنا الحضارة، أليـس حرام أن يحصل بنا هكذا .

والامر الادهى مانقابله في مدرسة الكتابات المصرية القديمة، فقد ذهبت مدارس الاستشراق اللغوية للمصريـات باستعمالهم عمليات الكسر (الخفض) لاغلب الاحـرف الساكنة، متبعين في ذلك المذهب السنسكريتي اللغوي (حيث السنسكريتية من اللغات الهندو - اوروبية)، فمثلا كلمـة وَبَان بمعنـى أشرق تكتب وبـن، ولو فـرضنا أن كلمـة مَرْوَان مـدونة في الهيروغليفيـة ( )بـدون أحَـرف صـوتيـة م ر ن فسيلفظـونها حسـب المدرسـة السنسكريتية مِرِنْ بدل مروان فذهب اللفظ والمعنى(٣٦).

ومن نافلة الأَمثلـة ماقرأه أحد المستشرقين الفرنسيين بحلب ١٩٩٢ بمـدرج جامعة حلب، لكلمة خبط وم، فقـد قرأها خباتوم، مـاذا نفهم من هذا اللفظ وهـذا النطق، قطعا لاشيء، إلا أن

حس المؤتمرين العرب في الندوة جعل أكثرهم ينـادون أن خباتوم هي خبط أي خبطوم، بمعنى الضرب، وهي كلمة تحمل معنـى العنف والقوة والضرب. وهي كلمة موجـودة لدى ابن منظور خبط ـ يخبط ـ خبطا أي ضرب ـ يضرب ـ ضربا شديدا(٣٧)، وهي فصيحة لكنها من الكلمات المهجورة في العدنانية (الفصحى). وظننا جميعنا في حينهـا أنها من العاميات المتوارثة التواتر. ومما يجعل تفسير خبط (وم) أنها تحمل معنى القـوة والعنف والضرب هي أنها كانت مسمى لفئة مقاتلة مرتزقة في منطقة الخابور.

ثانيا: مشكلة الاعتماد على ٢٢ حرفا لتمثل ٢٩ صوتا:

في هذه الحالـة، يغيب لدينـا شكل ٧ أصوات، انما، ومـن المرجح، أن هذه الاصـوات ممثلة بأحد الاحـراف السابقة. وبذلك تمثل بعـض أشكال الاحرف الـ٢٢ صوتين أو ثـلاثة أصوات كما هو جلي لـدينا في حرف الجزم (بشكـل حرف الحاء) فهـو يمثل (ج، ح، خ). وكذلـك الدال والراء في الآرامية .

والدليـل الثاني على وجود أكثـر من ٢٢ صوت، ماورد في الابجـدية المسمارية الاجـاريتية والتي مثلت كل صوت بشكل حرف مستقل تقريبـا. ففي الابجدية الآرامية، نرى غياب سبعة أصوات:

الغين	الخاء	والضاد	الذال	الظاء	الثاء	الهمزة
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧

وقد يتبادر للـذهن أن الاحرف التي ندعـي غيابها أوجدتها عبرية الماسوريين الـذين أخذوا بعضـها من السريانية مثل:

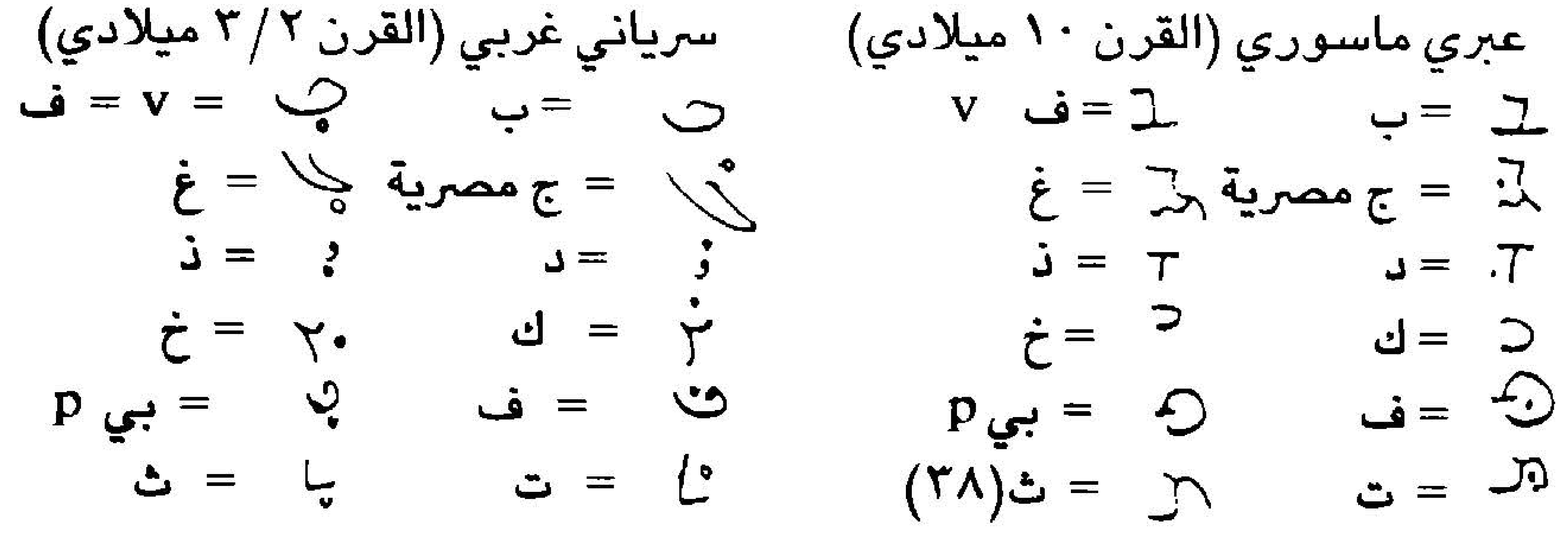

هذا الامر نشـك في صحته (بالعمق التـاريخي) لهذه الابدالات، ولو أوجدت العبريـة بعض القواعد للفظ الكاف خاء على سبيل المثال حيـث طبقت القاعدة المستحدثة على اللفظ ولم يطبق اللفظ ليصبح القـاعدة، ونجد ما يخالف ذلك في التعـرفة الجمركية التدميريـة على سبيل المثال فقد جاء في السطر ٤٦+٤٧ في عملية جباية الرسوم على بنات الهوى مايلي:

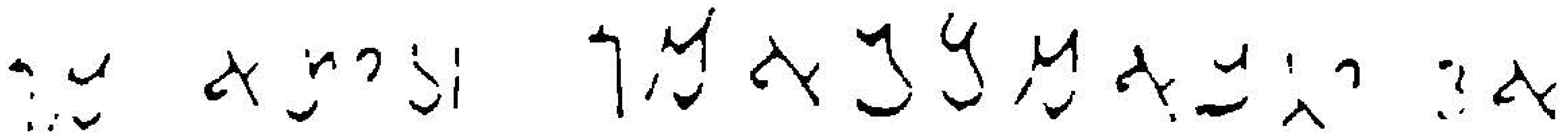

ا ف ي ج ب ا م ك س ا م ن ز ن ي ت ا م ن

أوف يجبى مكسا من زانيتا مـنْ

م ن د ي ش ق ل ا د ي ن ر (أو) ي ت ي ر

مَـنْ دي شقـلا دينـر أو يتيـر

د ي ن ر ا ح د م ن ا ت ا

دينـارا حـد مـن آتيـا (٣٩)

الكلمات العربية الميتة الاستعمال في هذا النقش:

١ ـ أوف بمعنى ايضا. نجدها باقية فقط في تراثنا الغنائي.

٢ ـ شقلا: شغلها.

٣ ـ يتير: يزيد: جاء في سورة محمد الآية[٣٥](٤٠) ﴿فلا تهنوا وتـدعوا إلى السلم وأنتم الاعلون واللـه معكم ولم يتركم اعمالكـم﴾. يتركم اعمالكـم أي: ينقصكم اعمالكم.، وهـي من التضاد مثل ما جاء في الارامية: عسر = يسر، عشـق= ظلم، بغض، وشب = وثب = جلس(٤١).

يصبح المعنى: [ايضا يجبى المكس من الزانية مِنْ مَنْ التي شغلها دينار أو يزيد دينارا حد من الآتية (هذا العمل)].

هنا نقف قليلا لنرى، هل شقلا من (الثقل والشقل) بمعنى الاجر ام شقلا من الشغل. أم لا هذي ولاتلـك ،وأن أصل كلمـة شغل هـي الشقل أم العكـس. وان كانـت الاخيرة فهل صـورة القاف في التدمرية تمثل ايضا صوت الغين.

= ق = غ مثل: = د = ر

أمور تحتاج إلى دراسة وتمحيص من قبل الباحثين العرب:

ومن التصحيحات في اللفظ التي نرى فيها مجال القرار والقطع هي:

حَرَمون وليس حرُمُوْن

مثل قاسيون وكفرون وميسلون وعجلون وكلها مثـل خلدون هكذا لتواتر لفظها جيلا بعد جيل وهكذا ينطقها سكانها.

كذلك كلمة جبيل وليس جبلا

ومملكة يادي وليس ياؤودي، لانزال نستعملها في تراثنا الغنائي عل يادي. . . بمعنى وادي وهي مثيل: وهب ويهب، وتر ويتر ، واقوصة وياقوصة، وكذلك كلمة [أنا، كه] أنوك أو خلافها

أي توكيد لانا (أنا أكهني) أنا اقشعني - أنا انظرني امامك انا هنا، أنت في الاكادية [أنا، كو] وهو لفظ قريب من المقترح.

ومن نافلة القول، أن نذكر بأن صوت الضاد لمسناه في الكنعانية في نقش [بيض ملك] والمعروف بنقش بيحيميليك ،علما ان صوت الضاد أصبح وجوده في الابلائية أكيد بكلمات وضائم(٤٢)وحامضوم(٤٣) بمعنى وضوء وحامض.

ومع ذلك:

ولكأني استنهض اولئك العروبيين من قبورهم: أكاديين وعموريين وكنعانيين وآراميين وسبيئيين على اختلاف لهجاتهم، استنهضهم من قبورهم ليرنوا ويسمعوا كيف نتكلم ونلفظ لهجاتهم. وكأني أراهم يبتسمون استظرافا بلكنتنا في لهجاتهم. لكنهم سيغشى عليهم ضحكا حين يسمعون المستشرقين (علماء الساميات) كيف ينطقون لغتهم بلكنتهم (الجرمانية أو اللاتينية) ولعلي أرى فريقا آخر، ممن بعث من القبور، يقف مشدوها فاغر الفم، وكأن الامر لايعنيه، حسبانا منهم انهم يتكلمون لغة غير لغتهم.

وشكرا

المصادر والمراجع

١ ـ إذاعة الشرق وإذاعة مونت كارلو.

٢ ـ W. GESINIUS - Hebrew and Englih lexicon of the Old Testment Oxford, the Clarendon Press 1962.

٣ ـ عبد الملك: بطرس ورفاقه ـ قاموس الكتاب المقدس بلا تاريخ ص٧٦٢ .

٤ ـ أبو عساف ـ الآراميون طرطوس ١٩٨٨ ص١٥٥ .

٥ ـ اللسان لابن منظور ١٢/٧ أرض محروصة: أي أرض مرعية.

٦ ـ H.DONNER - W. RÖLLIC Kannaanäische und Aramäische inschriften. Band1 TEXT Wiesbaden 1971 P.P 1-2.

٧ ـ أبو عساف ، الآراميون ، ص٤٠ .

٨ ـ د. عبد المنعم عبد العال: معجم الالفاظ العامية ، مصر ، مكتبة الخانجي . الطبعة الثانية ص١٧ .

٩ ـ ابن حجر ، الاصابة في تمييز الصحابة ج٣ ، ص٥٩٧ عن د. محمد سعيد رمضان البوطي ، هذه مشكلاتهم ، دار الفكر ، دمشق ص١٨٤ .

١٠ ـ محمد علي مادون ، خط الجزم ابن الخط المسند ، دمشق ، دار طلاس الطبعة الاولى ١٩٨٩ ص ٢١٠+ ٥١ + ٥٣ شكل رقم ١١ .

١١ ـ المجلة البطريركية، العدد ١٠٣، آذار ١٩٩١ السنة ٢٩ ، دمشق ، غريغوريوس بولس بهنام العلاقات الجوهرية بين العربية والآرامية ص١٢١ .

١٢ ـ مادون الشكل ٢٣ ص١٠٧ .

١٣ ـ روسي بيير ،تاريخ العرب الحقيقي ، وزارة التعليم العالي ، دمشق ص١٨٥ .

١٤ ـ دوبون سومر ، الآراميون ، تعريب ناظم الجندي . راجعه د. توفيق سليمان، دار الاماني طرطوس ، طبعة اولى ١٩٨٨ ص١٣١ .

١٥ـ مادة كنع.

١٦ ـ بيير روسي ، ص٢٣ .

١٧ ـ اليدش خليط من البولونية والالمانية والروسية مع عبرية حديثة.

١٨ ـ العبرية المحكية الحديثة ، بداية القرن العشرين ، بيير روسي ص٢٣ .

١٩ ـ التوراة بالحرف الآرامي المربع سفري دانيال ص١٢٥٥ وعزرا ص ١١٨٤ .

תורה נביאים וכתובים

ت و ر ه   ن ب ي ا ي م   و   ك ت و ب ي م

BIBLIA HEBRAICA STUTGART 1937 P.1255 P.1284

٢٠ ـ عبد الملك بطرس ورفاقه ، قاموس الكتاب المقدس بلاتاريخ ص ٧٦٣ .

٢١ ـ فايز الداية، علم الدلالة العربي ، دمشق طبعة اولى ١٩٨٥ ص٢٤٥ .

٢٢ ـ فايز الداية ، المرجع السابق ص ٢٤٥

٢٣ ـ مشكلتا السريانية ق ٣ .

٢٤ ـ وزارة التخطيط السورية، المكتب المركزي للاحصاء، الدليل الهجائي للمدن والقرى والمزارع في سورية، سلسلة الدراسات رقم ٥٦ لعام ١٩٧٢، دمشق.

٢٥ ـ د. محمد السوسي ، العلوم العربية بالاندلس ونقلها الى أوربة ودورها في تطور العلوم، محاضرة في الندوة الدولية للثقافة العربية الاسبانية عبر التاريخ ، محاضر من تونس ، دمشق ١٩٩٠ ص٢ .

٢٦ ـ القرآن الكريم، سورة الحديد ، آية ٢٠ .

٢٧ ـ القرآن الكريم، سورة آل عمران ، آية ١٩٣ .

٢٨ ـ بطرس البستاني ، كتاب دائرة المعارف المجلد ٨ ، دار المعرفة ، بيروت ص٢٩ .

٢٩ ـ المرجع السابق، ص٣٣ .

٣٠ ـ المرجع السابق، المجلد السادس ص٤٣٩ .

٣١ ـ محمود محفوض ، تاريخ حرستا ، دار قتيبة دمشق ، طبعة اولى ١٩٨٨ ص٢٤ .

٣٢ ـ المرجع السابق، ص١٠ .

٣٣ ـ القرآن الكريم، سورة النجم ، آية ٥٨ .

٣٤ ـ د. عدنان بني، خالد الاسعد، تدمر، ص١٥.

٣٥ـ S.R.Driver, Preface, Vi

٣٦ ـ جورج مونان ، علم اللغة في القرن العشرين، ترجمة د. نجيب غزاوي وزارة التعليم العالي ، دمشق . G - MOUNAN. La Linguistique du xxe Siecle P.U.F, 1972, P.7 ص٤٨ .

٣٧ ـ ابن منظور، مادة: خَبَطَ

٣٨ محمد محفل ، مدخل الى اللغة الآرامية ، دمشق ١٩٨٧ ، ص٣٨ .

٣٩ـ . C.I.S., PII, T., III, P.P.35-37

٤٠ ـ القرآن الكريم ، سورة محمد ، آية ٣٥ .

٤١ ـ وشب بالآرامية تعني جلس، ووثب بالسبئية تعني جلس.

٤٢ ـ حميدو حمادة ، الصوت والتبدلات الصوتية في لغة ابلا ، ١٩٩٠ ، ادلب ص٢,

٤٣ ـ قاسم طوير ، أضواء جديدة على تاريخ وآثار بلاد الشام (تعريب) طبعة اولى ، دمشق ١٩٨٩ ، محاضرة عن بيليو فرانزا رولي ، ص٥٤ .

القضاء في المغرب والاندلس
منذ الفتح وحتى نهاية القرن التاسع الهجري

الدكتور علي أحمد
جامعة دمشق ـ قسم التاريخ

مقدمـــة :

يمثل القضاء بصورة عامة ركنا من أهم الاركان ، التي يقوم عليها بناء المجتمعات والأمم في كل زمان ومكان . فاذا كان القانون هـو الذي يحدد المسار العام ، الذي يجب على الجميع إحترامه والسير بمقتضاه ، فـان القضاء هو الـذي يشرف بأمانة على تطبيـق القانون ، ويجعلـه دوما يسير على الطريق القويم دون محاباة لاحد مهما كانت ظروفه ومواقعه وأحواله .

وقد ثبت بـالتجربة والبرهان والواقع ، أن الأمـم التي نجحت وأصبحت عبر تاريـخ الانسانية الطويل ذات مكانة مرموقة تحت الشمس لها وزنها واعتبارها الدولي ، ثبت أن وراء ذلك قضاءً نقياً طاهراً ، ليس عند أصحابه غير تطبيق القانون والتشريع على جميع أفراد الدولة والمجتمع .

وثبت ايضا أن وراء انهيار بعض المجتمعات وتأخرها عبر التاريخ حتى يومنا هذا كان القضاء الفاسـد ، الذي لم يحترم القـانون ، فـرجح اصحـابه البـاطل على الحق ، والظلـم على العدل ، فانتشرت الفوضـى ، وسقطت كل القيم الانسانية العظيمة .

فالقضاء اذا منصب خطير وحساس ، يكاد يكون بمثابـة القلب من جسد الانسان ، متى تعطل القلب مات الجسد ، وانتهت الحياة الى الفناء والذبول . ومن هنا جعل الاسلام هذا المنصب من المناصب الهامـة في الدولة العربيـة الاسلامية ، وكثيرا ما ربـط نجاح الدولة وتطـورها بنجاح قضائها في تطبيق القانون وحسن استخدامه على طريق الحق والعدالة.

وعلى هذا فقد كان النبي العربي الكريم ، هو الـذي يفصل في معظم القضايا والمشاكل ، والتي كانت تحدث في عهده وكان يرسل الى الامصار البعيـدة خيرة رجاله وأتباعه ومثله فعل الخلفاء الراشدون الأربعة من بعده .

وعندما اتسعـت رقعة الدولة العربية الاسـلامية بعد شوط كبير من الفتوحـات ، استلزم الامر

دراسات تاريخية ، العددان٥٣ / ٥٤ ، تموز ـ كانون الاول ١٩٩٥

وجود قضاة متفرغين لكثرة المشاكل والقضايا ، التي كان من الواجب ايجاد حل لها لاهميتها القصوى في الحياة العامة .

وحتى يكون القضاء ناجحاً وعادلا ، وحتى يظل مستمرا على ذلك ، فان عملية اختيار القاضي، كانت تطول الى حد كبير من أجل أن يتسنى للحاكم الوقوف على الصفات الواجب توفرها في شخص القاضي المرشح للتعيين ، مثل حيازة العلم والمعرفة ، وتوفر الاخلاق والدين والسيرة الحميدة والسمعة الطيبة الى غيرها من أمور.

وقد طبقت جميع هذه المعايير خلال الفترة التي تشكل محور بحثنا ونجحت الى حد بعيد ، بحيث ان جيمع القضاة تقريبا تلمسوا خلال حياتهم القضائية روح العدالة والمساواة ، فأصابوا في أحكامهم في كثير من الاحيان ، ساعدهم على ذلك الخوف الشديد ، الذي كان ينتابهم عندما يولوا القضاء . حتى ان بعضهم كان يتهرب من القضاء بابدائه شتى الاعذار والحجج خشية ان لاتساعده الظروف في تحقيق العدالة وايصال المتخاصمين الى حقوقهم المشروعة ، الامر الذي ساعد في الحفاظ على تماسك الدولة العربية في الاندلس والمغرب في معظم الاوقات ، وأضفى عليها مسحة حضارية واضحة المعالم ، استفادت منها الامم المجاورة ، بينما انقلبت الصورة رأسا على عقب في بعض الفترات وفي امكنة اخرى ، كما حدث في مصر والشام خلال عصر المماليك فيها، حيث اتسم القضاء خلال هذه الفترة بالسعي وراء تحقيق مصالح فردية بحتة دون النظر الى ادنى حق يهّم الناس والمجتمع .

وقبل التفصيل في شأن القضاء الاندلسي والمغربي ، فلا بد من التنويه عن مفهوم القضاء وأهميته وصفات القاضي وما الى ذلك. تعني كلمة القضاء في اللغة ، الحكم وجمعها اقضية ، واستقضى الرجل اي اعتمد قاضيا يحكم ويقضي بين الناس . ويقال : قضى يقضي قضاء فهو قاضٍ ، اذا حكم وفصل(١) .

قال الله تعالى : ﴿فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا في انفسهم حرجا مما قضيت﴾ (٢) بمعنى لن يتم ايمان الانسان حتى يحكم الرسول (ص) في جميع القضايا والامور ، لان حكمه هو الحق (٣).

وقوله تعالى : ﴿ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى اهلها واذ ا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾(٤) وفي ذلك أمر الهي واضح الى القضاة بأن يقضوا بين الناس بالعدل والحق والانصاف.

هذا ما يجعل ولاية القضاء من الولايات الجليلة ذات القدر الرفيع والذكر العالي ، لأن القاضي هو محور ومصدر الاحكام ، واليه يعود النظر في كل وجوه القضاء وحقيقته وحكمه وشروطه وأركانه .

فأما حقيقته فهي الاخبار عن حكم شرعي على سبيل الالزام . وأما حكمه ففرض على الكفايةأ

بـالاجمال . وأمـا حكمته فهـي قمـع المظـالم ونصر ةالمظلـوم ، وقطـع الخصومـات والامـر بالمعروف والنهي عن المنكر (٥).

وللقاضي شروط لايتم القضاء الا بها، ولاتنعقد الولايـة ولا تدوم الا معها، وهي عشرة، الاسلام والبلوغ، والعقل، والذكورة، والعدالة، والعلم، وكونه واحدا، وسلامة حاسةالسمع، والبصرمن العمى والصمـم، وسلامـة اللسان مـن البكم، ويجب أن يكـون غير محدود في قذف او سرقـة اوزنا، وغير مطعون عليـه بولادة اللعان او الزنا، وأن يكون غنيـا غير هداف وغير مستضعف ، حليما بحق الخصم، مستثيراً لاهل العلم والرأي ، سالما مـن بطانة السوء، ولايبالي في الله لومة لائم، غير زائد في الدهاء ، لايصانـع ولايضارع،بعيد التهمة، ذا نزاهة عـن الطمع، كثير التحرز من الحيل، لايطلّع الناس منه على عورة، غير مخدوع لغفلـة ، متأنياً غير عجول. عبوساً من غير غضب، متـواضعا مـن غير ضعف، حاكماً بشهـادة العدول، عـالماً بالفقـه والسنة والشروط، عارفاً بما لابد منه من العربية ومعاني الكلام.(٦)

علق الامـام مالك على هـذه الشروط بالقول: (ولا أرى خصـال القضاء تجتمع اليـوم في أحد ، فاذا اجتمع منها خصلتان، العلم والورع، رأيت أن يولى، فـان لم يكن له علم فورع وعقل، فإنه بالعقل يسـأل وبالورع يعف، واذا طلـب العلم وجده، واذا طلب العقـل لم يجده، وعلم القضاء ليس كغيره من العلوم(٧).

ويحدّد اختصاص القـاضي في عدد مـن المسائل، مثل الـوصايـا والأحباس والاطـلاق والقسم والمواريـث والنظر لـلأيتام في أمـوال الغيـاب والانساب، والحدود والجراحـات والتوصيـات والتسجيل والاثبـات، وقبض الخراج، وقسم الغنائم، وتفـريق أموال بيت المال على المصـالح ، وتـرتيب الجيـوش، وقتـل البغاة، وتـوزيـع الاقطـاعات، واقطـاع المعـادن ونحوذلـك . وفي (الجزيرية) التـي تشكل كتابا في فقه المالكية، يجعـل صاحبها ابن القاسم نظـر القاضي يشتمل على عشرة احكام ، مثل قطع التشـاجر والخصام بين المتنازعين، اما بصلح عـن تراضٍ يراد به الجواز، وامـا بإجبـار بحكم ثـابت يعتبرفيـه الـوجوب ، وإلـزام الولايـة للسفهاء والمجـانين، والتحجير على المفلسين حفظا لـلأموال، والنظـر في الاحباس والتفقـد لاحوالها وأحـوال النظر فيها . وتنفيذ الـوصايا على شروط الموصي إذا وافقت الشرع. وتـزويج الايامى بـالاكفاء اذا عد من الاوليـاء ودعين الى النكاح. واقامـة الحدود، فان كانـت من حدود الله انفـرد باقامتهـا، إما باقرار يتصـل بإقامته الحل، إمّا بنيـة أو ظهور حمل من غير زوج. والنظر في المصالـح العامة من كـفّ التعدى في الطـرقات والافنيـة واخراج مـا لا يستحق مـن الاجنحة والابنيـة وتصفح الشهود وتفقـد الامناء و اختيار مـن يرتضيه لـذلك ووجـوب التسوية بين القـوي والضعيف وتوّخي العدل بين المشروف والشريف.(٨)

وبـالجملة فقـد استوفت رسـالـة عمر بن الخطاب في ماهيـة القضـاء كل الواجبـات التي ينبغي للقـاضي ان يتقيد بها وينفـذها، حتـى من يتمكـن من إيصـال المتقاضين الى شـاطىء الامـان

والسلام والاطمئنان . يقـول في هذه الرسالة الى أبي مـوسى الاشعري:« أما بعـد، فان القضاء فريضة محكمة وسنـة متبعة، فافهم اذا أدلى اليك ، فانه لاينفع تكلـم بحق الانفاذ له، وآسي بين النـاس في وجهك وعـدلـك ، البينّـة على من ادعـى واليمين على مـن أنكـر، والصلح جـائز بين المسلمين الا صلحا احل حـراما أو حرم حلالا. ولا يمنعـك قضاء قضيته أمس فـراجعت اليوم فيـه عقلك وهـديت لـرشدك ، أن تـرجـع الى الحق فإن الـرجوع إلى الحق خير مـن التمادي في الباطل. الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتـاب الله تعالى ولاسنة نبيه ثم إعرف الامثال والاشباه وقـس الامور بنظائرهـا. واجعل لمن ادعى حقـا غائبا أو بينـة أمدا ينتهي اليـه ، فمن أجضر بينة أخذت لـه بحقه والا استحللت القضية عليـه ، فان ذلك أنفى للشـك وأجلى للعمى، والمسلمون عدول بعضهم على بعض الا مجلودا في حـدٍ أو مجرياً عليه شهادة زور، أوظنيناً في ولاء أو نسـب، فان الله عفـا عـن الايمان ودرأ بـالبينات. وإيـاك والقلـق والضجـر والتأفـف بالخصوم، فان الحق في مواطن يعظم الله به الاجر ، ويحسن به الذكر والسلام».(٩)

بدأ ظهور منصب القضاء في ولاية المغرب منذ السنين الاولى لعملية فتح المغرب (١٠) وقد كان القضاء في هذه الفترة صورة طبق الأصل لما كان عليه في كل الولايات الاموية الاخرى باستثناء بعض الامور، التـي سنأتى على ذكرها فيما بعـد. فقد ورث الامويون نظام العهـد الراشدي في القضاء ، حيث اعتمـدوا على المصادر القضائية نفسهـا، التي كانت عنـد الراشدين . فقـدبقي القرآن الكريم المصدر الرئيسي للتشريع، ثم بعـد ذلك تأتي السنة النبوية، ثم الإجماع والقياس في المسائل التي لا يوجد في شأنها نصوص تشريعية مكتـوبة. ولهذا فاننا نرى ان قضاة العهد الاموي، اعتمدوا على النظر في حكم المسألة في الكتاب العزيز، فاذا لم يجدوا دليلا فيه،لجأوا الى السنة النبـوية الشريفـة، فاذا لم يجدوا بـادروا الى تحكيم عقـولهم وبصائرهـم بالاعتماد على علومهـم وفهمهم، حتى يجدوا للمسائل المطـروحة أمامهـم حكما عادلا مستوحى بكليتـه من روح الاحكام في القرآن والسنة(١١).

وبسبـب ذلك عـرف عن القضـاة الامويين انهم مـن القضاة المجتهـدين، الـذين لايقلـدون في أحكامهم لان المذاهب الفقهية لم تكن قد عرفـت او دونت، ولم تكن هناك خطة أو قواعد شرعية ثابتة يتوجب العمل بمـوجبها، مما جعل الامر منوطاً بالقاضي نفسه أو بمـن يعادله من الفقهاء المتمكنين في العلم.(١٢)

وكانت عمليـة اختيار القاضي في هذا العهد، تخضـع لقـواعد صارمة من أجـل أن يبقى منصب القضاء محـافظـاً على استقلالـه وهيبته وتقديـره وروعته، كما كان في العهـد الراشـدي، فكان الخليفـة الأموي هـو الـذي ينتقي القضـاة بنفسـه. وفي بعض الاحيـان كـان يخاطب الـولاة ويأمرهم بتعيين أشخاص معينين في أمصارهم. لكن المعروف بـالنسبة لولاية افريقية (تونس الحالية) فقد كـان الخليفة الأموي ، هو الذي يقـوم بتعيين القاضي، ذلك لان افريقيـة جزء من ولاية المغـرب ، والتي تتبع الى الدولـة الأموية وتخضـع لقوانينها . كـذلك كان الامر بـالنسبة

لولاية الاندلس.(١٣)
وقد استمر ذلك طيلة عصر الولاة في المغرب والاندلس، الذي انتهى سنة ١٣٨هـ/ ٧٥٦ بوصول عبد الرحمن الداخل الى الاندلس وإعلانه الامارة الاموية فيها. وعلى الرغم من أن عصر الولاة تميز بالقلق والاضطراب وعدم الاستقرار، فقد ظل القضاء معروفا أكثر من غيره في ميدان الإدارة، وبقي صورة صادقة لما كان يجرى في بقية الولايات العربية في ظل الحكم الاموي باستثناء التسمية التي أطلقت على القاضي. ففي حين كان يسمى في الولايات المشرقية بالقاضي، كان يسمى في المغرب والاندلس بقاضي الجند.(١٤)
وفي هذا العصركان يعين قاض لكل ناحية أو بلدة توجد فيها قوة عسكرية تعمل تحت راية الفتح. فقد عين حسان بن النعمان القضاة للنواحي. فكانوا يفضّون الخصومات ويحكمون بين الناس بكتاب الله وسنة نبيه.(١٥)
وما كان يجرى في المغرب، كان يجرى مثيلا له في الأندلس، التي فتحها العرب سنة ٩٢هـ/ ٧٠٥ م. أما أساليب القضاة في مجالسهم القضائية، فلم تكن جميعها على وتيرة واحدة، كأن نقول، أنه كانت لهم طريقة او قانون يسيرون بهديه ويطبقون مايحتويه انما اختار كل منهم اسلوبه الخاص المميز من حيث متابعة القضايا، أو من حيث المكان، الذين كانوا يقضون به، أو من حيث الابهة أو المظهر العام للقاضي، الذي كان له بالغ الاثر في نفوس المتقاضين والمتخاصمين، فقد كا ن القاضي مهاجر بن نوفل القرشي على سبيل المثال يتبع أسلوبا رائعا في مجلس قضائه. هو أنه كان يبدأ استجواب المتهمين بتخويفهم وترهيبهم، ولا سيما الذين كانوا يدعون الباطل، بانهم سينالون عقوبات كبيرة في الدار الاخرة، ثم يقوم بعد ذلك بالبكاء المر، فكانوا يتأثرون بذلك فيلجأون الى الصلح ومسامحة بعضهم بعضا.(١٦)
ويحكى عن القاضي أبي كريب المتوفى سنة ١٤٠ هـ/ ٧٥٧م أنه كان يتوجه الى عمله راكبا حمارا، فاذا عرض له خصمان في الطريق نزل عن حماره، ونظر بينهما فيما اختصما فيه، وعندما ينتهي من النظر في القضية، كان يرفض أن يمسك برأس الحمار اثناء ركوبه، ويروى أيضا عن القاضي غوث بن سليمان أنه نظرفي قضية في حانوت من حوانيت السراجين صادف وجوده فيها، حينما شكت اليه امرأة مظلمة حصلت لها.(١٧)
من ذلك نستنتج أن التواضع الزائد، كان هو السمة البارزة، التي اجتمع قضاة عصر الولاة تحت رايتها، وان كنا لا نعرف على وجه اليقين، إن كان هذا التواضع حقيقيا صادقا، أو أنه متكلف مفتعل، الهدف منه حب الظهور واضفاء صفة خاصة للقضاة، تميزهم عن غيرهم من رجال الادارة في الدولة. كما يظهر من خلال تراجم قضاة هذا العصر، أن القاضي لم يكن له مساعدون او نواب يحملون عنه بعض متاعب أشغاله البالغة الصعوبة والتعقيد.
أما الفترة التالية لعصر الولاة فيمكن تقسيمها من حيث تطور القضاء الى قسمين متميزين الأول وينتهي في سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢ م على يد المرابطين الذين قدموا من المغرب لنصرة

الاندلسيين على لاسبان بعد أن وصلت أحوالهم الى أعلى درجات السوء والمهانة والاضطراب.
وقد شهدت هذه الفترة الطويلة عدة أنواع من الحكم والدول، مثل دولة الامارة والخلافة الاموية ودول الطوائف بالاندلس وفي المغرب ظهرت دولة الاغالبة في تونس، ودول الخوارج في الجزائر والمغرب ودولة الادارسة في المغرب الاقصى .(١٨) وفي نهاية القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ظهرت دولة الفاطميين ، التي تمكنت بسهولة من ازالة كل دول المغرب سابقة الذكر.
وفي هذا العصر أصبحت خطة القضاء في الاندلس والمغرب من أعظم الخطط عند الخاصة والعامة لتعلقها بامور الدين، وكون السلطان يمثل أمام القاضي عند الضرورة.(١٩)
وأول ما يمكن الحديث عنه في بداية هذه الفترة هو المصادر التشريعية ، التي كان يعتمد عليها القضاة ويهتدون بهديها من أجل استنباط الاحكام الصحيحة. كان في مقدمة هذه المصادر القرآن الكريم ، ثم السنة النبوية الشريفة كما جاء في رسالة موجهة من عقبة بن الحجاج الى القاضي مهدي بن مسلم حين ولاه القضاء ونقلها الخشني في كتابه (قضاة قرطبة) والتي تقول: ((وأمره أن يتخذ كتاب الله وسنة نبيه محمد(ص) اماماًيهتدي بنورهم ، وعلما يعشو اليهما وسراجا يستضاء بهما ، فان فيهما هدى من كل ضلالة ، وكشفا لكل جهالة وتفصيلا لكل مشكل، وابانة لكل شبهة ، وبرهاناً . ساطعاً ودليلاً شافياً ومناراً عالياً ، وشفاء لما في القلوب وهدى ورحمة للمؤمنين)).(٢٠)
والتزم بذلك جميع قضاة الاغالبة والخوارج والفاطميين بدون استثناء . لكن الشيء الثابت أن مذهب الامام مالك هو الذي ساد في المغرب والاندلس منذ النصف الاول من القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي، وبقي هذا المذهب وحيداً، لم تقم لغيره قائمة خلال العصور الوسطى، فكان الاندلسيون يقولون:((لا نعرف الا كتاب الله وموطأ مالك وسائر المغرب الى مصر لا يعرفون مذهب الشافعي. وبنظرهم كان الائمة اثنين أبو حنيفة لاهل المشرق ومالك لاهل المغرب)) (٢١) وهذا ما جعل الخليفة العباسي هارون الرشيد يصر على أن يكون القاضي في القيروان من المالكية ، ذلك لان المالكية تمكنت من نفوس الناس ، وأنه لاقرار لادارة العباسيين ما لم يحظوا برضا المالكية، فأوصى عامله ابراهيم ابن الاغلب أن يتخذ قاضيه من الفقهاء أصحاب مالك، واحد كبار فقهاء القيروان.(٢٢)
وحرص الامام مالك في مذهبه على التمسك بالقرآن دون تأويل ، وسنة النبي العربي الكريم ، وأعمال الصحابة ، وبآراء وأعمال أهل المدينة المنورة، فكان يرى على سبيل المثال ، أنه من المتوجب الايمان بالقدر خيره وبان الانسان حر مختار وهو مسؤول عما يفعل ، ان خيرا وان شرا.
وأهم القضايا التي كان القضاة في المغرب والاندلس ، ينظرون فيها بصورة عامة هي عشر قضايا أو احكام ، أحدها قطع التشاجر والخصام بين المتنازعين أما بصلح عن تراضٍ يراد به

الجوان، واما باجبـار بحكم. والثاني استيفاء الحق لمن طلبـه وتوصيله الى يده ، امـا باقرار او بيّنة . والثـالث الزام الولايـة للسفهاء والمجانين والحجر على المفلـس حفظا للاموال والـرابع ، النظر في الاحباس والتفقد لاحـوالها وأحوال الناظر فيها، والخامس تنفيـذ الوصايا على شروط الموصى اذا وافقـت الشرع. والسادس تـزويج الايـامى مـن الاكفاء ، اذا عـدم الاولياء واردن التزوج، والسابع اقامة الحدود في حقوق الله. والثامن النظر في المصالح العامة من كف التعدى في الطرقات والأفنية واخراج ما لايستحق من الاجنحـة والافنية. والتاسـع تقفي الشـهود وتفقد الامناء ، واختيار مـن يرتضيه لذلك. العـاشر وجوب التسوية في الحكـم، بين القوي والضعيف وتوخـي العدل . ويقول النباهـي في عمل القاضي ، وخطـة القضـاء: ((خطة القضـاء مـن أعظم الخطط قدرا وأجلهـا خطرا ، ولاسيما إذا اجتمعت اليها الصلاة ، وعلى القـاضي اصدار الاحكام واليه النظر في جميع وجوه القضاء)) (٢٣)

أما عن صفات القاضي في هـذه الفترة ، فقد اتفقوا على اوصاف معينة كانت شبه ثـابتة ، حدّدها في المغرب والانـدلس منـذ وقت مبكر الخليفـة عمر بـن عبد العـزيز ، الذي اشتهـر عنه قـوله بالشخـص المرشـح لتسلم القضـاء: ((لايصلح للقضـاء الا القوي على امر النـاس المستخف بسخطهم وملامتهم في حـق الله ، العالم بأنه مهما اقترب من سخط النـاس وملامتهم في الحق والعدل والقصد، استفاد بذلك ثمنا ربيحا من رضوان الله))(٢٤)

على هذا، كان اختيار القاضي صعباً ، يعتمد على أسـس قلما تبدلت في تاريخ النظام القضائي في المغرب والاندلس وكثيرا مـا كان القاضي يختار من الشخصيات العلميـة والاخلاقية المتميزة ، كما كـان يحدث على سبيل المثـال في حـاضرة الاغالبـة (القيروان) (٢٥) وكـذلـك الامر عنـد الخوارج في تاهرت ، والذين استمروا في المحافظة على تقـاليد اختيار القاضي ، فكانوا يمتحنون المرشـح فيما قد لا يعرفه من أمور الزراعة او الحيوان ، كأن يدسّوا له متخاصمين أو يبعثوا به الى امـرأة عجوز مجربـة، تختبر مـا يتحلى به مـن التواضـع أو الكبر، فـاذا سأل النـاس فيما لايعرفه ولوّه ، أما اذا تكبّر تركوه(٢٦)

ولأهمية هذا الامر عند حكام المغرب والاندلس ، قام الحكم بن هشام في عصر الامارة الاموية في الاندلـس ، باعتماد يحيـى بن يحيـى الليثي في مسألـة اختيار القضـاة ، وكان الحكـم مكينا موثـوقا مقبـول القول في القضـاة ، فكان لايعين قـاض في كل بلـدان الاندلـس الا بمشورتـه واختياره ، وكـان لاينوه الا بـأصحابـه ومن كـان على مذهبـه من المؤهلين لمنصـب القضاء . وتعززت ثقة الحكم فيه ، بعد أن رفض تسلم القضاء على أهميته وجلالته. (٢٧)

في مستهل حكم الامارة الأمـوية بالاندلس ، حصل تطور حضـاري مهم في ميدان تسمية كبير القضـاة ، ففي حين كان يسمى في عصر الولاة (قاضي الجنـد) فانه في هذا العصر أصبح يسمى (قاضي الجماعة) الذي يوازي قـاضي القضاة في المشرق في عصر العباسيين ، ويوازي في عصرنا وزير العدل أو مدير القضاء العسكري. وظهر ذلـك لاول مرة في بداية حكم الامير عبد الرحمن

الداخل، عندما عين على قضائه يحيى بن يزيد التجيبي، الذي كان قاضيا على الاندلس قبل وصول الداخل إلى الاندلس، الذي لم يعزله، وظل حتى كان الصراع بين الداخل والفهري(٢٨)، عندما طلب ليقضي بينهما. ومنذ ذلك الحين سمي قاضي الجماعة(٢٩) وينفرد ابن القوطية برواية أخرى، يحدد فيها ظهور تسمية قاضي الجماعة في زمن عبد الرحمن الثاني، وإن أول من تسمى بقاضي الجماعة في الاندلس هو سليمان بن أسود البلوطي خلال القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي؛(٣٠) مهما كان عليه الامر، فان هذا النظام، هو نظام متقدم مثالي وعصري. لكن تسمية قاضي الجماعة اقتصرت على قاضي قرطبة، حتى جاءت دول الطوائف، التي ظهرت كل منها في مدينة كبيرة، تتبعها عدة ضواحٍ وبلدان مثل غرناطة واشبيلية وسرقسطة اضافة إلى قرطبة، فانتقلت هذه التسمية إلى كل منها، مثال ذلك أن المتوكل على الله ابو عبد الله محمد بن يوسف ابن هود، استقضى على سرقطة عبيد بن ناصر العتكي، فكان بها قاضي الجماعة(٣١). وأحمد بن عبد الرحمن بن محمد التغلبي، الذي استقضاه المأمون يحيى ابن ذي النون بطليطلة بعد أبي عمر بن الحذاء(٣٢) ويونس بن عبد الله بن مغيث المعروف بابن الصغار(٣٣).

شذ عن هذا النظام في عهد دول الطوائف، القاضي أبو العباس بن ذكوان بقرطبة، فأطلق على نفسه قاضي القضاة على عادة قضاة المشرق، وكان ذلك في زمن المظفر بن محمد بن أبي عامر. وعندما انقرضت الدولة العامرية بقيام المهدي بن عبد الجبار الأموي، أزال ابن ذكوان لقب قاضي القضاة واقتصر به على قاضي الجماعة، الأمر الذي يدل على أن قاضي القضاة كان أشمل من قاضي الجماعة(٣٤).

والجميل في القضاء المغربي والاندلسي، أن القاضي لم يكن الوحيد، الذي ينفرد في اصدار الاحكام على المتخاصمين، بل كان إلى جانبه هيئة شورى تتألف من عدد من الفقهاء يدعون (بالمشاورين) وهم مجموعة من الفقهاء المتمكنين من مسائل الشرع والفقه، ومهمتهم الرئيسة النظر في المسائل الصعبة، التي يتعذر على القاضي ايجاد حل لها، وبالتالي اصدار حكم بشأنها(٣٥)، وهي تشبه في أيامنا مايسمى بمحكمة النقض أو الاستئناف أو مجلس القضاء الاعلى. ولم يقتصر وجود هذه الهيئة على العاصمة قرطبة، بل وجدت في كل المدن والبلدان، التي كان يعين لها قاض(٣٦) وكانت هذه الهيئة تدقق في أحكام القضاة للتأكد من صحتها وعدالتها أو عدم ذلك. وأقدم اشارة عن وجود هذه الهيئة المتطورة، تعود إلى سنة ١٧٦هـ/٧٩٣م عندما كلف أبو محمد عبد الله بن فروخ برئاستها، فهرب إلى المشرق لعدم رغبته في العمل في هذا الميدان(٣٧).

وخلال القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي أسس الامويون في قرطبة دارا خاصة لشورى القضاء. وقد كانت تخالف الامام مالك في عدة أحكام، لكن أخبار هذه الدار لم تصل الينا على وجه بيّن(٣٨) وشكلت هذه الهيئة أحد أركان الدولة الاباضية الرستمية، وأطلقوا

عليها تسمية (مجلس الشورى) الذي لم يقتصر على مهمة النظر في أحكام القضاة، بل شملت سلطته حق مراقبة سياسة وسلوك رئيس الدولة (الامام) فاذا وجد انه حاد عن الطريق المرسوم، أسرع إليه فوعظه وانتقده واحتج عليه، وإذا لم يرتدع خلعه وبايع غيره(٣٩) وفي بعض الاحيان، كانت إذا ظهرت مشكلة فقهية ينادي المنادي في كل قرى جبل نفوسه(٤٠) حتى تتم الشورى في المسألة. وفي بعض الاحيان الاخرى، كان القاضي يبعث لاستشارة علماء جربة(٤١).

ولم يكن القضاة دوما من العرب الاصليين، بل وجد في هذه الفترة أمثلة عديدة لشخصيات من غير العرب، استلم أصحابها هذا المنصب الجليل. نذكر منهم على سبيل التعريف، قاضي الجماعة عمرو بن عبد الله بن لبيب مولى احدى بنات عبد الرحمن الداخل، استقضاه الامير محمد مدة عامين ثم عزله، وهو أول من استقضي بقرطبة من الموالي. وقد كانت وفاته سنة ١٧٣هـ/ ٧٩٠م وأثار تعيينه في القضاء حفيظة العرب، فبلغ ذلك الامير محمد فقال: (وجدت فيه مالم أجد فيهم. فقال العرب، اما القضاء فإنا لانعترض فيه لانه من سلطانه، وأما الصلاة فإنا لانصلي وراءه، فولى الامير رحمه الله الصلاة للنميري عبد الله بن الفرج...)(٤٢) وهذا يدل على علو مرتبة من يتولى الصلاة في الاندلس والمغرب، لان القاضي في هذين البلدين كثيرا ماكان يجمع بين القضاء والصلاة، كما كان القاضي عبد الله بن خلف اللخمي الاشبيلي، الذي ولي القضاء والصلاة بمدينة اشبيلية في ايام الامير عبد الله المتوفى سنة ٣٠٠هـ/ ٩١٢م، ثم عزل عن القضاء وأقام على الصلاة الى أن وافته المنية نحو سنة ٣٣٠هـ/ ٩٤٢م(٤٣)، لكن اضافة الصلاة الى القضاء، لم تكن من الامور الثابتة في المغرب والاندلس.

لم يلتزم قضاة المغرب والاندلس خلال هذه الفترة بالمهمات، التي حددها لهم قانون القضاء العام، بل راحوا يتدخلون في مسائل جانبية وفرعية متعددة، لانهم كانوا يرون انفسهم، مسؤولين عن حل كل معضلة في مجتمعاتهم، التي كثرت مشاكلها وتشعبت بسبب التطور، الذي كان مستمرا بدون توقف، وبخاصة خلال فترة الانتعاش الاقتصادي والعلمي في القرن الثالث والرابع الهجريين. فمثلا كان القضاة يكلفون بالاضافة الى أعمالهم القضائية بأعمال حربية محضة، كما حدث للقاضي الاندلسي الفرج بن كنانه، عندما عقد له الامير الحكم بن هشام على جند شذونه لمقاتلة الاعداء. واخرجه مرة اخرى الى الثغر الاقصى (سرقسطة) فقام مقام قادة وصدور الغزاة. وكذلك جرى مع أسد بن الفرات، الذي ولاه زيادة بن الأغلب على القضاء بافريقية، وقدمه على غزو صقلية، فكان أمير الجيش وقاضيه في وقت واحد(٤٤) ومثلهما كان القاضي منذر بن سعيد البلوطي، الذي أضاف له الناصر لدين الله مهمة اخرى، هي قيادة الجند(٤٥).

كما كلفوا بمهام اخرى غير المهام العسكرية، مثل ادارة الكور والمدن. فقد أناط الناصر لدين الله عدة مهام بالقاضي محمد بن عبد الله بن أبي عيسى، الذي عينه على قضاء البيرة، وبعد أمد

قصير قلده أمانـة كورة البيرة والنظر على عمالها، فكانـوا لايقدمون ولايؤخـرون الا عند أمره. وظل هكـذا حتى نقلـه الى قرطبـة لتكليفه بقضـاء الجماعة سنـة ٣٢٦هـ/٩٣٨م. ومنـذ ذلك الوقت صار الناصر لدين الله يستخـدمه على السفارات، فيرسله الى كبار الامراء في الدولة، كما كان يرسله في الامـانات الى الثغور والأطراف، للإشراف عليها، وللإعـلام بمصالحها، والبنيان لحصونها، وتـرتيب مغـازيها، وإدخال جيـوشها الى بلـد الحرب، وربما أقامـه في ذلك مقـام أصحـاب السيوف مـن قواد جيشـه(٤٦) لكن تسلـم أمـانة الكـور لم تكن حـالة طـارئة أو استثنائية تقتصر على بعض القضاة، بل كانت أمـرا معروفا مسلما به، حيث أن جميع القضاة خارج قرطبة وغيرها من الحواضر الاخرى كالقيروان كـانوا مسؤولين عن جميع المناطق، التي تتبع الكور المعينن على قضائها، فيكون لقاضي الكورة التصرف بشؤونها القضائية، اضافة الى تسلم أمـانة الكـورة. وكان بمقدور القـاضي أن يرفـض ذلك، ويقتصر على القضـاء، كما فعل القاضي محمـد بن الحسن النباهـي، عندما عين لقضاء سرقسطـة على عهد بني هود، فـاكتفى بالقضاء والنظر في الأحباس(٤٧).

امتاز قضاة الاندلس والمغرب في هذه الفترة بصلاحياتهم الواسعة، التي شملت عددا مهما من قضايـا المجتمع والـدولة. فعلى أثـر نجاح الفـاطميين في السيطرة على المغـرب في أوائل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، قام القاضي الفـاطمي محمد بن عمر المروزي قاضي افريقية بتغيير بعض جمل الأذان وأخذ أموال الاحباس والأموال الموقـوفة على عمارة الحصـون وكتابة اسم المهـدي الفاطمي وأشيـاء من هذا القبيـل(٤٨)، وكان باستطـاعة القاضي بقـرطبة تعيين صاحب الصلاة في أي مسجـد كان من هذه المدينة(٤٩) كما كان يرى نفسـه، معنيا بملاحقة الفلاسفـة والضرب على أيديهم. وهذا ما حـدث منذ بدايـة الحكم العربي في الاندلـس، فخلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي قام القاضي محمد بن يبقى بن زوب بملاحقة أصحاب الفيلسوف ابن ميسرة، والكشـف عنهم، واستتابة من علـم أنه يعتقد مذهبهم، وأحـرق ماوجد عندهم من كتب ابن ميسرة(٥٠).

وكان مـن صـلاحيـات القضـاة أيضـا، منع بعـض الناس مـن الحج بعد المرة الاولى. فقـد منع القاضي زيد بن الحشا، خلال فترة قضائه في طليطلة في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، عبد الله بن مـوسى الانصاري المعروف بالشارقي من الحج للمـرة الثانية.. وقال في رسالة له: (قد قمت بالفرض ـ فهذه المرة الثانيـة هي نافلة، والذي أنت فيه الان آكد. فمنعه من الخروج حرصا على وجوده في طليطلة معلما مهذبا للناس)(٥١).

وفي ميدان التحقيق مع المتخاصمين، اتبع القضاة في المغـرب والاندلس أساليب مختلفة، فسار كل قـاضٍ على طريقة معينـة، كان يراهـا ناجعة في هـذا المجال المهم. ففـي البداية، كـان الامر يتطلب الفصل بين المتخاصمين عند اجراء التحقيـق معهم، ليتضح وجه الاتفاق والاختلاف في أقوالهم، وتدوين مايقـولونه بشأن الاشياء المتنازع عليها، اذا كان التخـاصم متعلقا بسلعة ما

أو وديعة. بعد ذلك يؤتى بالشهود، وهؤلاء يجب ان يكونوا من أهل العدالة والرضا. لكن قضاة بعض المناطق المغربية، كانوا يتساهلون في مسألة عدالة الشهود، كما كان يحدث في عاصمة الاباضيين تاهرت، فقد سمح القاضي عمروس بن فتح من جَعَل جميع أهل شروس في جبل نفوسه شهودا عدولا بمجرد انه سمع من بعض مستشاريه أن أهل شروس لايكذبون(٥٢).

كان بعض القضاة يكتفون بشاهد واحد، كما كان يفعل صاعد بن أحمد التغلبي المتوفى سنة ٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م؛ لكنه كان يدعم ذلك باليمين «٥٣» وبصورة عامة فقد كان القاضي هو الذي يقرُّ صلاحية العدول أو الشهود لتأدية مهمتهم فيقر بأنهم جاهزون وصالحون لذلك«٥٤» وبعد الشهادة تأتي البينة و أخيراً يكون اليمين أو القسم في حالة افتقاد البينة وهو على المدعى عليه وفي بعض الحالات المعينة كان يمكن للقاضي الأخذ بشهادة غير العدول من الشهود مثل العبيد والنساء كما حدث عندما قبل مشايخ جبل نفوسة شهادة العبد الذي نجا وحده من القافلة التي ماتت عطشاً في طريق القبلة فحكموا بموتهم وكل حكم متعلق إليهم انما حكموا بالاشتهار لأن الاشتهار أعظم من الشهادة كما قبلوا شهادة الاجراء الذين كانوا يعملون في بعض المزارع...

وسمح كثير من القضاة للمتهمين بالدفاع عن أنفسهم في الجرائم، التي تستوجب الحدود، كالقتل والسرقة والزنا وشرب الخمر. فاذا ثبتت جريمته، حكموا عليه بما حكم الله به، فينفذ الامام والولاة على النواحي حكم القضاء، لايتهاونون في اقامة حدود الله(٥٦) وبعضهم كان يلجأ الى وسائل الترهيب المختلفة من أجل اصلاح ذات البين بين الخصوم. فقد كان محمد يحيى قاضي سرقسطة، يلجأ إلى هذا الاسلوب فيوهم الخصوم، بأن المحراب الذي يتم عليه حلف اليمين، هو من بناء التابعين إلى غير ذلك، مما كان يؤثر بأكثرية المتهمين، ويجعلهم يقولون الصدق(٥٧) وحتى لايحتج المتخاصمون على مسألة تقديم بعضهم على بعض. فقد كان بعض القضاة، يلجأ إلى كتابة، أسماء المتقاضين على رقاع صغيرة، فيخلطها القاضي مع بعضها بعضا، ويعيد ترتيبها من جديد، ويضعها امامه ويبدأ بقراءة الاسماء المكتوبة واحدا تلو الآخر دون تدخل من أحد، أي بما يشبه القرعة، التي لايظلم فيها أحد، ويرضى بها الجميع(٥٨).

وبصورة عامة فقد كانت العقوبات الصادرة عن قضاة المغرب والاندلس قاسية. لكنها كثيرا ماكانت تعتمد على حكم الشرع، ففي السرقة كان حكم (قطع اليد) معمولا به في كثير من المناطق الاندلسية المغربية، وغير معمول في مناطق اخرى، كما كان الحال في بعض مناطق الاباضيين، الذين كانوا يراعون رجال الدولة الرستميين، والرجال الاقوياء الآخرين، فحكموا للرجل القوي على الضعيف. وأمثال هذه الامور هي التي شكا منها محمد بن تومرت، وهو في رحلة العودة الى بلاده من المشرق(٥٩).

ولم يكن حكم قطع اليد مقتصرا على الذين يسرقون، بل طبّقة بعض القضاة على بعض كتاب

الوثائق، كما فعل القاضي محمد بن بشير في قرطبة، عندما اكتشف ان احد الكتّاب كان يدلّس في كتابة الوثائق، فاستجوبه وثبت عنده أنه عقد وثيقة باطلة على رجل من التجار، فحكم عليه بقطع اليد(٦٠).
إلى جانب عقوبة السرقة، كانت هناك عقوبات أخرى متعددة كالحبس والقتل، وهي عقوبات عرفت في ميادين القضاء الاندلسي والمغربي، ماعدا بعض الاستثناءات التي حدثت في عهد الاباضيين، الذين لم يكونوا متشددين في عقوباتهم، لان قضاتهم كانوا يجارون الظروف ومقتضى الاحوال، فكانوا لايرضون عن احلال دم المسلمين. وهذا ماحدا ببعضهم لان يحكم بالدّية على مسائل القتل إلى غير ذلك(٦١).
ولم يكن القاضي وحيدا في عمله، بل كانت تساعده هيئة ادارية اخرى، كانت تتألف من نواب القاضي وكتابه. فبالنسبة لنواب القاضي كان يعين لكل قاض عدة نواب يساعدونه في انجاز أعماله الكثيرة. فعلى سبيل المثال، كان يساعده نائب في الاحكام والشروط والانكحة، التي تشمل مسائل الزواج وعقوده، بما يشبه قاضي الشرع في وقتنا الحاضر(٦٢) أما الكتاب فقد انحصرت مهمتهم تحديدا في كتابة ما يمليه عليهم قضاتهم أثناء اجراء المحاكمات، وان كان بعض الكتاب قد ناب عن القضاة كما حدث للكاتب البطيطي الاشبيلي، الذي جعله أحد قضاة قرطبة كاتبه ونائبه في وقت واحد(٦٣). وكان في دائرة كل قاضٍ ديوان فيه عدد من الموظفين، يعتمدون سجلات خاصة لتدوين القضايا المثارة أمكام القاضي، وتسجيل كل مايتعلق بها من حيثيات وأحكام، كما هو حال قضاء هذه الايام(٦٤).
وقد شهد القضاء في المغرب والاندلس بعض التطورات المهمة خلال هذه الفترة الأمر الذي يجب التوقف عنده لضرورته وأثره في نتائج القضاء بشكل عام. لكن هذا التطور، لم يكن شاملا لجميع القضاة بقدر ماكان فرديا، ظهر من خلال تصرفات بعض القضاة. ففي أواخر القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، اشتهر على هذا الصعيد القاضي القيرواني في عهد الاغالبة، محمد بن عبد الله الكناني أبو محرز، الذي ساوره الشك مرة في أهلية الشهود، فقال لاحد رجاله ان يأتيه بجملين ليحمل الشهود عليهما ويطوف بهما، ولما سمع الشهود ذلك النداء، هربوا وكان عددهم اثنين فقال لصاحب الشكوى: (ياعدو الله تجترىء علينا بشهود الزور وهم بضربه) وحدث ذلك بعد استجوابهما في الجلسة الاولى، حيث جاء الى القاضي الشخص المدعى عليه، وأبلغه بعدم صحة الحكم، فما كان من القاضي، الا ان قام باستدعائهما مرة ثانية، بحجة أنه يريد سؤالهما عن شيء فاته، نسي أن يسألهما عنه في الجلسة الاولى.
وأساس هذا التطور هنا، يكمن في أن القاضي على المذهب المالكي لايجوز له فعل ذلك ويكتفي بالحلف كما إن هذا القاضي أباح شرب النبيذ، وأنه كان يخصص يوما في الاسبوع ليقضي خلاله بين النساء عند باب داره(٦٥).
والحق، فلم تكن جميع الاحكام القضائية، التي كانت تصدر عن دوائر القضاء المغربي

والاندلسي، تعتمد على نصوص شرعية واضحة ومحددة، كالقرآن والحديث وغيره. فكانت قناعة القاضي، التي كانت دوما متوافقة مع الحق والعدل والمنطق، هي المصدر المعول عليه، مثال ذلك ماحدث في زمن الاغالبة بالقيروان، عندما اختلف الفقهاء في مسألة رجل اشترى حوتا، فوجد في بطنه حوتا آخر، فاختلفوا هل هو للبائع أو للمشتري؟ فرفعها الحاكم إلى القاضي موسى بن عبد الرحمن الذي قال: «وإن كان الشراء على الوزن فهو للمشتري وان كان على الجزاف فهو للبائع)(٦٦).

هذا التطور الذي حدث في دوائر القضاء المغربي والاندلسي، لم يأت من قبل السلطات الحاكمة، بقدر ماكان يأتي من قبل القاضي نفسه، كما فعل القاضي سحنون، عندما عين على قضاء الاغالبة في مدينة القيروان. فعلى الرغم من أنه تولى القضاء مرغما، فانه أدخل عدة مهمات اضافية الى عمل القاضي، وأمر بتغيير بعض الامور، التي كانت في نظره غير شرعية. فهو أول من فرق حلق البدع من الجامع، وشرد أهل الاهواء منه، وهو أول من جعل الودائع عند الامناء، وكانت قبله في بيوت القضاة. وكان أمر الحسبة من اختصاص الامراء والحكام، وفي عهد سحنون، أصبح الحكم فيها من اختصاص القاضي، الذي كان يعين لها بعض الامناء، وهو أول من نظر فيها من القضاة المغاربة، وهو أول من جعل في الجامع اماما يصلي بالناس، اذ كان ذلك للامراء، وكان يحكم في مكان بالمسجد ولايحضر عنده غير الخصمين، ومن يشهد بينهما(٦٧) وهو أول من اتخذ صاحب المظالم، وهي محكمة مستقلة تشبه المحاكم الاستعجالية، تنتصب في الاسواق، وتحكم في دائرة محددة. وهي غير الحسبة على المصالح العامة، مما يدل على وجود نظام محكم ودرجات للقضاء في ذلك العصر. وكان أول قاض هو حبيب بن نصر بن سهل التميمي صاحب مظالم سحنون(٦٨).

وكان بعض القضاة لايرى باليمين، مع أن الامام مالك كان يرى صحة ذلك. ومن هؤلاء القضاة محمد بن بشير المعافري، الذي أجاز أيضا كراء الارض بجزء مما يخرج منها إلى غير ذلك من الامور، التي لم تكن لاحد قبله في المغرب والاندلس(٦٩).

واعتاد قضاة القيروان على كتابة شرط في كتاب الصداق، وأخذوا به وطبقوه في أحكامهم، هو أن للزوجة حق الطلاق من زوجها، ان تسرّى عليها الزوج بغيرها. وهو من أروع ماالستجد في ميدان القضاء المغربي والاندلسي، لكنه لم يدم طويلا، حيث ألغاه الفاطميون، عندما وصلوا إلى حكم المغرب، أواخر القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي(٧٠).

ولجأ بعضهم وبخاصة في المغرب الى الحكم بواسطة الفراسة، عندما كانوا لايجدون أو يهتدون إلى البينة أو ايضاح الحجة، فكانوا يعتمدون على بعض الدلائل والامور، التي كانت تظهر من خلال عملية استجواب الخصوم، مثال هذا ماكان يفعله القاضي القيرواني سليمان بن عمران الذي كان يقول: (لو شئت أن أقضي بين الخصمين بلا بينة لفعلت. والله ما يعقد بين يدي الخصمان، ويتناظران الا وأنا أعرف من له الحق منهما)(٧١).

وبلغ تطور القضاء في المغرب حدا، يمكن الوقوف تجاهه باحترام واعجاب، عندما لجأ بعض القضاة الى مناظرة ومناقشة المتخاصمين، ومحاولة إقناعهم بالحجة والعقل والبيان، وبعد ذلك حل مشاكلهم ومصالحتهم. هذا ماكان يفعله ويطبقه القاضي القيرواني حماس ابن مروان الهمداني، الذي ولي القضاء في القيروان خلال العقد الاخير من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي(٧٢).

أما بعض القضاة، فكانوا يعمدون إلى التطويل في اجراءات القضاء، أملا منهم في الوقوف على حقيقة الامور من جهة، وافساح المجال للتصالح والتراضي بين الخصوم من جهة اخرى، كما كان يفعل القاضي أحمد بن بقي بن مخلد، خلال الربع الاول من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. وكان يقول في ذلك: (صاحب الباطل اذا طول عليه ترك طلبه ورضي باليسير فيه. وقد كثر الآن شهود الزور، والتبست الأمور فرأيت هذا المطل أخلص لي)(٧٣).

وبعضهم الآخر كان يغض الطرف عن كثير من المخالفات، التي كان يعاقب عليها في معظم الاوقات. وقام بتطبيق ذلك القاضي محمد بن عبد الله بن أبي عيسى خلال مدة عمله القضائي بالبيرة، عندما التقى مصادفة برجل أخذه السكر في أحد أزقة المدينة، فحاول الرجل الهرب، ولكنه لم يقو على ذلك فقال شعرا:

ألا أيها القاضي الذي عمّ عدله
فأضحى به في العالمين فريدا
قرأت كتاب الله الف مرة
فلم أر فيه للشراب حدودا
فان شئت ان تجلد فدونك منكبا
صبوراً على ريب الخطوب جليدا
وان شئت أن تعفو تكن لك منّة
تروح بها في العالمين حميدا

فما سمع القاضي هذه الابيات، أعرض عنه ومضى لشأنه(٧٤).

كما تأثر القضاء بالجو الفاسد الذي ساد عصر دول الطوائف بالاندلس، لكن هذا التأثر لم يكن أكثر من حالات فردية عابرة، لايعول عليها في هذا المضمار. وقد زالت بزوال حكم أصحابها. ففي مدينة طليطلة وجد قاضيان في وقت واحد، هما أحمد بن سعيد الأنصاري، ويعيش ابن محمد بن يعيش الاسدي. وكلاهما من أسرة عريقة في الجاه والمكانة والعلم، ويعود هذا الى المنافسة، التي كانت محتدمة بين العائلات الكبيرة والمشهورة في مدينة طليطلة، وكثيرا ما وقع التناحر والاختلاف بين هذين القاضيين، واستطاع يعيش بن محمد الأسدي ان ينفي أحمد بن سعيد الانصاري خارج المدينة، ليتفرد هو بالاحكام وشؤون القضاء(٧٥).

بعد كل الذي ذكرناه من ايجابيات القضاء في المغرب والاندلس، فاننا نسأل السؤال التالي: هل كان جميع القضاة على سوية واحدة من الناحية العلمية. والتأهيلية والاخلاقية؟ للجواب عن هذا نقول: إن الكمال في أي عمل مهما كان سهلا، لايمكن أن يتحقق ابدا. وهذا ماينطبق على قضاة المغرب والاندلس، الذين وصل عدد منهم الى القضاء، على الرغم من عدم اهليتهم من حيث العلم والمعرفة. نقرّب على ذلك مثلا القاضي يحيى بن محمد بن زرب، الذي يفتقر إلى أدنى المعارف الضرورية للقاضي. وقد قلده هذا المنصب المهم، أبو الوليد محمد بن جهور في مدينة قرطبه، وظل على رأس عمله حتى وافته المنية سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٦م(٧٦). وقد خلفه رجل أجهل منه، هو حسن بن محمد بن ذكوان، استقضاه أبو الوليد محمد بن جهور ورّقاه الى القضاء، وكان قبل ذلك يعمل في أحكام الشرطة والسوق، لكنه صرفه لاشياء ظهرت منه، ومنعه من الخروج من بيته الا للمسجد، حتى مات سنة ٤٥٠هـ/ ١٠٦٠م(٧٧).

ويمكن تعليل هذه الظاهرة الشاذة في تاريخ القضاء المغربي والاندلسي، بأنها ربما كانت ترجع إلى وجود علاقة مودة بين الحكام وبين الذين وصلوا إلى القضاء. ولم تظهر هذه الظاهرة الا في عصر دول الطوائف، الذي شذ الحكام فيه عن كل الثوابت والضوابط والقواعد والاعراف، حتى أصبح كل شيء رهينا بارادتهم ورغبتهم الخاصة، هذا بالاضافة الى وجود اعتبارات اخرى، كان منها على سبيل المثال، أن أصل القاضي كان يمت الى عائلة معروفة بعراقتها وجاهها ومكانتها، الامر الذي ساعد بعض الاشخاص للوصول إلى القضاء كمحمد بن يحيى بن عبد الله بن قاسم العيسمي العرضبي الذي ذكر عنه ابن بشكوال، إنه تولى القضاء في عدد من المناطق، وكان نبيه البيت، قليل العلم، ومات سنة ٤١١هـ/ ١٠٢١م(٧٨). وكانت الفوضى قد بدأت تنتشر في المجتمع الاندلسي، منذ أواخر القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وكانت تتفاقم مع مرور الايام، حتى وصل الامر الى تعطيل هيئة القضاء بالاندلس من سنة ٤٠١-٤٠٤هـ/ ١٠١١-١٠١٤م ،حتى جاء علي بن حمود، فأعاد رسم القضاء، وأحياه بأن ولّاه الفقيه المشاور عبد الرحمن بن بشير، وكان آخر قضاة الخلفاء(٧٩).

إلى جانب دائرة القضاء، كانت هناك دائرة اخرى مستقلة، هي خطة المظالم. وهي هيئة قضائية تعالج كل المسائل، التي يعجز عن البت فيها القاضي، فينظر فيها من هو أقوى يدا منه، وذلك أن التنازع اذا كان بين ضعفين قوى أحدهما القاضي وإذا كان قوياً وضعيفاً أو قويين قوة أحدهما في الولاية كظلم الامراء للعمال، القاضي عن البت فيها، وأول من جلس اليه عبد الملك بن مروان(٨٠).

وقد ظهرت خطة المظالم في الاندلس لاول مرة في عهد الامير الأموي الثاني خلال النصف الثاني من القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، هشام الرضا، الذي اتخذ مكانا للمظالم بالقرب من القصر الحكومي بقرطبة على الرصيف المشرف على النهر الكبير، في أحد المساجد، وكان الامير هشام الرضا، هو الذي ينظر في المظالم ابتغاء وجه الله كما قال المقري في نفح

الطيب(٨١). أمـا في المغرب فقد ظهـرت خطة القضـاء لاول مرة في القيروان، حيث استحـدثها القاضي سحنـون. إذ أن أول مرة يرد ذكـر الخطة في سنة ٢٣٧هـ/ ٨٥١م حينما ولي الخطة حبيب بـن نصر التميمي. لان تعيين قـاضي المظالم كان مـن اختصاص قـاضي الجماعة(٨٢). وبعد ذلك يـرد ذكر صاحب المظالم مقرونـا بعبارة مؤداها، أن القاضي الفـلاني، هو الذي ولاه المنصب، فابـراهيم الخشاب ولي من قبـل عيسى بن مسكين(٨٣) وجعفر بـن أحمد بن وهب وأحمد بن بحـر، ولي كلاهما من قبـل اسحق بن أبي المنهال(٨٤) ومـع ذلك فقد كـان الحكام يمارسون أعمال هذه الخطة.

إضافة إلى خطة المظالم، كانت خطة المناكـح، التي كانت تتبع أيضا الى القاضي، الذي كان يعين من يـراه صالحا لها، كما كان الحال في شـأن المظالم والاحكام، وهـي تشبه اليوم مـايسمى بدائرة القضاء الشرعي في مسائل الزواج والطلاق وما الى ذلك(٨٥).

وخلال حكم الامويين في الاندلس، استحدثت خطـة قضائية اخرى، لم يسمع بمثلها في المغرب ولا في المشرق، هـي خطة (قضـاء قريـش) ،التـي اقتصرت أعمالها على الامويين الانـدلسيين، الذين كانـوا يعتزون بانتمائهم الى قبيلة قريـش. وعرفت هذه الخطة بصورة خـاصة في مدينة قرطبـة، حاضرة الحكـم الاموي، ومجمـع رجاله وأتبـاعه، وكـانت مـن مهام قـاضي الجماعة بقرطبـة. وممن تسلمها على سبيـل المثال، محمد بـن عبد اللـه بن هرثمـة بن ذكوان مـن أهل قرطبة، وهو الذي اشتهر بعفته وحسن سيرته في القضاء(٨٦).

هذا ،وقد كـان حكام المغرب والاندلس، يسـاعدون ويشاركون في عملية انجـاح مهمة القضاء، ولاسيما في الحوادث التي كـانت تجري مـع العاملين في قصـورهم. نـذكر مـن هؤلاء الحكـام محمد بن أبي عامر(٨٧). الذي كان يرفض حماية حرّاسه أو العاملين في قصره. فقد حدث أن بعض أهـل قرطبة اشتكى أحـد حراسه المقـربين، لانه رفض وفـاء دين مستحق عليه، فـأمر محمد بن أبي عامر صاحب المظالم، ليأخذ منه حق المدعي(٨٨).

وبالمقـابل كان القضـاة يرفضون بعـض طلبات الحكـام، عندما كـانوا يرونها تتعـارض مع القوانين الشرعية. نضرب على ذلك مثـلا ان القاضي ابا بكر محمد قاضي قـرطبة، رفض الموافقة على أخذ مال الاوقاف للانفاق على المصالح العامة، وعندما اشتد الالحاح عليه، رفض البحث في الموضوع، فاستبعدت الفكرة من أصلها. وكان ذلك في عهد أبي الوليد محمد بن جهور في عصر دول الطوائف(٨٩).

أما بشأن أمكنة ومواضع القضاء في المغرب والاندلس خلال هذه الفترة، فقد ظهر واضحا، أنه لم تكن هناك أماكـن ثابتة خاصة لجلوس القـاضي من أجل مباشرة أعماله القضائيـة، بل كان القاضي يمارس عمله في مسجد المدينة أو المحلة، التي عين لقضائها، وبعضهم الآخر كان يتخذ من داره مكانا للقضاء(٩٠).

ومن ناحيـة الارزاق والرواتب، التي كـانت تخصص للقضـاة، فـانها كانت عاليـة بشكل عام،

لكننا لانعرف عن مقدارها المحدد شيئا يمكن الاعتماد عليه. وكان بعض القضاة يرفضون رفضا قاطعا تقاضي أية أجور مقابل قيامهم بعمل القضاء، والامثلة في هذا الشأن كثيرة، نذكر منها القاضي سحنون، الذي رفض أن يأخذ رزقا على قضائه، أو صلة من السلطان، وعبد الرحمن بن سوار قاضي الجماعة بقرطبة على عهد المعتمد ابن عباد. ويبدو أن هؤلاء القضاة، كانوا يعيشون بحبوحة اقتصادية مكنتهم من عدم الاعتماد على أرزاق منصب القضاء(٩١).

أما الغالبية العظمى من القضاة في المغرب والاندلس، فقد قبلوا أخذ أجر على القضاء، لانهم كانوا بحاجة لهذا الاجر على مايبدو، بسبب قلة ما في يدهم من جهة، وتشجيع الشرع الاسلامي الذي يقر أحقية هذا الاجر من جهة أخرى. وزاد بعضهم على ذلك، بأن لجأوا الى أساليب ملتوية فقبلوا بالرشوة علانية وسرا، دون ان يجدوا فيها أدنى حرج أو عمل مشين، كما فعل قاضي القيروان مانع بن عبد الرحمن الرعيني، فكان من عادته اذا سجل قضية، وختم في أسفلها، أن يكتب تحت الختم (بقي شيء) يعني الرشوة(٩٢).

أما الفترة الثانية فتبدأ من الربع الاخير من القرن الخامس الهجري/ وتنتهي في أواخر القرن التاسع الهجري. وكان السبب الهام، الذي جعلنا نبحث قضاء هذه الفترة بشكل منفصل عن الفترة السابقة، وهو أن القضاء في عهد المرابطين والموحدين، تأثر منذ البداية بالجو العام المتشدد، الذي اتخذه المرابطون بشكل خاص، مما أعطى فقهاء هذه الفترة سلطات واسعة جدا، وبخاصة في عهد المرابطين وطبقوا مالكية من نوع صارم للغاية. فكان علي بن يوسف بن تاشفين، لايقطع امرا في جميع ممتلكاته دون مشاورة الفقهاء، فاذا ولى احدا من قضائه كان فيما يعهد اليه، الا يقطع امرا ولايبت حكما في صغير من الامور، ولاكبير الا بمحضر أربعة من الفقهاء(٩٣).

يضاف الى كل هذا، أن القضاء الموحدي لم يكن واضح المعالم، بسبب تحيز القضاة الموحدين لمذهبهم. فقد جاء الموحدون الى الحكم بعد سحقهم لنظام حكم مالكي صارم. ولذلك اتهموا بعدائهم للمالكية، وشملت التهمة موظفيهم ايضا، على الرغم من أنهم جميعا كانوا على المذهب المالكي.

بقيت مصادر القضاء في هذه الفترة، هي نفسها التي كانت معتمدة في الفترة السابقة وهي القرآن والسنة. يقول ابن صاحب الصلاة في هذا الصدد: (وكانت الوجوه التي تقضي الى الحق في فصل قضايا العباد متنقبة، والطرق المؤدية الى معنى الصدق ملتبسة متشعبة، فخرج فيها بنيات تخطى الصراط المستقيم، وتضل الضلال البعيد، فصار امضاؤها عن غير استثناء إلى هذا الهدى المتبوع، والعلم المرفوع خطرا على ممضيها، وانفاذها على غير هذه السنن غرقاً على منفذيها. ولما كان الامر كذلك تعين ووجب وثبت وترتب، وان نخاطب جميع عمال بلاد الموحدين أعزهم الله شرقا وغربا وبعدا وقربا خطابا يتساوي فيه جميعهم، ويتوازي في العمل فيه كافتهم بألا يحكموا في الدماء حكما من تلقائهم، وبرأي من آرائهم، ولايقدموا على سفكها

بما يظهر اليهم، أو يتقرر فيما يـرونه لديهم، الا بعد أن ترفع الينا النـازلة على وجهها، وتؤدي على كنهها، وتشرح حسب مـاوقعت عليه، وتنهى بالتـوثيق والبيان على ما انتهـت اليه، وتقيد بالشهـود والعدول المعروفين في مـواضعهم بالعدل والـرضا الموجبين للقبول. وتكتـب أقوال المظلـومين وحججهم واقـرارهـم واعترافهم وحجـج الطـالبين في مقـالاتهم، واستظهارهـم في بيناتهم)(٩٤).

وقد تشدد الموحـدون فيما بعد بتطبيق هذه الامـور، فما رأى الخليفة الموحدي يوسـف بن عبد المؤمـن المتوفى سنـة ٦١٩هـــ/ ١٢٢٢م كثـرة الخلاف بين الفقهاء، ومـا نشـأ عـن ذلك مـن التعصب للمذاهـب، أمر برفض فروع الفقـه، وأن لايفتي الفقهاء الا بالكتاب العـزيز أو السنة النبوية، ولايقلدون أحدا وأن تكون أحكام القضـاة بما يؤدي إليه اجتهادهم في الكتاب والسنة والإجماع والقياس. ولكن ذلك لم يـدم طويلا، بل عاد الحال كما كان بعد وفـاة الخليفة، سابق الذكر(٩٥).

خلال هذه الفترة، أضيفت الى بعض القضاة مهـام أخرى ادارية كبيرة، مثل الحسبة والشرطة، والتي قام بـأعبائهما على سبيل المثال القـاضي عبد المنعم بن الفـرس في غرناطة خـلال القرن السـادس الهجـري/ الثـاني عشر الميلادي، وتمكـن مـن القيـام بهذه الاعمال مجتمعـة خير قيام(٩٦) وكما كـان الحال في الفترة السابقة، فقد شـارك القضاة في أعمال القتال والـذود عن حياض الـوطن، نذكـر منهم قاضي القضـاة أحمد بن رميلة القـرطبي، الذي قضـى شهيدا في واحـدة من المعـارك بين العـرب والاسبـان. وكانـوا يقـومـون بأعمال مختلفـة على الصعيـد السياسي، مثال ذلك أن حكام الاندلس قاموا بارسال وفد من قضاة قرطبة واشبيلية وغيرها الى حاضرة المرابطين في المغرب، فالتقـوا ابن تاشفين، وتمكنوا من الحصول على مـوافقته بارسـال قوات مرابطية لنجدة الاندلس ضد الخطر الاسباني(٩٧).

وفي هذه الفترة أيضـاً، استمرت تسمية كبير القضاة، التـي كانت كما رأينا (قـاضي الجماعة) وظلت حكـرا على الحواضر الكبرى، مثل مدينـة مراكش، التـي بقيت عاصمـة الدولة العـربية الاسلامية في الجناح الغربي من ديار العرب والاسلام في عهد المرابطين والموحدين. وعند زوال دولة الموحدين في النصف الثاني من القرن السـابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، ظهر على المسرح السياسي في المغرب ثلاث دول هي: الدولة المرينية في المغرب الاقصى وعاصمتها فاس، والدولة الـزيانية أو دولة بني عبـد الواد في الجزائر وحاضرتها تلمسان، والـدولة الحفصية في افـريقية ومـالقـة ووادي آشي في الزاويـة الجنوبيـة الشرقيـة من الانـدلـس. وفي جميع هـذه الحواضر، كان يوجد قاضٍ يحمل لقب قاضي الجماعة أو قاضي الحضرة. فقد سمي القاضي أبو عبد اللـه محمد القرشي المعـروف بالمقري، قاضي فـاس بقاضي الحضرة المرينية(٩٨) وكـذلك القاضي محمد بن احمد التميمي بقاضي الجماعة. وكذلك قضاة حضرة تونس(٩٩).

وكان القاضي في مـدينة سبتة في الفترة المتأخرة مـن العصور الوسطى، يلقـب بقاضي القضـاة،

خلال فترة حكم أسرة بني العزمي، التي ظهرت على مسرح الحكم في مدينة سبتة منذ سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٥٠م وظلت حتى احتلها صاحب مالقة من بني الاحمر وضمها الى دولته(١٠٠).
وبقيت خطة الشورى من الخطط المهمة الملحقة بالقضاء. وظل يطلق على من يتقلدها (المشاور) حتى نهاية القرن التاسع الهجري موضوع هذا البحث، وظل اختصاصها ثابتا حول الافتاء وابداء الرأي في المسائل الشرعية البحتة(١٠١) وتطور الامر بأصحاب هذه الخطة إلى الافضل بعد نهاية القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. فقد كانوا قبل ذلك دون مرتبة قاضي الجماعة، مع أنه كان يستشيرهم في بعض المسائل والاحكام، وكان رأيه هو المعول عليه في اصدار الاحكام. أما في الفترة التي تلت نهاية القرن السادس الهجري، فقد انقلبت الصورة تماماً، حيث أن قاضي الجماعة مهما كانت مرتبته العلمية وخبرته العملية في القضاء، فان أحكامه كانت تظل رهن مواقفه المفتي المشاور ولاقيمة لها بدون موافقته. وكان ابن الدباغ صاحب كتاب(معالم الايمان في معرفة أهل القيروان) خير من ألمح إلى ذلك الواقع بوضوح تام. ومع ذلك فقد نسي، أن يحدد لنا على وجه الدقة، متى كان هذا التحول. يقول:«....ان القاضي ،قاضي الجماعة كان عندهم أرجح من الفتيا، وليس كذلك في زماننا. وذلك أن القاضي ولو كان من أدين خلق الله، لابد أن يشتكي منه بعض المحكوم عليهم، فلابد من ناظر فوقه ينظر في أموره، وذلك المفتي هو الذي يرتهن في قاضي الجماعة، ولايقدم قاضي الجماعة قاضيا في بلده من عمالته أو شاهداً أو حكيماً معتبراً الا بعد مطالعته. فهو القاضي في الحقيقة، وقاضي الجماعة انما هو كالنائب عنه. ولايختل هذا النظام الا اذا قاضي الجماعة قدر المفتي في العلم ويكون السلطان قدمه لنفسه..»(١٠٢)
وفي ظل حكم الحفصيين بتونس، كان بعض الفقهاء يقومون بالاشراف المباشر على جميع القضاة، وتفقد أعمالهم والوقوف على حسن سيرها، مثال ذلك أحمد بن محمد الهنتاني أبو العباس، الذي عين ناظراً على جميع الكور وعدولها.(١٠٣)
وحافظ القضاة على المسيرة العامة لأسلوب وأصول المحاكمات، لان المذهب المالكي بقي الوحيد في المغرب والاندلس، كما كان من قبل. وهذا ماجعل العقوبات، هي نفسها التي ينص عليها هذا ا لمذهب. لكن ذلك لم يكن بصورة مطلقة، بل وجد من القضاة من شذ عن ذلك، وكان عقوباتهم تصل الى حد من الشناعة والبشاعة، بشكل لايليق بالانسان، مما كان يؤدي الى تحريك غيرة الحكام وحرصهم على حياة الناس، فيقومون بعزل مثل هؤلاء ا لقضاة. فقد استغل القاضي ابن دحية مسألة كراهية الموحدين للموسيقى والغناء، فحكم خلال الربع الاخير من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، على شخص ضبط وهو يستعمل زمراً بأن قام بشق فمه وتشويه وجهه، واستئصال مذاكير شخص آخر، مع أنه لايوجد نص قرآني أو حديث نبوي، يخوله فعل هذه الجرائم البشعة. ولما سمع المنصور الموحدي بهذا الحكم البشع، قام بخلع القاضي ابن دحية، وكان اذ ذاك على قضاء دانية في شرق الاندلس.

وقد جاء هذا الحكم في وقت كان الحكام الموحدون، قد بدأوا يتسامحون مع المغنين والموسيقيين بعد ملاحقة قاسية لهم منذ بداية حكم الموحدين.(١٠٤) والشيء اللافت للانتباه في قضاء هذه الفترة من تاريخ المغرب والاندلس، تلك التطورات والمسائل الجديدة، التي كانت تظهر بين الفينة والاخرى على مسرح القضاء. فلم نعد نسمع ونقرأ عن قاضٍ كان يقوم بمهمة الصلاة إلى جانب القضاء، كما كان الحال في القرون الخالية، بل أصبح يقال، أن فلانا القاضي عين للقضاء والخطابة، كما حدث مع القاضي محمد بن محمد السلمي، الذي ولي القضاء والخطابة بغرناطة سنة ٧١٧هـ/ ١٣١٨م(١٠٥).

لكن هذه التطورات لم تكن عامة أو ملزمة، بقدر ماكانت فردية اقتصرت على بعض القضاة المتفقهين، الذين يقرنون تطورالاساليب القضائية بتطور العادات والأزمان، كالقاضي أبي المطرف بن عبد الرحمن المالكي، الذي ولي القضاء في مدينة مالقة وضواحيها في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. وكانت له في الاقضية مذاهب من الاجتهاد، لم تكن لغيره من رجال طبقته، مثال ذلك أنه كان يقول في اللصوص المحاربين، اذا اخذوا ومعهم أموال، فجاء قوم يدعون ملك الاموال وليست لهم بينة، ان القول قولهم في أن المال لهم بعد الاستثناء قليلا، وروجع في ذلك فقال، المروي عن مالك أنه قال، يقبل قولهم على اللصوص ودعواهم بغير بينة، وما أعطاهم مالك ذلك الا بسيئة الحال، التي عليهم من أنفسهم بالفساد، فكانت حالهم السيئة من السعي في الارض بغير الحق بينة عليهم.

كذلك كان يقول في الظالم المعروف بأخذ أموال الناس واستباحتها بغير حق، ويردد قول عمر بن عبد العزيز: (تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور ولافجور أعظم من الظلم والتسلط على أموال الناس وأشيائهم بغير الحق. وقد جعل الله عليهم بذلك السبيل، انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الارض بغير حق)(١٠٦). فاذا كان للمظلوم سبيل فالقول قوله وعلى المدعى عليه البينة، فان البينة في لسان العرب مشتقة من البيان، فكيفما تبين الامر فهو بينة كله(١٠٧) فظلم الظالم بينة عليه.

وكان باستطاعة القاضي في هذه الفترة اسقاط أية شهادة، يراها كاذبة أو مشكوك بصحتها، وهذا مافعله القاضي أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن فرتون في سرقسطة، عندما حضر عنده مجموعة من الرجال بلغ عددها خمسة عشر رجلا، شهدوا على أبي عمر الطلمنكي، بأنه حروري سفاك للدماء، فأسقط شهاداتهم على الرغم من أنهم كانوا جميعا من النبهاء والعلماء المرموقين في مدينة سرقسطة، لانه شعر بأن دوافعهم شخصية بحتة، لاتمت الى جذور الحق والعدل(١٠٨).

ووجد من بين القضاة في الاندلس، من كان لايتقيد بالمتواتر عن الصحابة من أحكام وثوابت قانونية شرعية. نذكر من هؤلاء قاضي المرية في عهد المرابطين محمد بن يحيى المعروف بابن البراء، الذي رفض أمر الحاكم المرابطي، بأن يفرض معونة على أهل المرية ويرسلها إليه

لاستخدامها في تمويل عمليات الجهاد والمناضلة، فرفض ذلك على الرغم من تذكير الحاكم له، بأن الخليفة عمر بن الخطاب صاحب رسول الله (ص)، وافق على ذلك وما يحق له لايحق لغيره(١٠٩).

ويشمل جزء من هذه التطورات قضية الشهود أثناء المحاكمات. فقد كان القاضي أبو محمد عبد الله الوحيدي، الذي ولي قضاء مدينة رية خلال النصف الاول من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، هو الذي ينتقي الشهود، وكان يساوي بين الشريف والمشروف في القضاء، وهو الذي بدأ تجديد ماكان قد درس من رسم الاحباس(١١٠).

أما قاضي بجاية محمد بن عبد الرحمن الخزرجي الانصاري الشاطي، فكان يرى أن لايقدم الشهود الا عند الحاجة، ويرى كثرة الشهود مفسدة وطلب منه الحاكم ان يقدم رجلا من أهل بجاية، فقال له مشافهة، ان شئتم قدمتموه وأخرتموني، وكان يرى أن جنايات الشاهد انما هي في صحيفة من يقدمه من باب قوله عليه الصلاة والسلام (من سن سنة حسنة ومن سن سنة سيئة)(١١١).

وقدرأى بعض القضاة عدم صحة أي عقد من العقود، مالم يشهد بصحته أربعة من الشهود العدول، على الرغم من أن القاضي ابن رشد خلال القرن السادس الهجري، كان يقول، إنه يكفي اثنان من الشهود العدول، ويرفض أن يشهد أكثر من ذلك عملا بما جاء في الذكر الحكيم (واستشهدوا بشهيدين من رجالكم)(١١٢) هذا القاضي هو يحيى بن مسعود المحاربي قاضي غرناطة(١١٣).

وبقي القضاء محافظا على قدره واحترامه ومكانته حتى نهاية عصر الموحدين أو قبل ذلك بقليل. ودليل ذلك أن عظماء وكبار الحكام، كانوا يقفون بخشوع واحترام أمام ارادة القضاة من خلال أحكامهم الرائدة، مثال هؤلاء الحكام، الخليفة المنصور الموحدي، الذي كان قد زوج أخته لابي محمد عبد الواحد الحفصي. وفي وقت من الأوقات جرت بينهما منافرة جاءت على أثرها الى بيت الخليفة الموحدي المذكور، وبعد أمد قصير لجأ زوجها الى القاضي، الذي قام بدوره بابلاغ الخليفة ضرورة أن يعيدها إلى زوجها، وتكرّر ذلك للمرة الثالثة، التي قال خلالها القاضي للخليفة: (يامولانا ان الشيخ عبد الواحد قد تكرر طلبه لأهله، فاما ان يسير اليه أهله، وأما ان تعزلني عن القضاء فضحك المنصور وأمر أحد غلمانه سرا بإيصال أخته الى زوجها)(١١٤).

لكن الامر لم يكن كذلك في الفترة، التي أعقبت حكم الموحدين، والتي تبدأ منذ النصف الثاني من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، وتنتهي في أواخر القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي. وخلال هذه الفترة لم يبق القضاة يسيرون على الدرب، التي كان يسير عليها أسلافهم والتي تجسدت بالاستقامة والصلابة والجرأة في مسألة اتخاذ الاحكام دون خوف من أحد، هذا بالاضافة الى المعرفة العلمية المكينة، التي كانت من أهم شروط المرشحين

للقضاء، أصـابها هي الاخـرى بعض الإهمال. فقـد ذكر ابن الـدباغ الـذي عاش معظـم سني القرن السـابع الهجري/ الثـالث عشر الميلادي، أن القضاة في عصره، لم يكـونوا بالسـوية أو المرتبة، التي كان عليهـا من سبقهم من القضاة. وكان يقارن بين معاصريـه منهم وبين الذين سبقوهم مثـل القاضي ابن غانـم ، الذي اشتهر أمره في عهد الاغـالبة بتونس، الـذي يقول فيه: (واعجباه! هكـذا كان القضـاة في تواضعهـم وتعظيمهم لاصحـابهم، واليوم صـار يتقدم على الناس قاضيا من لايستحقه، فكما غلط فيه من قدمـه، فأخذ هو في نفسه بالتكبر عمن هو مثل من قدمه. وما عاينته من قضاة الـوقت أعظم مما استتر فيهم، فالله يجبر كسر المسلمين، حتى لايتقدم على الناس الا أعلمهم وأتقاهم، بحيث يكون القاضي لاتأخذه في الله لومة لائم في سائر البلاد شرقا وغربا)(١١٥).

وصار بعـض القضاة ألعوبة في أيـدي الحكام وبعض الـوزراء المتنفيذين، الامر الـذي جعلهم ينفذون كـل مايطلـب منهم، مهما كان قبيحـا وخطيرا. وفي هذا الصدد، يقـول صاحـب كتاب (التاج المكلـل) في ترجمة الوزيـر الاندلسي لسان الـدين بن الخطيـب، بعد ان ذكر مقتلـه سنة ٧٧٦هـ/ ١٣٧٥م: (أن قتله كـان من المجازفات التي صـار يرتكبها قضاة المالكيـة ويريقون بها دماء المسلمين بلا قران ولابرهان)(١١٦).

ومن كـان يتصلب أمام هذا الـواقع المخزي من القضـاة، وفي سبيل أن تظل راية الحق خفـاقة ترتفـع فوق كل الـرايات، كـان يواجه بتهـديدات قاسيـة، كثيرا ماكـانت تتوج بـانهاء الحياة والموت، مما كان يجعل بعض القضاة غير قادر على الخروج ليلا من بيته(١١٧).

وتمتاز هذه الفترة عن سـابقتها بظهور تسمية جديدة، أطلقت على بعـض فروع القضاء، وهي تسمية (قاضي العسكر)، الذي كان يرافق القوات العسكرية في حلها وترحالها، ومهمته حل كل مايحدث في صفوف العسكـريين من مشاحنات وخصـومات، وهو نفسه الـذي كان يسمى في الفترة السابقـة (قاضي الجند)، عنـدما لم تكن الحيـاة المدنية قـد استقرت وتشعبت مصـالح الناس، بعد أن كثرت جموعهـم، وبالتالي تعقدت مشاكلهم العـامة والخاصة، نضرب على ذلك مثلا القـاضي عبد الرحيـم بن اسماعيل، الـذي عينه المرابطون قـاضيا لعسكرهـم الموجود في مدينة سلا المغربية(١١٨). وكان قاضي العسكر هذا يسمى في بعض الاحيان والاماكن (قاضي المحلة) الـذي لايستبعد أن تكون هذه التسميـة اقتصرت بشكل خاص على حواضر وعـواصم الدول المنفصلة، التي أُبتُلِي بها المغرب العربي بعد زوال الدولة الموحدية، مثل القاضي محمد بن أحمد بن ابراهيم التريكي المتوفي سنـة ٨٩٤هـ/ ١٤٨٩م الذي عين كقاضٍ للمحلة أو العسكر في تونس حاضرة الحفصيين(١١٩). ومثله قضاة كثيرون تعاقبوا على قضاء العسكر في مدينة فاس وتلمسان حاضرتي الدولة الزيانية والمرينية(١٢٠).

إضافة إلى قاضي العسكر، فقد وجد قاض موسمي، هو القاضي الذي كان يعين على قضاء قافلة الحج، التي تفرقت الى عدة قوافل تبعا لتفريـق الدول وتشتتها. ففي حين كانت قافلة واحدة في

عصر المرابطين والموحدين، صارت نحو ثلاث أو أكثر بعد سقوط دولة الموحدين. فقد كان المرنييون الذين حكموا المغرب الاقصى، يرسلون قاضيا مع ركب الحاج الذاهب الى الاراضي المقدسة بالحجاز لتأدية فريضة الحج. وكان هذا القاضي يدعى (قاضي ركب الحجيج المريني) مثال ذلك القاضي محمد بن زغبوش، الذي عين لهذه المهمة في موسم سنة ٧٠٣هـ/ ١٣٠٤م في عهد السلطان أبي يعقوب المريني(١٢١). وكذلك كان الامر عند الحفصيين في تونس والزيانيين في الجزائر.

وكان لكل قاض مساعد أو نائب، كثيرا ماسمي في هذه الفترة بصاحب الأحكام، وهي تسمية أطلقت أحيانا على القاضي نفسه. وكان القضاة يريدون من نوابهم ومساعديهم أن يكونوا مثالا للاستقامة والصرامة، وعدم التهاون في احقاق حقوق الناس على أساس تعاليم الشرع وأحكامه، ويظهر ذلك بجلاء من خلال أمر تعيين أحد القضاة نائبا عنه في بعض جهات مرسية بالاندلس. يقول: (قلدت فلانا وفقه الله النظر في أحكام فلانة وتخيرته لها بعد ما خبرته، واستحلفته عليها وقد عرفته وقلدته واثقا بدينه راجيا لتحصينه، لانه احتاط فعلم وان أضاع أثم. فليقم الحق على أركانه وليصنع العدل في ميزانه، وليساو بين خصومه، وليأخذ من الظالم لمظلومه. فقف في الحكم عند استشباهه، ونفذه عند اتجاهه، ولاتقبل غير المرضي في شهادته، ومن لاتعرف سوى الاستقامة من عادته، ولتعلم ان الله مطّلع على خفياته وسائله يوم ملاقاته)(١٢٢).

إلى جانب ذلك نرى قاضي الانكحة، الذي ظل معروفا في هذا العصر، كما كان في سابق عهده، وان كانت مهمته قد تحددت بدقة أكبر. ففي تونس وغيرها من بلاد المغرب والاندلس الاخرى، جرى العرف بأن نظر قاضي الجماعة هو نظر عام يشمل قاضي الانكحة، الذي يعد في أحسن حالاته نائبا عن قاضي الجماعة(١٢٣).

ومن ناحية اخرى فقد انقسم القضاة الى فريقين خلال هذه الفترة، فريق قبل أصحابه تناول الاجر، الذي كان مقرراً للقاضي، وكان أجرا محترما، وفريق رفض تناول هذا الاجر، اما أن يكون من أجل مضاعفة الاجر والثواب عند الله. أو أن حالته المادية تساعده على عدم اللجوء إلى ذلك(١٢٤).

وبقي المكان الذي يقضي فيه القاضي بين الناس غير مستقر أو محدّد في جهة معينة. فكان بعض القضاة كما في السابق يقضي بين الناس في المسجد، حيث تعين فيه زاوية خاصة لهذا الامر. وبعضهم الآخر كان يمارس عمله في منزله أو في مكان آخر(١٢٥). ولايعرف السبب الذي جعل الحكومات العربية الإسلامية في العصور الوسطى موضوع هذا البحث، تهمل هذا الامر، على الرغم من جلالة وعظمة منصب القضاء في تلك العصور السالفة. ومهما كانت حقيقة الواقع، فان ذلك يعد هفوة كبيرة وقع بها هؤلاء الحكام، وشاركهم فيها القضاة، الذين لم ينبهوا لمثل هذا الامر، الذي كان من غير الممكن رفضه من قبل أي حاكم.

وكان لـوجود القضاء في البيوت على الـرغم من ذلك حسنـات عديدة، فبـالاضافة الى أنه يـوفر للقاضي جـوا مريحا على مختلف الـوجوه، فقد حـدث أن شاركـت بعض من زوجـات القضاة بانجـاز كثير من الاحكام والنوازل، فقـد حكي أن بعض قضـاة لوشة، كـانت له زوجة فـاقت العلماء في معرفة الاحكام والنوازل، وكان في محل قضائه تنزل به النوازل، فيقوم اليها، فتشير عليه بما يحكم به(١٢٦).

بقي أن ننوه بفـرع آخر من فروع القضاء في المغـرب والاندلس خلال العصور الـوسطى، هو قضاء أهل الذمـة. فنقول في البداية، أن العرب المسلمين في الاندلـس والمغرب، برهنوا على أنهم خير من تمثل روح الاسلام النقية الصافيـة في ميدان التعامل مع غير المسلمين من المسيحيين واليهود على جميـع الصعد، ولاسيما على صعيد القضاء؛فـالذي حدث في المغرب والانـدلس في هذا الميدان، لم يحدث مايماثله في منطقة عربية اسلامية اخرى خلال العصور الوسطى، وهذا مايقودنا لتـأكيد فكرة مهمة، هي أن عرب المغـرب والاندلس، استطاعوا أن يتفوقـوا في مسـألة تطبيق التعاليم الاسـلامية الصحيحة، التي تؤكد على التعايش الانسـاني والحضاري مع كل شعوب الارض.

فمن هم أهـل الذمة، الذي تشملهـم هذه التسمية؟ كل القواميـس اللغوية تقول، أن الـذمة هي العهد والكفالـة، وتجمع على ذمام، وفلان له ذمـة أي حق. وهم الذين يـؤدون الجزية من غير المسلمين. ورجل ذمي في معناه رجل له عهد، وسمي أهـل الذمة ذمة لدخولهم في عهد المسلمين وأمانهم(١٢٧). وجاء في الكتاب العزيز (لايرقبون في مؤمن ولا ذمة)(١٢٨).

وبصورة عامة فان اصطلاح أهل الذمة، يعنـي الجماعة من الناس، التي تؤدي الجزية من أهل الكتاب، الذيـن عاهدوا المسلمين على أن يجري عليهم حكـم الله ورسوله، طـالما هم مقيمون في ديار المسلمين، وعلى المسلمين اقـرار غيرهم على دينهم، وحمايتهم حمايـة كاملة بشرط تـأدية الجزية، والتزامهم بـالمسيرة الاسلامية العامة، باستثناء الشـؤون الدينية البحتة(١٢٩). وفي مقابل ذلك كان على المسلمين رفع الظلم والعدوان عن أهل الذمة في أموالهم وممتلكاتهم العامة، ولهم الحق في العيش مع المسلمين عيشة هانئة لانهم رعية الدولة ومواطنيها(١٣٠).

وقد طبق العـرب المسلمون في المغرب والاندلـس جميع الشروط التي أقرهـا الشرع الاسلامي، وزادوا على ذلك باعطاء أهل الذمة، الذين كـانوا بصورة خاصة من اليهود والمسيحيين حريات واسعـة جدا، تـوجـت بـالسماح لهم بممارسة القضـاء على مـذاهبهـم الدينيـة والحكـم بين المتخاصمين بمقتضـى قانـون هذه الاديـان وتشريعاتها، وهـذا لم يحصل لـه نظير في منطقة أخرى غير الاندلس. وظلّ ذلك مرعيا راسخ الجزور طوال فترة الحكم العربي هناك تقريبا.

وقد حكم النصارى في دوائر قضائهـم بموجب القانون القوطي، وكان قـاضيهم يسمى قاضي النصـارى وقـاضي العجـم. وكـذلـك كـان لليهـود تنظيـم قضـائي واداري كما كـان للمسيحيين(١٣١) وكانـوا يعينون لهم حكاما مـن أبناء جنسهم عهدوا اليهـم بسن الضرائب

المطلوبة والاشراف على النظام والامن في المنطقة(١٣٢). ولم يكونوا يلجأون للقاضي المسلم الا في مسائل القتل، فكانوا يقدمون اليه ويعرضون ادلتهم. وكانت المحاكم الذمية تقبل شهادة المسلم على الذمي(١٣٣).

أما في الحالات التي كان الذميون، يقدمون على شتم الرسول العربي الكريم، أو التقليل من قدر الدين الاسلامي، فكانوا يحالون الى القاضي المسلم، مثال ذلك ماحدث سنة ٢٣٥هـ/ ٨٥٠م في عهد الامارة الاموية، عندما قام المستعربون(١٣٤) في حركتهم المعادية للعرب المسلمين في الاندلس، واستهلوها بشتم الرسول العربي الكريم، والقول بأن الدين الاسلامي دين يقوم على الوهم والخيال. فأحيل عدد كبير منهم الى قاضي المسلمين. لكن وعلى الرغم من بشاعة جرمهم في ذلك الوقت، فقد أمر الامير الاموي عبد الرحمن الثاني باعطاء المتهمين فرصة كبيرة للدفاع عن أنفسهم بتوكيل من يدافع عنهم، وإخضاع الأحكام الى درجات، حتى لايظلم أحد منهم. فكان لذلك أثره الايجابي الرائع في نفوس المستعربين، الامر الذي جعلهم يخففون من غلواء ثورتهم، ويعتبرون ان من مات في هذه الحركة ليس من الشهداء(١٣٤).

وإذا كان أحد أطراف القضية رجلا مسلما وهو المعتدى، فقد كانت القضية تحال الى قاضي المسلمين للفصل فيها، بحسب معطيات الشرع الاسلامي، الذي لايفرق بين المتخاصمين الا بالحق. ففي بداية القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، وخلال فترة قضاء القاضي سليمان بن الاسود الغافقي. ففي مدينة ماردة حدث ان أمير المدينة حجز امرأة مملوكة تعود ملكيتها الى رجل يهودي، فشكى اليهودي أمره الى القاضي سابق الذكر واستشهد بمن حول دار الامارة، بأنها موجودة عند الامير. وبعد تحقيق طويل كان من ضمنه انحاء اللائمة على الامير، وأنه اذا لم يُعِدْ الجارية الى اليهودي فانه أي القاضي سيترك عمله ويذهب الى قرطبة. وبالفعل فقد غادر القاضي مدينة ماردة متوجها الى قرطبة، وبينما كان على مسافة ميل منها جاءه أحد فتيان دار الامارة، وأخبره بأن الجارية موجودة عند أحد فتيان الامير، ولم يكن له علم بذلك، فأصر القاضي على أن تحضر(١٣٦) الجارية الى حيث هو موجود ليسلمها الى اليهودي، فجيء بالجارية وسلمت إلى صاحبها.

وقد عرفت في عصر الخلافة الاموية بالاندلس بعض أسماء القضاة المسيحيين الذين كانوا على علاقة طيبة مع بعض خلفاء هذه الفترة. نذكر منهم القاضي اصبغ بن عبد الله ببن نبيل قاضي النصارى على عهد الخليفة الحكم المستنصر، واصبغ بن سلمة، وهو الذي استعان به المنصور محمد بن أبي عامر حاكم الاندلس سنة ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م لحل خلاف وقع بين الفونسو وبعض المتنفذين من المسيحيين في جليقية، وقد حل الخلاف من قبل القاضي المذكور(١٣٧). ووليد بن حيزون الذي شغل دور المترجم بين الحكم المستنصر وبعض الوفود الاوروبية التي حضرت الى قرطبة(١٣٨) وقد عاصر الاول كمسؤول عن قسامة قومه اليهود في بلدة (اليسانة) القريبة من قرطبة، الحجاج بن متوكل اليهودي سنة ٣٦٢هـ/ ٩٧٤م(١٣٩).

وسلك القضاة المسلمون مع المتهمين الذميين بالاستهتار بجوهر الدين الاسلامي مسلكا طيبا، فكان القاضي المسلم. يطرح على المتهم مسألة اعتناق الاسلام، فان قبل بها نجا وبرئت ساحته، وان رفض طبقت بحقه العقوبة المنصوصة على جرمه، وهي الموت في حاله شتمه للرسول العربي الكريم(١٤٠).

وكان القضاة العرب المسلمون، يقفون امام مقدسات المسيحيين باحترام بالغ، ولاسيما عندما كانوا يلجأون لاخذ اليمين منهم، فقد كانوا يبحثون عن أهم المقدسات المسيحية في البلدان التي كانوا يعملون فيها من أجل ان يحلف المسيحيون في قضية معينة فكانوا يخيرون بالذهاب الى أقدس مركز ديني ومعهم نائب عن القاضي المسلم، يرافقه أحد الشهود، فيحلف اليمين وتنقضي المشكلة(١٤١).

وهناك حالة أخرى كانت تستوجب احالة المتهم الى القاضي المسلم، وهي التعامل مع الاسبان في الشمال، فقد واجه القاضي أبو الوليد بن رشد واحدة من هذه الحالات، عندما أحيلت الى دائرته القضائية مجموعة من المعاهدين الاسبان، فحكم على جميع افراد هذه المجموعة بالنفي الى المغرب وتفريقهم في نواحيه، وهو أحق ما يؤخذ به في عقابهم. وكان أفراد هذه المجموعة قد اتصلوا مع اسبان الشمال، وشجعوهم على غزو ا العرب المسلمين سنة ٥١٩هـ/ ١١٢٦م(١٤٢).

وتدخل بعض الحكام لدى القضاة للتخفيف من وطأة الاحكام على أهل الذمة، على الرغم من شناعة الجرائم، التي كانوا يقترفونها. فقد توسط يوسف بن تاشفين لدى قاضي الجماعة بقرطبة محمد بن علي التغلبي، وأمره بالاكتفاء بتغريم يهود اليسانة بشيء يراه مناسبا لانهم يزعمون ان الرسول الكريم كان منهم(١٤٣).

وفي حال عدم وجود قاضي ذمي في أية مدينة، كان قاضيها المسلم يكلف بالنظر في شؤون أهل الذمة، كما فعل القاضي منذر بن سعيد البلوطي، عندما كان قاضيا للجزر الاندلسية الشرقية(١٤٤). أي قبل ان يصبح قاضيا للجماعة في مدينة قرطبة خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي(١٤٥). وبالجملة فقد تمثل القضاة المغاربة والاندلسيون خلال العصور الوسطى كل الصفات الطيبة والانسانية الخالصة، واقتنعوا في أحكامهم المثل الصالح في عهد النبوة والراشدية وكأنهم كانوا يرون ويعلمون بدقة، انه لاصلاح لمجتمعٍ، مهما كانت امكاناته المادية والعلمية بدون قضاء محايد يأخذ الحق للضعيف من القوي.

الحواشي

١ـ ابن منظور ، لسان العرب ،مادة قضى.
٢ـ سورة النساء الاية ٦٤.
٣ـ ابن كثير (اسماعيل بن عمر) تفسير القرآن ج— طبعة ثانية بيروت دار المعرفة ١٩٨٨.
٤ـ سورة النساء الآية ١٠٥.
٥ـ الونشريسي ، كتاب الولايات، تحقيق محمد الامين بلغيث، دون ذكر لمكان وتاريخ الطبعة ص ٣٨ وما بعدها.
٦ـ الماوردي (علي بن محمد)، الاحكام السلطانية، طبعة بيروت، دار الكتب العلمية بدون تاريخ ص ٦٧ـ٦٨ الونشريسي، المصدر السابق ص٤٢.
٧ـ الونشريسي ـ المصدر السابق ص٤٢.
٨ـ الماوردي ـ المصدر السابق ص٧٠ـ٧١ الونشريسي ـ المصدر السابق ص٥٦ـ٥٧.
٩ـ الماوردي ـ المصدر السابق ٧١ـ٨٧.
١٠ـ استمرت عملية فتح المغرب من سنة ٢١ـ٨٧ هـ تقريباً.
١١ـ محمود عرنوس ـ تاريخ القضاء في الاسلام، نشر مكتبات الكليات الازهرية بمصر بدون تا ص٢١.
١٢ـ ابن قيم الجوزية (شمس الدين محمد بن أبي بكر)، أعلام الموقعين عن رب العالمين، ج١ تحقيق محي الدين عبد الحميد بدون تا ولامكان الطبعة، ص٢١ وما بعدها.
١٣ـ حسن حسني عبد الوهاب ـ كتاب العمر — مراجعة واكمال محمد العروسي المطوي وبشير البكوشي، طبعة اولى بيروت، دار الغرب الاسلامي ص٢٢٠ النباهي ـ المرقبة العليا.
نشر ليفي بروفنسال، دار الكتاب المصري القاهرة ١٩٤٨ ص٤٣.
١٤ـ خير الله طلفاق ، حضارة العرب في الاندلس، طبعة دار الحرية، بغداد ١٩٧٧ ص١١٢.
١٦ـ الخشني ـ قضاة قرطبة — طبعة الدار المصرية للتاليف والترجمة ١٩٦٦ ص١٢ـ١٣ وقد ذكر النباهي في المرقبة العليا ان هذا القاضي هو يحيى بن زيد التجيبيي ص٤٣.
١٧ـ المالكي ، رياض النفوس، تحقيق بشير البكوش، ج١ طبعة دار الغرب الاسلامي، بيروت ١٩٨٣ ص١٠٩.
١٨ـ في العصور الوسطى كان المغرب الاقصى يمتد من وادي ملوية إلى آسفي على المحيط الاطلسي، وسمي كذلك لانه ابعد ولايات الدولة الاموية عن العاصمة دمشق.
١٩ـ شكيب ارسلان ، الحلل السندسية، ج١ طبعة اولى، فاس المكتبة التجارية الكبرى ،١٩٦٣ ص٢٥٢
٢٠ـ الخشني ، قضاة قرطبة ص٦.
٢١ـ شكيب ارسلان ، المرجع السابق ص١٢.
٢٢ـ القاضي عياض (اليحصبي) ترتيب وتقريب المسالك ،ج١ تحقيق احمد بكير محمد.
دار مكتبة الحياة بيروت ١٩٦٧ ص١٠.
٢٣ـ النباهي ـ المصدر السابق ص٦.
٢٤ـ النباهي ـ المصدر السابق ص٣.
٢٥— شارل جوليان ،تاريخ شمال افريقيا، ترجمة محمد مزال والبشير بن سلامة، المطبعة التونسية

للنشر تونس ،١٩٧٨، ص٦٩ سعد زغلول عبد الحميد ـ هامش على مصادر الاباضية في المغرب، دراسة لكتاب السير في مجلة اشغال المؤتمر الاول لتاريخ المغرب العربي وحضارته ج١ المطبعة العصرية تونس ١٩٨٩ ص٧٥.

٢٦ـ سعد زغلول عبد الحميد ،المرجع السابق ص٧٥.

٢٧ـ محمود عرنوس ،المرجع السابق ص٤٤ ـ٤٥.

٢٨ـ هو يوسف الفهري ،آخر حكام عصر الولاة في الاندلس.

٢٩ـ الخشني، المصدر السابق ص٢٤ ،النباهي ،المصدر السابق ص٢١، محمود عرنوس المرجع السابق ص٩٩.

٣٠ـ ابن القوطية (محمد بن عمر القرطبي) ،تاريخ افتتاح الاندلس، تحقيق عبد الله انيس الطباع، طبعة بيروت ١٩٥٧ ص٩٣ـ ٩٤.

٣١ـ المراكشي (ابن عبد الله الملك)، الذيل والتكلمة، السفر الخامس القسم الاول، تحقيق احسان عباس، بيروت دار الثقافة ١٩٦٥ ص١١٤.

٣٢ـ ابن بشكوال (خلف بن عبد الملك) كتاب الصلة ج١ الدار المصرية للتاليف والترجمة ١٩٦٦ ص٥٦.

٣٣ـ الذهبي (محمد بن احمد شمس الدين)، العبر في خبر من غبر، ج٥ تحقيق ابو هاجر محمد زغلول، طبعة اولى بيروت دار الكتب العلمية ١٩٨٥ ص٢٦١.

٣٤ـ النباهي ،المصدر السابق ص٤٧ ـ٤٨.

٣٥ـ ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق ص١٠٠.

٣٦ــ ابن بشكوال ، المصدر السابق، ج٢ ص٤٧٦ و٥٠٧ و٥٤٧ و ٥٧١

٣٧ـ المالكي ، رياض النفوس ،ج١ ص١٧٦ـ ١٧٧.

٣٨ـ محمود عرنوس المرجع السابق ص١٣٦.

٣٩ـ محمد علي دبوز ، المغرب الكبير ،ج٢ طبعة القاهرة، دار احياء الكتب العربية ١٩٦٣ ص٣٢١.

٤٠ـ يقع هذا الجبل إلى الجنوب من طرابلس عاصمة ليبية على بعد يتراوح بين ٨٠ إلى ١٨٠ كم ويسمى اليوم محافظة الجبل الغربي، وفيه بلدان غريان وزنتان ويفرق.

٤١ـ سعد زغلول عبد الحميد ،المرجع السابق ص٧٥.

٤٢ـ ابن الغرضي (عبد الله بن محمد)، تاريخ علماء الاندلس، ج١ علماء الاندلس ج١، الدار المصرية للتاليف والنشر والترجمة، القاهرة ١٩٦٦ ص٣٨٩ الخشني المصدر السابق ص٦٧.

٢٤٣ ابن الغرضي، المصدر السابق ص٢٢٦ ٢٢٧٢.

٤٤ـ النباهي ،المصدر السابق ص٥٣ ـ ٥٤.

٤٥ـ محمود عرنوس ،المرجع السابق ص٢٧.

٤٦ـ النباهي ،المصدر السابق ص٦٠.

٤٧ـ النباهي ،المصدر السابق ص١١٣.

٤٨ـ ابن الدباغ ،معالم الايمان في معرفة اهل القيروان، ج٢ تحقيق مصطفى عوض الحكيم، طبعة اولى الخرطوم ١٩٥٤ ص٢٩١ ـ ٢٩٢.

٤٩ـ ابن عبد الملك المراكشي ،المصدر السابق ص٤٢ ـ ٤٣.

٥٠ـ النباهي ،المصدر السابق ص٧٨،

٥١ـ شكيب ارسلان ،المصدر السابق ج١ ص١٤ـ١٥.

٥٢ـ سعد زغلول عبد الحميد ،المرجع السابق ص٧٥ـ ٧٦.

٥٣ـ ابن بشكوال ،المصدر السابق ص٢٣٦ ـ٢٣٧.
٥٤ـ ابن الخطيب (محمد بن عبد الملك السلماني)، الاحاطة في اخبار غرناطة تحقيق محمد عبد الله عنان، طبعة ثانية القاهرة ١٩٧٣، ص١٨٧
٥٥ـ سعد زغلول عبدالحميد ،المرجع السابق ص٧٦.
٥٦ـ محمد علي دبوز ،المرجع السابق ص٧٦.
٥٧ـ الضبي (احمد بن يحيى) ،بغية الملتمس، دار الكاتب العربي ١٩٦٧ ص١٤٤
٥٨ـ الخشني ،المصدر السابق ص٦٧ وما بعدها.
٥٩ـ سعد زغلول عبد الحميد ،المرجع السابق ص٧٧.
٦٠ـ النباهي، المصدر السابق ص٤٨.
٦١ـ سعد زغلول عبد الحميد ،المرجع السابق ص٧٨.
٦٢ـ الغبريني (أحمد بن احمد)، عنوان الدراية تحقيق عادل نويهض منشورات لجنة التاليف والترجمة والنشر، بيروت طبعة اولى ١٩٦٩ ،ص٦٣ عبد الملك المراكشي ، المصدر السابق ص٤٢٨.
٦٣ـ ابن عبد الملك المراكشي ،المصدر السابق ص٤٢٨ـ٤٢٩ ؛ابن الفرضي ،المصدر السابق ص٦٠ ـ ٦١.
٦٤ـ المالكي ،رياض النفوس ،ج٢ ص ٣٩٧.
٦٥ـ ابن الدباغ ،المصدر السابق ج٢ ص٣٥ ـ ٣٦.
٦٦ـ ابن الدباغ ،المصدر السابق ج٢ ص٣٣٧.
٦٧ـ النباهي ،المصدر السابق ص٢٨ـ ٢٩ ؛ابن الدباغ المصدر السابق ص٦٠ـ ٦١.
٦٨ـ ابن الدباغ ،المصدر السابق ج٢ ص١٩٨ ١٩٩٢؛ القاضي عياض ، المصدر السابق ج٢ ص٥٩٥ وما بعدها.
٦٩ـ النباهي ،المصدر السابق ص٥٠ـ٥١.
٧٠ـ حسن حسني عبد الوهاب ،المرجع السابق ج٢ ص١١٦.
٧١ـ ابن الدباغ، المصدر السابق ج٢ ص١٥٢.
٧٢ـ ابن الدباغ ـ المصدر السابق ج٢ ص٣٢٧.
٧٣ـ النباهي ،المصدر السابق ج٢ ص٦٤ ـ٦٥.
٧٤ـ النباهي ، المصدر السابق ص٦١.
٧٥ـ القاضي عياض ، المصدر السابق ج٣٢ ص٧٧٥ ـ ٧٥٦ ؛ابن بشكوال، المصدر السابق ص٦٥٠.
٧٦ـ ابن بشكوال ،المصدر السابق ج٢ ص ٦٦٨ ـ٦٦٩.
٧٧ـ ابن بشكوال ،المصدر السابق ج١ ص١٣٧ ـ١٣٨.
٧٨ـ ابن بشكوال ،المصدر السابق ج٢ ص٥٠٥.
٧٩ـ النباهي ، المصدر السابق ص٨٩.
٨٠ـ الخزاعي (علي بن محمد)، تخريج الدلالات السمعية ، تحقيق احسان عباس، طبعة بيروت دار الغرب الاسلامي بدون تا ص٢٨٣.
٨١ـ المقري (احمد بن محمد التلمساني)، نفح الطيب ج١، تحقيق احسان عباس، طبعة بيروت ١٩٦٨ ص٦٥ و٤٨٢.
٨٢ـ الخشني ، المصدر السابق ص١٤١.
٨٣ـ ابن الدباغ ، المصدر السابق ج٢ ص٢٤٢.
٨٤ـ ابو العرب ،طبقات علماء افريقية، تحقيق علي الشاوي ونعيم الباقي، طبعة الدار التونسية للنشر

1968 ص 180؛ابن عذاري ـ البيان المغرب ج1 ص195.
85ـ ابن عبد الملك المراكشي ، المصدر السابق ص249.
86ـ ابن بشكوال ، المصدر السابق ص504.
87ـ حكم الاندلس خلال عصر الخلافة من سنة 367 إلى سنة 392.
88ـ المقري ، نفح الطيب ج1 ص409 ـ 410.
89ـ القاضي عياض ،المصدر السابق ج3 ـ4 ص784 ـ 785، احمد بدر ،تاريخ الاندلس، طبعة دمشق 1982 ص51.
90ـ انظر مثالاً عن ذلك، الدرجيني ـ طبقات المشايخ بالمغرب ،ج2 تحقيق ابراهيم طلاي، طبعة قسطينة الجزائر ص331ـ337 المالكي ، رياض النفوس ،ج2 ص397 و476.
91ـ ابن بشكوال، المصدر السابق ج2 ص336 ـ 337 ،محمد عرنوس، المرجع السابق ص188.
92ـ ابو العرب ـ المصدر السابق ص84 المالكي رياض النفوس ص185.
93ـ الحميري (محمد بن عبد المنعمو)، الروض المعطار في خبر الاقطار، تحقيق احسان عباس طبعة بيروت 1975،ص85، مؤسسة الرسالة 1976 ص70.
99ـ ابن الاحمر الغرناطي، المصدر السابق ص226ـ227.
100ـ ابن الاحمر الغرناطي، المصدر السابق ص119 و224.
101ـ ابن الخطيب ،ا لاحاطة في اخبا ر غرناطة ،ج2 ص387.
102ـ ابن الدباغ، معالم الايمان ،ج2 ص332 ـ 333.
103ـ شجرة النور الزكية ص244.
104ـ ابن دحية (عمر بن الحسن) ،المطرب من اشعار أهل المغرب ،تحقيق مصطفى عوض الكريم، طبعة اولى الخرطوم 1954 ص (و).
105ـ ابن الاحمر الغرناطي المصدر السابق ص156ـ،ذــ
106 ـ سورة الشورى ،الاية 42.
107ـ النباهي ،المصدر السابق، ص107.
108ـ شكيب ارسلان ،المرجع السابق، ج2 ص145.
109ـ الناصري ،الاستقصاء لاخبار دول المغرب الاقصى، ج4، تحقيق جعفر ومحمد الناصري، طبعة الدار البيضاء، دار الكتاب 1954 ص59.
110ـ النباهي ، المصدر السابق، ص 104.
111ـ المقري ،نفح الطيب ج2 ص616 ـ617.
112ـ سورة البقرة ،الاية 282.
113ـ النباهي ،المصدر السابق ،ص139ـ 140.
114ـ الناصري ،المصدر السابق ،ص199 ـ200.
115ـ ابن الدباغ ،المصدر السابق ج1 ص307ـ308.
116 ـ القنوجي (صديق بن حسن)، التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والاول، تصحيح عبد الحكيم شرف الدين ،الطبعة الهندية العربية. بومباي ،1963 ص 440 ـ 441.
117ـ المقري ،نفح الطيب ج5 ص386.
118ـ ابن الغرضي ، المعجم في اصحاب القاضي ابن علي الصدقي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة 1967 ،ص257.

١١٩ـ حسن حسني عبد الوهاب ، المرجع السابق ص٤١٥.
١٢٠ـ ابن خلدون (عبد الرحمن)، التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، منشورات دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٣ ص٤٦٨.
١٢١ـ ابن خلدون ، العبر، ج١٣ ص٤٦٨.
١٢٢ـ ابن عبد الملك المراكشي ، المصدر السابق ص٥٩٣.
١٢٣ـ ابن القاضي (أحمد بن محمد المكناسي)، ذيل وفيات الاعيان المسمى درة الحجال في اسماء الرجال، ج٣ ،تحقيق محمد الاحمدي ابو النور، طبعة القاهرة وتونس ١٩٧١، ص١٤٢.
١٢٤ـ انظر امثلة عن هؤلاء القضاة ، النباهي، المصدر السابق ص٣٢.
١٢٥ـ ابن الاحمر الغرناطي ، اعلام المغرب والاندلس ص١٦٧.
١٢٦ـ المقري ، نفح الطيب ،ج٤ ص٢٩٤ـ٢٩٥.
١٢٧ـ ابن منظور ، لسان العرب مادة (ذمم).
١٢٨ـ سورة التوبة ،الاية ١٠.
١٢٩ـ الكاساني (علاء الدين ابو بكر بن مسعود)، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، ج٥، الطبعة الثانية بيروت دار الكتب العلمية ١٩٨٦ ص٢٨١.
١٣٠ـ ابن قيم الجوزية ، احكام اهل الذمة، ج١، تحقيق صبحي الصالح، دار العلم للملايين، طبعة ثانية بيروت ١٩٨١ ص٢٦.
١٣١ـ عمر فروخ ، العرب والاسلام في الحوض الغربي للبحر المتوسط، طبعة ثانية، بيروت دار الكتاب العربي ١٩٨١ ص١٨٤.
١٣٢ـ خالد الصوفي ـ تاريخ العرب في اسبانية طبعة مكتبة دار الشرق بدون تا ص٩١.
١٣٣ـ ادم متز، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري، ج١، ترجمة محمد عبد الهادي ابو ريدة، طبعة رابعة بيروت، دار الكتاب العربي ١٩٦٧ ص٩٥.
١٣٤ـ المستعربون مجموعة من السكان الاسبان بقوا على دينهم، واصطبغوا بالتدريج بصبغة الحضارة العربية.
١٣٥ـ خير الله طلفاق، المرجع السابق ص١٦٩.
١٣٦ـ النباهي ، المصدر السابق ص٥٦ـ٥٧.
١٣٧ـ ابن خلدون ،العبر، ج٢ ص٣٩٠.
١٣٨ـ المقري ، نفح الطيب ج١ ص٣٩٠ ـ ٣٩١.
١٣٩ـ ابن حيان (أبو مروان)، المقتبس في اخبار اهل الاندلس، تحقيق عبد الرحمن الحجي، طبعة بيروت، دار الثقافة ١٩٦٥ ص١٤٦ و١٤٩.
١٤٠ـ انظر مثالاً عن رجل يهودي حدث له مثل ذلك ، المالكي ، رياض النفوس، ج٢ ص٣٥٩.
١٤١ـ شجرة النور الزكية ص١٧٧ .
١٤٢ـ مؤلف مجهول ، الحلل الموشية في الأخبار الاندلسية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، طبعة الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة ١٩٧٩ ص٩٠.
١٤٣ـ مؤلف مجهول ، المصدر السابق ص٨٠ ـ ٨١.
١٤٤ـ هي جزر ميورقة ومنورقة ويابسة في شرق الاندلس.
١٤٥ـ ابن الابار (محمد بن عبد الله)، التكملة لكتاب الصلة، ج١، عني بنشره عزة العطار الحسيني، طبعة القاهرة ١٩٥٦ ص٢٩٣.

ثبت المصادر والمراجع

١ ـ ابن الابار (محمد بن عبد الله) ،التكملة لكتاب الصلة، طبعة القاهرة ١٩٥٦ عني بنشره عزت العطار الحسيني.
٢ ـ ابن الاحمر الغرناطي (اسماعيل)، اعلام المغرب والاندلس في القرن الثامن، وهو كتاب نثير الجمان في شعر من نظمني واياه الزمان ،تحقيق محمد رضوان الدايه ،الطبعة الاولى بيروت مؤسسة الرسالة ١٩٧٦.
٣ ـ ابن بشكوال (خلف بن عبد الملك) كتاب الصلة الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦.
٤ ـ ابن حيان (أبو مروان)، المقتبس في أخبار أهل الاندلس ، تحقيق عبد الرحمن الحجي ، طبعة بيروت دار الثقافة ١٩٦٥.
٥ ـ ابن الخطيب (محمد بن عبد الله)، الاحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، طبعة ثانية القاهرة ١٩٥٤.
٦ ـ ابن خلدون (عبد الرحمن)، التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا منشورات، دار الكتاب اللبناني ١٩٥٤.
٧ ـ ابن الدباغ ، معالم الايمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق مصطفى عوض الحكيم،طبعة اولى الخرطوم ١٩٥٤.
٨ ـ ابن دحية (عمر بن الحسن)، المطرب من اشعار اهل المغرب، تحقيق مصطفى عوض الكريم، طبعة اولى الخرطوم ١٩٥٤.
٩ ـ ابن صاحب الصلاة، المن بالاقامة، تحقيق عبد الهادي التازي، دار الاندلس للطباعة والنشر ،بيروت طبعة اولى ١٩٦٤.
١٠ ـ ابو العرب ، طبقات علماء افريقية تحقيق، على الشاوي ونعيم الباقي، طبعة الدار التونسية للنشر ١٩٨٠.
١١ ـ ابن الغرضي (عبد الله بن محمد)، تاريخ علماء الاندلس، طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة ١٩٦٦ ؛ المعجم في اصحاب القاضي ابي علي الصدقي ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٧.
١٢ ـ ابن القاضي (احمد بن محمد المكناسي)، ذيل وفيات الاعيان المسمى درة الحجال في اسماء الرجال، تحقيق محمد الاحمدي ابو النور، طبعة القاهرة وتونس ١٩٧١.
١٣ ـ ابن القوطية (محمد بن عمر القرطبي)، تاريخ افتتاح الاندلس ، تحقيق عبد الله انيس الطباع، طبعة بيروت ١٩٥٧.
١٤ ـ ابن قيم الجوزية (محمد بن ابي بكر)، اعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق محي الدين عبد الحميد، بدون تا. احكام اهل الذمة تحقيق صبحي الصالح، دار العلم للملايين، طبعة ثانية بيروت ١٩٨١.
١٥ ـ ابن كثير (اسماعيل بن عمر)، تفسير القرآن، طبعة ثانية بيروت، دار المعرفة ١٩٨٨.
١٦ ـ آدم متز ، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي ابو ريدة، طبعة رابعة بيروت، دار الكتاب العربي ١٩٦٧.
١٧ ـ حسن حسني عبد الوهاب ، كتاب العمر ، مراجعة واكمال محمد العروسي المطوي وبشير البكوشي ، طبعة اولى بيروت، دار الغرب الاسلامي ـ بدون تا.
١٨ ـ الحميري (محمد بن عبد المنعم)، الروض المعطار في خبر الاقطار، تحقيق احسان عباس، طبعة بيروت ١٩٧٥.

١٩ ـ خالد الصوفي ، تاريخ العرب في اسبانية طبعة مكتبة دار الشرق، حلب بدون تا؛ الخزاعي (علي بن محمد)، تخريج الدلالات السمعية، تحقيق احسان عباس، طبعة بيروت، دار الغرب الاسلامي بدون تا.
٢٠ ـ الخشني ، قضاة قرطبة ، طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦.
٢١ ـ الدرجيني ، طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق ابراهيم طلاي ، قسنطينة الجزائر بدون تا.
٢٢ ـ دوزي ، ملوك الطوائف ، ترجمة كامل كيلاني، طبعة اولى القاهرة ١٩٢٣.
٢٣ ـ الذهبي (محمد بن احمد)، العبر في خبر من غبر ج٥ تحقيق ابو هاجر محمد زغلول، طبعة اولى بيروت، دار الكتب العلمية ١٩٨٥.
٢٤ ـ سعد زغلول عبد الحميد، هامش على مصادر الاباضية في المغرب ، دراسة لكتاب السير في مجلة اشغال المؤتمر الاول لتاريخ المغرب العربي وحضارته، المطبعة المصرية بتونس ١٩٧٩
٢٥ ـ شارل جوليان ، تاريخ شمال افريقية، ترجمة محمد مزال والبشيرين، المطبعة التونسية للنشر، تونس ١٩٧٨.
٢٦ ـ شكيب ارسلان ، الحلل السندسية طبعة اولى، فاس المكتبة التجارية الكبرى ١٩٣٦.
٢٧ ـ الضبي (احمد بن يحيى)، بغية الملتمس، دار الكاتب العربي ١٩٦٧.
٢٨ ـ عمر فروخ ، العرب والاسلام في الحوض الغربي للبحر الابيض المتوسط، طبعة ثانية بيروت ، دار الكتاب العربي ١٩٨١.
٢٩ ـ الغبريني (احمد بن احمد) ،عنوان الدراية، تحقيق عادل نويهض، منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر بيروت، طبعة اولى ١٩٦٩.
٣٠ ـ القاضي عياض (اليحصبي)، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، تحقيق احمد بكير محمد، دارمكتبة الحياة بيروت ١٩٦٧.
٣١ ـ القنوجي (صديق بن حسن) التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الاخر والاول، تصحيح عبد الحكم شرف الدين، المطبعة الهندية العربية بومباي ١٩٦٣.
٣٢ ـ الكاساني (علاء الدين ابو بكر بن مسعود)، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الطبعة الثانية، بيروت دار الكتب العلمية ١٩٨٧.
٣٣ ـ المالكي ، رياض النفوس ، تحقيق بشير البكوشي، طبعة دار الغرب الاسلامي بيروت ١٩٨٣.
٣٤ ـ الماوردي (علي بن محمد)، الاحكام السلطانية، طبعة بيروت دار الكتب العلمية بدون تا.
٣٥ ـ محمد علي ديوز، المغرب الكبير، القاهرة دار احياء الكتب العربية ١٩٦٢.
٣٦ ـ محمود عرنوس، تاريخ القضاء في الاسلام، نشر مكتبة الكليات الازهرية بمصر دون تا.
٣٧ ـ المراكشي (ابن عبد الملك)، الذيل والتكملة، السفر الخامس، تحقيق احسان عباس بيروت دار الثقافة ١٩٦٥.
٣٨ ـ المقري (احمد بن محمد التلمساني)، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب، تحقيق احسان عباس، طبعة بيروت ١٩٦٨.
٣٩ ـ مؤلف مجهول ، الحلل الموشية في الاخبار الاندلسية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، طبعة الدار البيضاء دار الرشاد الحديثة ١٩٧٩
٤٠ ـ الناصري ـ الاستقصاء لاخبار دول الغرب الاقصى تحقيق، جعفر ومحمد الناصري، طبعة الدار البيضاء، دار الكتاب ١٩٥٤.
٤١ ـ الونشريسي ، كتاب الولايات، تحقيق محمد الامين بلغيث، بدون تا.